رواية

الرواية

نوال السعداوى



الرواية

تأليف

نوال السعداوي

إهداء

إلى الطيور المهاجرة،

هربـًا من الموت

إلى المسافرين والمسافرات

بحثـًا عن الأمل

أحدثت الرواية غضبا عارما.

الفتاة في الثالثة والعشرين مـن عمرهـا، مجهولـة الأب، ليس لها أسرة ولا شهادة ولا بطاقة مختومـة، كانـت هي روايتها الأولى، تكتبها بقلمها دون أن تكون كاتبة، دون أن تقرأ قصص الأنبياء ولا الشعراء ولا الأدباء.. لم ينـدرج اسمها ضمن الكاتبات.

قوامها ممشوق من طول المشي سعيا وراء الرزق، يرتكز على عمود فقري صلب، تقاطيع وجهها بارزة حـادة من شدة النحافة، منحوتة في عظام قوية كالصخرة.

كان موسم الانتخابات على الأبواب، تسبقه فضـائح الجنس والفساد للمرشحين والمرشـحات، تحظـى النسـاء بنصيب أكبر بطبيعة الحال.

وكان هناك مجلسا للشيوخ يسمونه مجلس الشورى، يضم الحكماء من الذكور المسنين، والحكيمات مـن النسـاء المسنَّات، بطل الروايـة عضـو بـالمجلس، فـي الرابعـة والخمسين، أصغر الأعضاء سنًا، يبدو شابا رياضيا، يمارس لعبة الجولف كل يوم، بشرته ملوحة بالشمس، عيناه يكسوهما بريق، يرتدي بدلة أنيقة، وربطة عنق زاهية الألوان، حليـق

الوجه بلا شارب ولا لحية، تفوح منه رائحة معجون الحلاقة " لافندر "، خطوته واسعة سريعة يعمل في مؤسسة صـحفية كبيرة، صدرت له ثماني روايات، مشغول بكتابـة الروايـة التاسعة، اسمه "

*****

كان رستم يتمشى على كورنيش النيل فـي الليـالي القمرية الدافئة، يتوقف أمام الكشك على الناصية، يسـمونه " بوتيك "، صاحبه شاب من أبناء الشهداء، يرتدي جلبابا أبيض ولحية طويلة سوداء، تتدلى المسابح فوق واجهـة البوتيـك، والمصاحف ذات الأغلفة الذهبيـة، والمبـاخر وإمسـاكيات رمضان وأحجبة النساء.

يتهلل وجه الشاب كعادته حين يرى رستم قادما

ـ أهلا سعادة الباشا!

يناوله الشاب القطعة الصغيرة مما توضع في الشيشة أو تحت اللسان، والرواية الملفوفة داخل حجاب سميك مـن الورق لا يشف العنوان، وإمساكية الصيام،

كان شهر رمضان على الأبـواب، ومعـه معركـة الانتخابات.

- الأخبار إيه يا محمد؟

صوت رستم فيه بحة ذكورية خشنة، مملوءة بالرجولة مع الدخان الكثيف، تجذب الشابات الصغيرات القارئات لرواياته الشائعة.

- الدولار طالع يا سعادة الباشا والجنيه نازل يرف.

يناوله رستم مظروفًا بني اللون مرسوم عليه رأس النسر، مغلق بشريط من السيليوتيب، يحمله الشاب بيديه الاثنتين بعناية شديدة، كأنما طائر يخشى أن يحلق بأجنحته ويطير، ثم يختفي وراء قبو خشبي داخل البوتيك، بعد دقائق قليلة يخرج حاملاً كيسا من البلاستيك الأسود.

- عدهم يا سعادة الباشا.
- أعد وراك يا محمد؟
- يلزمك كام إمساكية يا باشا؟
- حسب الناخبين.. ألفين.. ثلاثة.. أربعة.
- الناس كلها معاك وربنا معاك.
- ربنا فوق الجميع.

*****

في الليل قبل أن ينام ينزع رستم الغلاف السميك عن الرواية، كأنما ينزع الملابس عن امرأة، يعشق القراءة مـع الدخان والكأس، تتحرك شهوته للمحرمات، مثـل الآخـرين والأخريات، وكل ممنوع مرغوب كما يقولون.

فوق ظهر الغلاف كانت صورة المؤلفة الشابة، داخل مربع صغير، تسمرت عيناه فوق ملامح الوجـه، التقـاطيع الحجرية البارزة، عيناها ثابتتان في عينيه ثاقبتان قاطعتـان كحد السكين، في الثالثة والعشرين، تصغره بواحد وثلاثـين عاما، ولدت في ربيع ١٩٨١، العام الذي صدرت فيه روايته الثامنة الحائزة على الجائزة الأولى، تسلمها في حفل كبير من يد الرئيس قبل اغتياله بخمسة شهور.

وأصبحت صورة الفتاة تظهر له في الحلم وهو نائم

****

الفصل الأول

هربت الفتاة إلى مكان بعيد تكتب فيه الرواية.

لم تأخذ معها إلا حقيبة بهـا ملابسـها وأوراقهـا، والجنين تحمله في أحشائها، سافرت إلـى الشـاطئ البعيـد لتقترب من البحر المفتوح، تنشد الفرار من ظلام الجـدران،

وقرار القبض والإعدام، أرادت أن تهب الحياة لطفلتها، ثمرة الحب المقدس، النطفة الإلهية في رحم العذراء.

في الليل حين تسكن الريح وتنام مياه البحر، ترقد الطفلة غير المولودة في أعماقها، غير المعروفة النسب، مثل روايتها الأولى، لا تعرف اسمها كان الناس يعيشون في رعب، أكثر ما يعربهم المجهول، والأشياء غير المعروفة الاسم، حتى الشيطان عرفوا اسمه " إبليس ".

تضغط الفتاة على مفتاح النور بجوار سريرها، تعود بذاكرتها إلى مدينتها، اجتازت عرض البحر من الجنوب إلى الشمال لتبتعد عنها، تحتاج الرؤية إلى بعد المسافة، بعيدا عن الضجيج والأصوات الزاعقة، بعيدا عن تراب الأزقة ولهيب الصيف، تنزع التلافيف الملفوفة حول رأسها، تنظر إلى وجهها المكشوف لضوء الشمس، جسدها يسبح في البحر كالسمكة الفضية، عيناها مفتوحتان على الأفق دون سقف.

في أذنها طنين يذكرها بالذباب في حي السيدة زينب، ودقات المنبه القديم بجوار وسادتها، وابتهالات الشحاذين والشحاذات أمام باب المسجد، يطلبون الرحمة والعدل من السماء، دون جدوى، تبقى السماء ممدودة فوق رؤوسهم في

صمتها الأبدي، إلا بعض لحظات نادرة في الشـتاء، تنـذر بصوت الرعد، يتساقط رذاذ مطر خفيف، لا يلبث أن يجف.

كانوا يجلسون في المقهى الصغير بالقرب من ميدان التحرير، يرشفون النبيذ، بعد الكأس الأولى تنتابهـا نشـوة حزينة، إلى جوارها يجلس سميح، داخل بدلة رماديـة دون ربطة العنق، وجه شاحب نحيف، عيناه خضراوان، أمامهـا تجلس كارمن، داخل ثوبها الملون، شعرها بني اللون كثيف، يهتز مع رأسها وضحكاتها المنطلقة، على جوارهـا رسـتم بوجهه الملوح بالشمس، داخل بدلة سماوية، وربطـة عنـق حمراء بها دوائر زرقاء، عيناه شـاردتان، يمـلأ الكئـوس الفارغة، يناولها كأسها، تتلاقى عيونهما في لحظة سريعة ثم يعود إلى شروده، تبقى عيناها في عينيه وإن غابت، ثابتتـان ثاقبتان قاطعتان كحد السكين، مقلتان كبيرتان زرقتهما سوداء مثل أعماق المحيط، تذوب فيهما الألوان والأجناس تكسـبهما جاذبية خاصة تعلو فوق الجنس.

مدينة القاهرة في الليل مؤنثة الاسم، عقلها الظـاهر في النهار يؤمن بالمثال الذكر، عقلها البـاطن تعـيش فيـه الأنثى، تجوب شوارعها سيرا على قدميها، أو داخل السيارة

المرسيدس، بلون البلادة، يقودها رستم، أول مـرة يـدعوها وحدها، كانت كارمن في نيويورك تشارك في مـؤتمر عـن الرواية " ما بعد الحديثة "، سميح كان فـي أسـيوط يلقـي محاضرة في الجامعة عن " بيولوجيا الثـقافة ".

في شارع الهرم تعلقت عيناها بقمم الأهرامات، تلمح وجه رستم من الجانب، أنفه مرفوع فـي كبريـاء، شـفتاه ممتلئتان غليظتان كالشفاه الإفريقية، يداه كبيرتـان يغطيهمـا شعر أصفر ملوح بالشمس، تتحركان فوق عجلة القيادة فـي ثبات وثـقة.

المرة الأولى يدعوها وحدها، تعودوا أن يكونوا معا هم الأربعة، شيء خفي يحدث بينهم، تيار مـن الأحاسـيس المبهمة يثير القلق.

حين تكون الفتاة وحدها يجتاحها إحسـاس جـارف بالحزن، من حولها جدران الشقة الضيقة في الزقاق المسدود، تشاركها الشقة جمالات، صحفية متوسطة العمـر، ضـخمة الجسم، شعرها المصبوغ بالحنة الحمراء ملفـوف بطرحـة بيضاء، وجهها أبيض سمين تغطيه بالمسـاحيق والألـوان، عيناها سوداوان ترسمهما بالكحل، حاجباها رفيعان مرسومان

بسن القلم على شكل قوس، أنفها عريض، وشفتاها رقيقتـان مصبوغتان باللون الأحمر.

الشقة من غرفتين، واحدة للفتاة والثانيـة لجمـالات، بكل غرفة سرير عريض من الخشب الكالح، ودولاب قـديم للملابس، ومنضدة صغيرة للأكل والكتابة، والضرب عليهـا بقبضة اليد عند الغضب، الصالة ضيقة مظلمة، نافذة واحـدة تطل على المنور، والمطبخ أشد ظلمة، لا يتسـع إلا لغسـل الصحون في الحوض، والوقوف أمام النار للطبخ.

قال رستم وهو يقود سيارته المرسـيدس، القـاهرة مدينة لا تقهر إلا الضعفاء، يتخفى فيها الفساد تحت حجـاب العرف، كانت تشعر بتأنيب الضمير، لماذا قبلـت دعوتـه؟ كانت تبحث عن عمل مثل الشباب العـاطلين والعـاطلات، أملهم الوحيد هو الهجرة، أو السفر خـارج الـوطن، كلمـة الوطن تقف في حلقها كالغُصة.

كانت كرامن تأخذها بسيارتها حين يسافر زوجها، لم تكن تركب سيارته المرسيدس الكبيرة، تفضل سيارتها الفيات الصغيرة، تخرجها من جاراج البيت في جاردن سيتي، تجتاز شارع قصر العيني إلى شارع المبتـديان، تـدخل الزقـاق

المسدود في حي السيدة زينب، تتوقف أمام البـاب الخشـبي الكالح، تضغط على بوق السيارة مرتين، تهبط الفتاة السلالم المظلمة، تتفادى السلمة المكسورة قبـل الـدور الأرضـي، تركب إلى جوارها، تنطلق بهما إلى صحاري سيتي، تـركن كارمن السيارة أمام الشاليه الصغير وسط الصحراء، تخلعان الأحذية وتمشيان فوق الرمال الناعمة، تحكي لها كارمن عن رواية قرأتها، أو نكتة سمعتها، أو حادث وقع لها.

توقفت فجأة عن الكلام، دوى صمت الصحراء فـي أذنها كالصفير الحاد، منذ طفولتها تخـاف الظـلام، الـتلال الرملية تبدو من بعيد كالأشباح، كارمن واقفة ثابتة، عيناهـا تنظران بعيدا ناحية قمم الأهرامات،

جاءها صوتها خافتًا.

ـ رستم يحبك.

ـ زوجك؟

ـ أيوه.

رغم مرور الأيام بقى صوتها في أذنهـا، " رسـتم يحبك "، الارتجافة مع المفاجأة، القشعريرة والرعشة تحـت ضلوعها، كيف عرفت ما لم تعرفه هي؟

ـ أنا لا أعرف شيئًا، أقسم..

ـ لا داعي للقسم، أنا أصدقك.

في غرفتها في زقاق السيدة فكـرت كيـف نطقـت الكلمتين " أقسم با "، ليس من عادتها أن تقسم با ، لا تحترم الناس الذين يقسمون با ، كاذبون لا بد وإلا ما كـانوا فـي حاجة إلى القسم.

عاد رستم من السفر، جاءها صوته عبـر أسـلاك التليفون يدعوها إلى ندوة عن رواية " بحـر سارجوسـا "، لكاتبة من الكاريبيان اسمها " جين ريس " كانت تحب حضور هذه الندوات، تعقد في دار النشر في مصر الجديدة، ورثهـا سميح عن أبيه، تفرغ لها وجعلها مركز إشعاع للأدب والفن.

كان سميح يملأ حياتها على نحو مـا، تجمعهـا بـه علاقة حب، زال عنها الوهج والشوق الجامح، أصبحت مثل نهر هادئ، لا شيء يدق تحت الضـلوع، ولا شـيء يثيـر الخيال.

****

على الشاطئ البعيد كانت المدينة الأخرى، اسـمها برشلونة، في شهر الربيـع تتغطـى شـوارعها بالشـباب

والشابات، أجسام ممشوقة رشيقة، لا تعرف نوع الجنس من الملابس أو الشكل الخارجي، لا شيء يفـرق الأنوثـة عـن الذكورة، إلا المشاعر العميقة غير المدركة بالعقل الـواعي، برشلونة مدينة مؤنثة الاسم والجسم، وإن ظل عقلها ذكوريا، اختفى كيانها تحت اسم الشبح أو الروح القدس،

لم تستطع كارمن أن تتخلص من إيمانها بالمسيح، لم يؤمن زوجها رستم بإله سماوي، ساعدته علوم الفلسفة علـى ذلك، سميح أدرك هذه الحقيقة في طفولته، قبـل أن يـدخل المدرسة.

كانت الفتاة تعاني ما يشبه عقدة النقص، لـم تـدخل الجامعة ولم تحصل على شهادة، نشأت في الفقر والحاجة إلى العمل، تنظر إلى الكون باعتباره موجودا منـذ الأزل وبـاق إلى الأبد، لم يشغلها كثيرا كيف جاء، لم تقرأ الكتب الدينيـة، تفضل قراءة الأدب والروايات، تحرر عقلها وانطلـق فـي الأفق الواسع، بقيت روحها حبيسة الجسد، يستهويها الحـوار بين سميح ورستم وكارمن، تشترك فيه بقلب بارد خال مـن الإيمان، أحشاؤها ترتعش حين ينطق أحدهم بكلمة إلحاد.

كان ذلك في الأيام الأولى لعلاقتهما، قبل أن تعـرف أنه يحبها، وقبل أن تعرف كارمن، أول من عرف هو سميح، كانوا يجلسون كعادتهم في المقهى الصغير، يرشفون النبيـذ على مهل، سميح يتحدث عن بيولوجيـا الفلسـفة وكيميـاء المشاعر.

بعد أن تركها رستم وكارمن تمشت مع سميح علـى كوبري قصر النيل، الموجات على سطح الماء تلمـع تحـت الضوء كالأسماك الفضية، كان سميح يقول ممسكًا يدها،

- ألم تلاحظي شيئًا على رستم؟

- تقصد إيه؟

- أظن أنه يحب.

اهتز حديد الكوبري تحت قدميها، توقفـت ، كيـف يلاحظ سميح ما لم تلاحظه هي، مع أن الأمر يتعلق بها.

*****

تطل الفتاة من نافذتها العالية على مينـاء برشـلونة، مياه البحر الأبيض تتابعها، تسبح معها جنوبا وشـرقًا حتـى شاطئ الأسكندرية، مهما ابتعدت يظل الحنين، ليس لها وطن أو مسقط رأس، ليس لها أهل تعود إليهم، لم تكن لها طفولـة

ولا حكايات المارد والغولة، ينتابهـا الحنـين أحيانًـا إلـى القضبان، ورائحة الأرض الأسـفلت والمجـاري، تترامـى رائحتها عبر البحر، يمحو الزمن عفونة الماضي، ويسـتحيل الألم لذة على نحو ما.

تعيش الفتاة في غرفة صغيرة فوق سـطح عمـارة عالية، تملكها امرأة اسمها " يولاندا "، تسكن الـدور الأول، تملك محلاً لبيع الخمور في الدور الأرضـي، يطـل علـى الميدان ومطعم صغير يشتهر بوجبة " بـاييلا مـارينيرا "، خليط من قواقع البحر والجمبري والطماطم، والبصل والثوم، مع الأرز المطبوخ، لونه ذهبي أصفر، يلمع تحت الضـوء، يتصاعد منه البخار، يثير شهيتها وهي تمشي أمام المطعـم، ثمن هذه الوجبة تسعة يورو، لم يكن لها عمـل ولا مـورد رزق.

يولاندا قصيرة سمينة، حول عينيها دوائر رماديـة، بشرتها مترهلة بيضاء، تلف شعرها الأصفر بشريط أسـود، تبعثر أولادها وبناتها في بلاد العالم، إلا ولد واحـد اسـمه فرانسيسك، يتقمص شخصية " سـلفادور دالـي " بشـاربه الضخم، يقف في " الرامبلا " مثل تمثـال، جسـمه مـدهون

بمسحوق أبيض، شاربه منتصب مثل طائر أسـود، يـؤدي حركات البانتومايم الصامتة، ثم يتجمد فجأة، يصـبح تمثـالاً مصنوعا من الحجر أو الجرانيت، يمر به النـاس يرمقونـه بإعجاب لا يخلو من الإشفاق، قد يلقي أحدهم بقطعـة مـن النقود في القبعة الراقدة فوق الأرض أمام قدميه.

أول مرة رأت " يولاندا " كانت جالسة في المطعـم، تلتهم صحن الباييلا مارنييرا، رأتها ترمق الجنبري المقلـي والأرز الذهبي يتصاعد منه البخار، عقدت معها صفقة قبلتها بحكم الضرورة، أن تشتغل في المطعـم أربعـة أيـام فـي الأسبوع مقابل الغرفة فوق السطوح.

ـ ومن أين آكل يا يولاندا؟

قالتها باللغة الكاتلانية الركيكة، مع الإشارات بيـدها إلى فمها، هزت يولاندا رأسها وأشارت إلى الغرفة الداخليـة في المطعم، رمقت جسمها الناحل ووجهها الشاحب الطويل:

ـ لا أظن أنك تأكلين كثيرا يا ابنتي.

نطقت كلمة ابنتي بصـوت أمـومي، لا يـنم عنـه مظهرها القاسي، له رنين معدني يشبه الآلة الحاسبة، قـدمت لها صحنًا من الباييلا الساخنة بدأت الفتاة العمل في هذا اليوم

الأول حتى منتصف الليل، ثم أخذت المصعد إلى الدور الأخير، ومنه صعدت السلالم إلى السطح، توقفت لحظة تستنشق هواء البحر، تشهد ميناء برشلونة من بعيد، أطراف السفن الراسية عند الشاطئ، تمثال كريستوفر كولومباس من الجانب، رافعا ذراعه مشيرا بإصبعه إلى البحر، ناحية الشاطئ الجنوبي، شمال إفريقيا.

جاءها فرانسيسك ذات ليلة، وقف إلى جوارها فوق السطح يشمان الهواء، بدأ يعلمها الكاتلانية وهي تعلمه العربية، قال إن كريستوفر كولومباس يشير بإصبعه إلى الاتجاه الخاطئ، لأنه سافر شمالاً إلى أمريكا وليس جنوبا إلى إفريقيا، أمسك يدها بيده، ينظر في عينيها تحت ضوء القمر، عيناه زرقاوان تلمعان بالبريق، تصبحان في الليل سوداوين، تشبهان عيني رستم، وأحيانًا عيني سميح.

* * * *

في النوم تسافر عبر البحر لتعود إلى غرفتها في الزقاق المسدود بحي السيدة زينب، تشبه غرفتها في برشلونة، تطبق جدرانها الكالحة على روحها، والسرير الخشبي القديم يئن تحت الجسدين المتلاطمين في الظلمة،

تتعرف على أحدهما، إنه جسدها تحمله معها منـذ طفولتهـا حيثما ذهبت، تعرفه عن يقين، تلامسه بـأطراف أصـابعها بالحنين القديم، تغترب عنه لحظة كأنما جسد امرأة أخرى، ثم تعود إليه تتعرف عليه، الأصابع النحيلة السمراء، الأظـافر الشاحبة المقصوصة حسب أوامر يولاندا، الرعشة الخفيفـة الناجمة عن الحزن الغامض الغائر في أعماقها.

الجسد الآخر لا تكاد تعرفه، يتقمص فـي السـرير حركات البانتومايم، قد يهمس في أذنها باسم يشبه اسمها، ترد عليه دون أن تعرف اسمه، تناديه فرانسيسك، وأحيانًا رستم، أو سميح، أو اسم آخر، عالق بالذاكرة.

* * * *

رغم تحررها تقبع في أعماقها امرأة حبيسة، انطلـق عقلها وجسدها خارج القضبان، بقى جزء من كيانها أسـيرا، ربما هي " الروح " العاجزة عن التحرر.

كان رستم يقول: اللغة أقدم من الدين، حـواء هـي أصل الوجود، آدم ليس إلا الفرع، ثم يرمقهـا بعينيـه ذات البريق، يدرس أثر كلماته عليها، تسبقها زوجته كارمن فـي الإعجاب به، تصفق بيديها البيضاوين الناعمتين كالطفلة:

ـ برافو إنت أجمل رجل في العالم يا رستم!

يرمقها بنظرة سريعة، تتلاقى عيونهما في لحظة ثـم ترشد بعيدا، تتنابها أحاسيس غامضة، بعضها فـرح، عينـاه واسعتان عسليتان، مزيج من دماء الشمال والجنوب، كيمياء الشرق والغرب، درس الفلسفة في كامبريدج، ثم تركها ليكتب الرواية، في كيانه المزدوج في تناقض الحياة، شفتاه ممتلئتان بشهوة متدفقة، في عينيه نظرة محايدة باردة تشـبه القضـاء والقدر.

سميح كان مختلفًا، عيناه الخضراوان فيهمـا نظـرة دافئة، شفتاه رفيعتان باردتان، كانت أمه راقصة في ملاهـي الأسكندرية، تعشق الفن المصري القديم، بعد أن تـرقص لا تعطي جسدها للرجال، تشاركهم الحديث عن الفن والفلسـفة حتى يطلع الفجر، وقع في حبها ضـابط جـيش يملـك دارا للنشر، قتلته قنبلة أثناء العدوان الثلاثي على بور سعيد عـام ١٩٥٦، كان سميح عمره ثلاثة شهور، واصلت أمـه مهنـة الرقص حتى تخرج في جامعة الأسـكندرية، أرسـلته إلـى باريس حيث حصل على الدكتوراه في علـم الأنثروبولجيـا وثقافة الأجناس، في أعماقه حنين إلى الفن يشبه الحنين إلـى

الأم، ورث عنها شقة على البحر في الأسكندرية، وشقة على النيل في جاردن سيتي، وورث عن أبيه دار النشر في مصر الجديدة.

كانت كارمن تترك سيارتها الفيـات فـي الجـراج أحيانًا، لا تحب القيادة في شوارع القاهرة أثناء النهار، تفضل القطارات تحت الأرض مترو الأنفاق، مـن محطـة سـعد زغلول إلى حديقة الحيوان في الجيزة، تكتب روايـة بطلهـا طبيب بيطري يعالج الحيوانات، كان اليوم دافئًا فـي شـهر أبريل، ترتدي ثوبا ربيعيا يكشف عن ذراعيها وجـزء مـن الصدر، شعرها البني الداكن مسدول فوق كتفيها، في المترو كانت تجلس امرأة تختفي تحت عباءة سوداء، لا يظهر منهـا إلا عينان سوداوان مشتعلتان بالغضب.

فجأة أخرجت المرأة من حقيبة يدها منـديلاً كبيـرا أسود اندفعت بحركة سريعة نحو كـارمن لتغطـي شـعرها وعنقها وهي تصيح، الحجاب مثل الصلاة واجـب عليكـي! انتفضت كارمن واقفة، خلعت عن رأسها المنديل وقذفت بـه المرأة، نشب العراك بينهما، نزعت كـارمن عـن المـرأة حجابها فانكشف رأسها الأصلع أمام الناس.

ضحك رستم حين سمع الحكاية، ظل سميح صـامتًا واجما، ثم قال، اللعب بالدين في السياسـة كاللعـب بالنـار، القاهرة تعيش فوق بركان مكتوم.

عناوين الصحف ترمقها كارمن بطرف عين، بعض أعضاء مجلس الشورى يؤيدون عقوبات الرجم والجلد وقطع يد السارق وتحريم شرب الخمر، أربعة عشر مـن الشـباب المهاجرين يغرقون في البحر قرب شاطئ برشلونة، الفتـاة الشابة تقدم للمحاكمة بتهمة القتل والحمل السـفاح وانعـدام مشاعر الأمومة، انهيار الأخلاق فـي عصـر الديمقراطيـة والإصلاح.

يرمقها زوجها رستم بطرف عين، يتبادلان النظرات من تحت الجفون نصف المغلقة، يتبـادلان الاتهامـات دون صوت، في الليل يتبادلان العناق في صمت، أصبح للزوجـة حاسة شم أقوى من الكلاب، تعرف رائحة المرأة الأخـرى، خاصة رائحة الفتاة، عطر الصابون الرخيص في الأسـواق، وغسول الشعر الشامبوه من أرخص الأنواع، مـع قطـرات العرق والتعب، وذرات التراب في الزقاق المسـدود بحـي السيدة.

* * * *

يتألق سطح البحر عند شـاطئ برشـلونة، تتمـدد الأجسام تحت أشعة الشمس الذهبية، ترتدي الفتـاة المـايوه الأبيض من قطعتين، تسبح تحت الماء كالسمكة الفضية، مياه البحر دافئة في الربيع، نسيت الفتاة حياتها الماضية، تلاشـت الوجوه من ذاكرتها، إلا وجه القاضي الجالس فوق المنصـة في المحكمة، يدق بالمطرقة فوق المنضدة.

كل شيء في برشلونة يتفـتح فـي شـهر الربيـع والزهور، عيون القطط المغمضة، عذارى الشرق والطيـور المهاجرة، السماء زرقتها شفافة، سحابة واحدة داكنة تخفـي وراءها العين الساهرة التي لا تنام، تراقب سلوك البنـات، لا ينافسها في يقظتها إلا عـين إبلـيس، تتخفـى أيضـا وراء السحابة.

تراقب الفتاة السحابة وهي تزحف، تقترب بحذر من رأس كريستوفر كولومباس، من ورائه الجبل اليهـودي، لا يرتفع إلى رأس التمثال الشامخ، في شارع الرامبلا تتمشـى الفتاة بين أكشاك الزهور، تحرك ذراعيها وترقص على لحن تعزفه مجموعة من الشباب تقوم بأعمال بهلوانية، تطير فـي

الهواء مثل عصفورة، تنثني على الأرض مثل قطعة من العجين، في المقاهى يجلس الرجال والنساء، يرشفون النبيذ والبيرة المثلجة، تلمع عيونهم تحت ضوء الشمس، يأكلون على مهل من صحون تتصاعد منها رائحة السمك المشوي وقواقع البحر.

ترتدي الفتاة قميصا ربيعيا خفيفًا، بنطلون أسود واسع، وحذاء كاوتش، تجري تسابق الريح، من ميدان كاتالونيا حتى شاطئ الأوليمبياد، رائحة العشب واليود تعيدها إلى شاطئ سيدي بشر، كانت تسبح بجوار سميح، يسبقها إلى صخرة ميامي، تحبه داخل البحر أكثر مما تحبه وهو يمشي فوق الأرض، أما هي؟ لم تعرف البحر في طفولتها، ولدتها أمها بين الجدران السوداء، مسقط رأسها قطعة من الأسفلت.

بعد العشاء يسيرون هم الأربعة في شارع النيل رستم وكارمن وسميح وهي، مروا بواحدة من بنات الليل، واقفة تستند بجسمها الناحل إلى عمود النور، عيناها المكحلتان تتسعان لحزن الكون، رمقها رستم وسميح بنظرة طويلة من الساقين إلى النهدين، مزيج من الشهوة والإشفاق،

وقالت كارمن: ينجذب الرجال إلى بنات الهوى.

تذكرها الأزقة في برشلونة بأزقة القاهرة، الفـوانيس المعلقة فوق أبواب البيوت العتيقة، الأنوار المتلصصة مـن الدكاكين تحت الأعمدة الحجرية، تشبه البواكي فـي شـارع محمد علي، أشباح رجال تمشي في العتمـة، بنـات الليـل يتسكعن فوق كعوبهن المدببة، وجوههن مدهونة بلون الشمع، عيونهن المكحلة تشوبها حمرة، تدندن إحداهن بأغنية مجهولة الكلمات تنتمي لكل اللغات.

* * * *

لم تدم قطيعتها لرستم طويلاً، جاءت كـارمن إلـى غرفتها في زقاق السيدة، فتحت جمالات لها الباب، الفتاة في غرفتها تعاني من الصداع، تبتلع نوعين من الحبوب المانعة للحمل والمضادة للاكتئاب، أخرجت جمالات الزجاجـة مـن صندوق تحت سريرها، قالت كارمن وهي ترشف النبيذ مـع حبات الفول السوداني:

ـ أنا لا أملك رستم، وهو لا يملكني.

قاطعتها جمالات:

ـ ربنا هو الذي يملكنا يا كارمن!

رنت كلمة ربنا بصوت جمالات الحـاد، ارتطمـت بزجاجة النبيذ فاهتزت فوق المنضدة، ثم استعادت توازنهـا، انفرجت شفتا كارمن عن ابتسامة ضيقة.

ـ رستم إنسان حر يملك نفسه، لا أستطيع أن أمنعه، فالحب يقع دون إرادتنا، هذه لذته وألمه في وقت واحد.

هتفت جمالات بعد أن أصابتها نشوة النبيذ:

ـ كلامك عين العقل يا كارمن!

بعد أن خرجت كارمن وبعد أن تلاشى أثـر النبيـذ قالت جمالات:

ـ كارمن يمكن تقتلك يا عزيزتي، ما فيش واحدة في الدنيا ما تغيرش على جوزها، ربنا خلقنا من لحم ودم، ناكل ونشرب ونحب ونكره ونموت من الغيرة، ونقتل كمان، ربنا رفع الإنسان فوق الملايكة، ربنا حملنا مشقة جهـاد الـنفس الأمارة بالسوء، هي دي الأمانة، حملها الإنسان ولم تحملهـا الجبال إيه رأيك نروح السينما الليلة، فيه فيلم هايل اسـمه " لهيب الحب "، ياللا قومي من السرير خلينا نفرفش شوية قبل ما نموت ونروح النار.

* * * *

جلست جمالات إلى جوارها في الظلمة، أحداث الفيلم تتابع فوق الشاشة، الرجل العجوز يقع في حب الخادمة الصغيرة، يستولي الحب على قلبه وعقله، تهدده زوجته، يطلقها ويتزوج الفتاة، تهرب منه في الليل، تخاف العودة إلى أهلها في القرية، تتخلص من الجنين في بطنها وتشتغل راقصة في أحد الملاهي حتى القبض عليها.

جمالات تسمع خفقات قلبها إلى جوارها، تلهث أنفاسها مع مشاهد الحب، تضغط بيدها يد الفتاة، يرتج جسدها لحظة اغتصاب الخادمة في المطبخ، أنينها خافت غير مسموع، تمسح دموعها في الظلام، بعد انتهاء الفيلم وإضاءة الأنوار ترى عينيها محتقنتين بحمرة الدم، تحرك وجهها بعيدا عنها، تحكم الحجاب من حول رأسها، تظل صامتة واجمة حتى تعودان إلى البيت.

تحت السرير في غرفتها سجادة الصلاة ملفوفة على شكل اسطوانة، إلى جوارها يقبع الصندوق من الكرتون، لم يبق به إلا زجاجة واحدة، تشدها جمالات من عنقها، تضعها فوق المنضدة، تنحني مرة أخرى لتشد سجادة الصلاة من تحت السرير، تفرشها على الأرض، تسير إلى الحمام

لتتوضأ، بعد أن تؤدي الصلاة تظل راكعة رافعة كفيها إلى السقف، تدعو ا أن يغفر ذنوبها.

تحفظ جمالات بعض أبيات عمر الخيام، تنشدها بصوت متهدج، تنشد بعدها قصيدة لأبي نواس، تذكر المرحوم زوجها، تقول عنه المجحوم، تؤكد أن ا سوف يجحمه في نار جهنم، كان من بعض الدعاة الإسلاميين المشهورين، أصابته سكتة قلبية في اجتماع مع الرئيس، اكتشفت بعد موته أنه متزوج من امرأة أخرى له منها ثلاثة أولاد ذكور، كتب لهم كل أملاكه، لم ترث عنه إلا البيت القديم في زقاق السيدة.

دخل رستم حياة الفتاة وهي تعيش الاستقرار مع سميح، كانت حياتها مسرحا لتقلبات شتى، قشة في الهواء تتنازعها الرياح، فتاة بلا عائلة ولا مال ولا جمال، ترمقها جمالات من قمة رأسها حتى القدمين، تمط بوزها إلى الأمام تضرب كفا بكف.

- اللي اسمه إيه بيحب فيكي إيه؟ سودة زي البرابرة وجلدة على عضمة،   في خلقه شئون!

جمالات ترى نفسها جميلة، بشرتها بيضاء جسـمها مدكوك باللحم، شفتاها رقيقتان، ردفاها سمينان، تحتفظ فـي مفكرتها بأرقام المعجبين بها حسب الحـروف الأبجديـة، " أحمد أحمد أسامة "، يأتي أول الأسماء، يليه " بهاء بهي الدين برعم "، تأتي صديقتها " مريم الشاعرة تحت حرف المـيم، تدعوهما " مريم " في ليالي الصيف إلى السفينة الراسية على شاطئ النيل، يجلسن الثلاثة حول المائدة القريبة من المـاء، مفرشها ناصع البياض، يرص الجرسون أمـامهن أكـواب البيرة، جمالات ومريم تفضلانها في الصيف علـى النبيـذ، تتغنى مريم بأشعارها وهي تشرب البيرة المثلجة، وتقـول، نحن نشرب البيرة لأننا نعطش، لكننا نشرب النبيذ لأننا نحبه، يكسو البريق عينيها السوداوتين، بشرتها خمرية بلون الطمي، شعرها أسود بلون الليل، صوتها وهي تنشد الشعر ينسـاب هادئا كموجات النيل.

ليالي الصيف في القاهرة يغلفها شيء من السـحر، نسمة النيل الدافئة، يتخفى ضوء القمر وراء سحابة شـفافة، تلمع القطرات المكثفة فوق الكئوس البللورية، يرشفن البيـرة المثلجة على مهل، نشوة التلامس بين البارد والساخن، لـذة

الارتواء بعد الظمأ، تمدد الفتاة ساقيها فوق سـور السـفينة الخشبي، تستمع إلى مريم تنشد الشعر، يقترب طفـل يبيـع عقود الفل والياسمين، وجه طويل مبقع بنقط رمادية، فـوق عينه اليسرى دائرة بيضاء أصابعه نحيفة محروقة بالشمس، تبدو سوداء مشققة إلى جوار الزهور الناعمة البيضاء، تفوح رائحة الياسمين، يملأن بها صدورهن، تتنهد مريم، وتناولـه ورقة بخمسة جنيهات، تلمع أسنانه البيضـاء فـي ابتسـامة عريضة يناولها ثلاثة عقود من الياسمين، تردها إليه برقـة وحنان:

- خليهم لك يا شاطر،

تختفي الابتسامة في الوجه الأسمر الـداكن، تنفـرج شفتاه الشاحبتان عن صوت خافت، مبتور الكلمات:

- أنا........ مش....... شحات.

يضع عناقيد الياسمين الثلاثة أمامهن فـوق المائـدة، ويجري مبتعدا ينادي بصوت العصافير، الفل والياسمين، الفل والياسمين.

بامتداد شارع الكورنيش تسـير أسـراب الشـباب والشابات في نزهاتهم على شاطئ النيل، الـذكور رءوسـهم

محلوقة، البنات رءوسهن ملفوفـة بالطرحـة أو الإيشـارب الأبيض أو الملون، العيون مكحلة، الشفاه مصبوغة بـاللون الأحمر، السيقان داخل البنطلون الجينز الضـيق، يتـأرجحن فوق الكعوب العالية الرفيعة، أيديهن متشـابكة مـع أيـدي الشباب، فوق المقاعد يتبادلون القبلات والعناق تحت الضوء المتسلل من وراء السحابة، وتتغنى مريم الشاعرة بكلمات من تأليفها:

ـ يكسر الحب قوانين الأرض والسماء.

ـ ويسقط الحجاب عن وجه القمر.

تنتفض جمالات وهي نصف مغمضة، تفيق لحظـة من غيبوبة النشوة، تتمتم بصوت خافت، " أستغفر ا العظيم من كل ذنب عظيم ".

كان رستم يدعو الفتاة إلى العشاء في مطعم صـغير فوق هضبة الأهرامات، تدخل متأخرة عن الموعـد، تتبـع نصيحة جمالات:

ـ يتأجج شوق الرجل إلى المرأة مع الانتظار.

ـ الانتظار يشعل الحب مثل الزيت على النار.

تراه جالسا في يده كتاب، عيناه شاردتان، تتجاوزان رأس أبي الهول والأهرامات، ترك كارمن في البيت تكتـب روايتها، يحكي لها عن علاقاته باسم الصدق، يعود إليها بعد منتصف الليل يعانقها في الفراش، يضاعف لها القبلات أملاً في الغفران، يؤدي الصـلاة بحكـم العـادة، ينشـد التوبـة والإيمان.

حين يراها تدخل ينهض واقفًا، يطبع فوق خدها قبلة بشفتيه، تحسهما دافئتين فوق بشرتها، أطراف أصابعها باردة رغم حرارة الجو، تقول لها كارمن، الأصابع الباردة تعنـي القلب الدافئ، حسب المثل الإنجليزي، لم تعرف كارمن أنهـا كانت تعاني فقر الدم أو الأنيميا، الناتجة عن غياب فيتـامين (ب) في الغذاء، مع نقص الحديد، وزيادة الحزن.

يشد رستم الكرسي لها، لا يجلس حتى يراها جلست واستراحت، لم يعودها سميح على هذه المعاملة الرقيقة، ربما فعل ذلك في أيام الحب الأولى، ثم سقطت علاقتهما في بئـر الأيام العادية، أصبحت الحياة فاترة مثـل مـاء الصـنبور، راحت رعشة الجسد وخفقة القلب، نسى سميح وعد الـزواج أيام الخطوبة وهي تناسته تحت اسم الحرية والاستقلال.

* * * *

بدأت الفتاة روايتها في الأسبوع الأول لمجيئها على برشلونة، كان الجنين في أحشائها يتحرك، قدم صغيرة ناعمة تدق جدار الرحم من الداخل، دقة وراء دقة، كلمة وراء كلمة في رواية مجهولة تحاول أن تكتبها، تستعيد ملامح سـميح، كان يعد حقيبته ليمضي دون عودة. كارمن كانت ترقد فـي المستشفى النفسي، مربوطة بالحبال في أعمدة السرير، رأتها تدخل من الباب فأشرق وجهها بالابتسامة، فقدت الكثير مـن وزنها، انطفأ البريق في عينيها، راحت رنـة المـرح مـن صوتها، كانت تشكو من جهل الأطباء بحالتها.

- يتصورون أن زوجي هو مشكلة حياتي، وأنا أقول لهم ليس رستم، وليس أي رجل، المشكلة أكبـر مـن كـل الرجال، المشكلة تتعلق بي، أنا كـارمن، الكاتبـة وليسـت المرأة.

تفادت الفتاة النظر إلى عينيها، بدت عيناها مرهقتين يشوبهما حزن دفين منذ الطفولة، تبذل جهدا كبيرا في الكلام، مدت يدها الناحلة وأمسكت يدها لا يمكن لرسـتم أن يفـرق

بيننا، الصداقة بين النساء أقوى من الحب بين الجنسين، رستم يحبك يا كارمن، أنت حبه الوحيد:

- لا يوجد شيء اسمه حب وحيد، الحياة بالطبيعـة متعددة، الوحدانية مرض موروث منذ العبودية.

أشارت بإصبع شاحب بلون الضباب إلى الدولاب في الحائط، افتحيه وخذي أوراق روايتي، أخذوها مني بـالقوة، أغلقوا عليها بالقفل، يقولون إنها من وحي الشيطان، الفنـون كلها من وحي الشيطان، حتى قصائد الشعر الـدكاترة فـي المستشفى مثل رجال البوليس لولا رستم لأدخلوني السجن.

- لازم تتأكدي يا كارمن من حب رستم.

- الحب لا يشغلني، عندي أشياء أهم.

- رستم لم يكذب عليك أبدا يا كارمن.

- الحب لا يعرف الكذب أو الصدق، الحـب فـوق الأخلاق.

ابتسمت في إعيـاء، شـردت عيناهـا الزرقـاوان تكسوهما سحابة شفافة من خلال النافـذة الزجاجيـة كانـت صحراء حلوان، بحرا من الرمال الصفراء الممـدودة إلـى الأفق، تلمع كمياه البحر الأبيض المتوسط تحت الشمس.

ظلت ممسكة يدها في يد الفتاة، أصـابعها الطويلـة الرشيقة ترتعش قليلاً، على جوار سريرها منضـدة تحمـل زجاجات الأدوية، أسماء كثيرة بالحروف اللاتينية، التقطـت عيناها اسم سيروكزات، لمحت هذه الكلمة فوق زجاجة دواء في غرفة جمالات، تأخذ منها حبة قبل النوم تعالج الأرق، أو الكوابيس والخوف من نار جهنم بعد الموت.

* * * *

كان يوما من أيام الصيف، بعد رحيل سميح الأخير، تصورت الفتاة أن رستم سوف يعود إلـى كـارمن، كلمـة الفقدان كانت ترعبها، يمكن أن تحتمل فقدان رسـتم ولـيس سميح، الصداقة مطمئنة أكثر من الحب، سفينة هادئة في بحر متقلب جياش، كان سميح يقول، كارمن تحـب رسـتم دون شريك، رغم إيمانها بالاشـتراكية، أو الشـراكة، ويضـحك ساخرا، الأحادية سمة العقل الناقص، التناقض بـين الحـب والحرية، الثنائية ومرض الانفصام، يتحول في خيالنـا إلـى الحزن أو الشجن مع النسيان.

* * * *

في ليالي الوحدة داخل غرفتها الصـغيرة لا تعـرف الفتاة أين تكون، لا تسمع إلا النبض في عنقها، ودقات المنبه بجوار رأسها، تتفقد النطق باللغة العربية والكاتالانية، تمتنـع عنها الكلمات، لا تستطيع أن تكتب حرفًا واحدا فوق الورق، تهجرها الرواية كما هي هجرتها، أشياء كثيرة شغلتها عـن الكتابة، هتاف المتظاهرين في شوارع برشلونة فـي ميـدان كاتالونيا، أصواتهم تخترق نافذتها المغلقة، جيرانو جيرانـو إيراك بلاستين، جورج بوش أساسين، توني بلير أساسـين، أزنار أساسين، كلمة " أساسين " تعني قتلة سـفاحين، ينـدفع الدم في عروقها، تحس سخونته فـي رأسـها، تهـبط إلـى الشارع، تسير بخطوتها السريعة من ميدان أنتونيو لوبيز إلى شارع كولومباس، على جانبيه الأشجار الباسقة، المباني على الطراز الكاتالوني القديم، الأعمدة الضخمة تعلوها التماثيـل، أبراج مستديرة تنطح السماء مدببة القمم، تمثـل كولومبـاس ينتصب شامخًا من بعيد، تحوطه تماثيل لها شـكل الملائكـة ونساء بأجنحة، الأرض تغطيها أجساد البشر، حشود لا نهائية من النساء والرجال يسيرون مـن الـرامبلا حتـى ميـدان كاتالونيا، في كل الشـوارع يسـيرون فـي كـل الميـادين

يتجمعون، آلاف، ملايين، يحملون اللافتات مكتـوب عليهـا بالكاتلانية: جيرا نو " لا للحرب " جيرا نو أصـواتهم تـرج الأرض والسماء، أساسين، أساسين.......

يذوب جسدها في الأجسـاد، يرتفـع صـوتها مـع الأصوات سفاحين، أساسين، تنهمر الـدموع مـن عينيهـا، تمسحها بيدها خلسة، منذ طفولتها تخجل من دموعها، كأنمـا هي عورة، تنهمر وحدها لحظة الفرح، ولحظة الحزن تجف وتنحبس، يذوب الفرح في الحزن وتسيل الدموع في هـدوء النهر، تعود إليها صورة كارمن مربوطة بالحبال في السرير، عيناها شاردتان في رمال الصحراء، إلى جوارهـا زجاجـة سيروكزات، تسألها بصوتها المتلاشي:

ـ أقراص منومة يا كارمن؟

ـ يسمونها مضادة للاكتئاب، ثلاثة ممرضين يفتحوا فمي بالقوة، أخفيها تحت لساني أو في حلقـي، الحيـاة مـع الاكتئاب أحسن من الحياة في المستشـفى، يقولـون عنـي مجنونة.

ـ عقلك يوزن بلد يا كرامن.

ـ أفكر في الانتحار.

ـ هذا هو الجنون!

ـ بل قمة العقل!

يترامى لها صوت كارمن في الليـل عبـر البحـر، أمواج برشلونة تلامس الشاطئ برقة ثم تنسحب عنه، كأنامل الأم الناعسة، تمد يدها لتلمس طفلها، تتأكـد مـن وجـوده، تخشى أن تفقده في النوم، تمتد ذراعها فوق السرير، تتحسس الجنين في أحشائها، تتأكد أنه حقيقة ملموسة باليد، ليس خيالاً ولا وهما، قبل أن يدركها الوعي ارتفـع بطنهـا بالحمـل، أخذوها إلى عيادة طبية تحت الأرض، ربطوهـا بالحبـال، حقنوها بالمخدر، فتحت عينيها بعد زمـن لا تعرفـه، رأت قطعة من جسدها في جردل الدم.

الجرح الغائر في أحشائها، تكاد تحسه تحت الجلـد، كان رستم يقبله بشفتيه قبل أن يقبلها، تبتلع كـارمن حبـوب منع الحمل، وتقول العالم فيه ملايين الأطفال يموتون بالجوع وفي الحرب، رستم يريد طفلاً يحمل اسم أبيه وجده، يهمـس في أذنها وهو يعانقها، عاوز طفل يحمل ملامحك يا كارمن.

* * * *

من فوق السطح تطل الفتاة علـى البحـر والجبـل، وتمثال كولومب (كولومباس) والسفن الصغيرة الراسية عند الشاطئ، الشوارع والميادين تطل منها رءوس التماثيـل، لا يخلو شارع من تمثال لرجـل أو امـرأة مـن الشخصـيات التاريخية، أدباء وشعراء وفنانين، معارضهم في كل مكـان، تضم لوحات سلفادور دالي، بمناسبة مرور مائة عـام علـى مولده، إعلانات عن فيلم بيدرو المودوفار بعنـوان " تعلـيم سيء " (لا مالا إيديوكاسيون).

أناجيل تدق جرس الباب، طالبة في جامعة برشلونة، تأتي يوم الأحد لتمسح السطح والسلم، تـدفع لهـا يولانـدا بصحون البايلا وليس باليورو، تتطوع بمسح غرفـة الفتـاة دون أجر، تصنع لها كوب شاي أخضر مع قطعة من الكيك، تجلسان فوق الدكة الخشبية على السطح، تغمرهمـا أشـعة الشمس وهما ترشفان الشاي الساخن، تحكي أناجيل قصـتها بالإشارة مع الكلمات، خليط من العربية والكاتلانية، والفتـاة تحكي لها قصتها.

اسمها أناجيل كارلوس إيزابيل، تحمـل اسـم أبيهـا كارلوس، واسم أمها إيزابيل، حسب القانون في كاتالونيا.

ـ أنا أعتز باسم أمي أكثر من اسم أبي، وأمي هـي التي ربتني بعد أن هجرها أبي، وأنت أتحملين اسم أمك؟

ـ القانون عندنا لا يعترف باسم الأم.

ـ هذه كارثة.

تحركت عينا أناجيل الزرقاوتان فوق ارتفاعة بطـن الفتاة غير الواضحة تحت القميص الواسع:

ـ من أجلها جئت إلى برشلونة؟

وأشارت إلى أوراق رواياتها المكومة فـي غرفتهـا على الأرض.

ـ ومن أجلها أيضا جئت.

لم تكن الكتابة في حياتها شيئًا هاما، تبدو لها عمـلاً عديم الجدوى، كلمات على الورق مثل كلمات في الهواء، لا تتحول إلى فعل حقيقي مثل كلمات الحب.

أول من نبهها إلى الكتابة هي مريم الشاعرة، كانـت تقول، لا يمكن لجروحنا أن تلتئم إلا بالكتابة، لا شيء يهـزم الجنون أو الموت إلا الكتابة.

تستعيد صوتها وهي تنطق هذه الكلمـات، عيناهـا السوداوان تتألقان بالضوء في الليـل المظلـم، لا قمـر ولا

نجوم، كأنما الضوء ينبع من بؤرة في رأسها خلف العينـين، كانت كارمن أقل قوة تستعيدها قبل أن تـدخل المستشـفى، تريدها أن تكون كما كانت، أن يعود الضوء إلـى عينيهـا، وتستعيد وجه سميح الأسمر الشـاحب، عينـاه خضـراوان صافيتان مثل الزرع في الربيع.

قبل لقائها برستم كانت تعيش حياة هادئـة، يمنحهـا سميح من الحب ما يكفيها ويزيد، تجمعها به علاقـة ناعمـة متينة كخيط من الحرير الممدود إلى الأبد، ينالها السأم مـن الأشياء الدائمة إلى الأبد، لم يستطع سميح أن يكسر الشرنقة حول روحها، لم يفجر في أعماقها الينبوع المجهول، يسـتبد بها الضجر من الحياة وهو معها، تشتاق إليه وهـو غائـب، تختفي من حياته فترة لتفهم نفسها، ثم تعود إليه، تلوذ به من اليأس والرغبة في الموت، تتهم نفسها بالجحود وتطلب منـه الصفح، يتلقاها بين ذراعيه كالأم، لا يلومها ولا يؤنبها، يقول لها، أنت إنسانة حرة تذهبين وتعودين كمـا تشـائين، لكـن الحرية تبدو لها مثل المرض تريد الخلاص منها، وتمشي في الشوارع جائعة، لا عمل ولا أمل، ولا مكان آمن تنـام فيـه

بعمق، أو تحمي نفسها من عيون الرجال، تمر الأيام دون أن تأكل، يملأ أنفها وفمها تراب الأزقة والشوارع.

دخل سميح حياتها مثل نسمة تدخل صدر المحـروم من الهواء، ألقت نفسها بين ذراعيه بحكم الضرورة، بالرغبة في الحياة والطمأنينة، بالحنين إلى الحـب غيـر الموجـود، كالأرض الصحراء تحن إلى قطرات المطر، تلتقطها هديـة من السماء، تعجز عن رد الهدية، لانعدام الماء وليس عجزا عن العطاء.

تعودت أن ترى سميح، أصبحت عيناه الخضـراوان جزءا من حياتها، يحملها بسيارته الرمادية الرينو إلى مكتبها، حصلت على وظيفة في ملجأ الأيتام، مبنى آيل للسقوط فـي زقاق مسدود، تفضل السير على قدميها عن ركوب السيارة، تقطع المسافة بين بيتها ومكتبها في عشرين دقيقة بـالخطوة السريعة، من الزقاق المسدود في حي السيدة إلـى الزقـاق المسدود في فم الخليج.

في الصباح الباكر يكون الهواء منعشًا قلـيلاً، تبـدأ العمل من الثامنة صباحا حتى الرابعة مساء، ثماني سـاعات تقضيها وسط هياكل أشباح لها وجوه أطفال وعيون عجائز،

تجلس معهم في الغرفة المعتمة ذات الجدران السوداء، أو في الفناء الضيق تلفحهم الشمس والتراب، يتغذى بدمائهم الذباب والبراغيث، ترتدي قميصا واسعا وسروالاً من الكتان، وحذاء جلديا قديما تمشي به، تدخر ثمن الأتوبيس لتشتري كتابـا أو رزمة ورق أبيض، في خيالها رواية مجهولة، لا تعرف كيف تكتبها وما بدايتها.

مكتبة الشرق كانت عند الناصية، حيث تقاطع شارع قصر العيني مع فم الخليج، صاحبها اسمه " حافظ "، قصـير نحيف مقوس الظهر، عيناه جاحظتان تتذبذان من وراء قعـر زجاجة، يرشف الشاي الأسود مع شفطات من دخان الشيشة، يرفع وجهه عن الكتاب حين تدخل، تمر على الرفوف تتطلع إلى العناوين، يمسح التراب عن الكتاب قبل أن يناوله لهـا، تدس يدها في جيوبها تبحث عن النقود غير الموجودة، تعيـد إليه الكتاب، يدفعه إلى يدها في ضجر:

ـ ادفعي اللي معاكي، والباقي المرة الجاية.

إن لم يكن معها شيء يبتسم في إعياء.

ـ خديه على سبيل الاستعارة بشرط أن ترجعيه بعد أسبوع واحد.

قابلت الفتاة سميح أول مرة في هذه المكتبـة، كـان يتردد عليها لشراء الكتب القديمة، يدعوه " حافظ " على كوب شاي، يجره إلى الحديث عن الفلاسفة العرب، أهمهم عنـده ابن سينا، صاحب القانون في الطب، يسأم سـميح الحـديث معه، يتأمله طويلاً كأنما يتأمل قطعة من الآثار القديمة فـي المتحف، يرشف الشاي الأسود على مضض، دون أن يظهر الضيق، نوع من المجاملة أو الرقة، والإحسـاس المرهـف بمشاعر الآخرين.

في يوم كانت تتصفح كتابا قديما بعنوان " مقدمة ابن خلدون "، سمعت الصوت من خلفها:

ـ إيه رأيك أهديك الكتاب ده؟

لم تكن تعرف شيئًا عن ابن خلدون، ولا تعرف شيئًا عن سميح، رأته مرة أو أكثر فـي المكتبـة دون أن تنتبـه، ملامحه هادئة لا تثير الدهشة، لا تحدث صدمة الإفاقة مـن بحر الحياة اليومية، كان اليوم يمضـي وراء اليـوم دون أن يستوقفها شيء خارق للعادة، لا وجه يثير خيالها، ولا كتـاب يحرك عقلها، يمضي بها الزمن ساكنًا مثل سطح بركة ماء لا يتحرك، مثل النيل في أيام الحر، لا نسـمة واحـدة تحـرك

أوراق الشجر، الهواء معدوم والشـجر مقطـوع، البيـوت متلاصقة بالخرسانة المسلحة، الخضرة متلاشية، الشـوارع من الزفت أو القطران الأسود، مدينة القاهرة تقول عنها مريم الشاعرة مدينة الأسمنت المسلح، في قصيدة لهـا بعنـوان " قاهرتي ".

قرأت الفتاة مقدمة ابن خلدون مـن الغـلاف إلـى الغلاف، لم تفهم من الكتاب إلا القليل، كـان هـو أول مـن جمعهما، هي وسميح، داخل مكتبة الشرق المكتومة الهـواء، المكتظة بالكتب والتراب ودخان الشيشة مع رائحة الحشيش.

كان سميح يختلف عنها، أنيق الشكل والملابس، هي لا تنظر إلى المرآة، تعيش القلق وعدم الاستقرار، يتمتع هو بالهدوء والراحة، يسكن في شقة واسعة تطل على النيل فـي جاردن سيتي، بجوار بيت كارمن ورستم، هي تعـيش فـي غرفة مظلمة داخل الزقاق تحوطها الميكروفونات الزاعقـة ليل نهار.

انجذب سميح إليها كما ينجذب الشيء إلى نقيضـه، وهي انجذبت إليه كالفراشة تنجذب على النور، ليس كالمرأة تنجذب على الرجل.

* * * *

الطفلة ترمقها بعينيها الواسعتين كأنما هما عيناهـا، رأتهما وهي طفلة في المرآة أو في الخيال، جلبابهـا بلـون الأرض، ذراعاها الناحلتان بلون الخشب المحروق، عظـام ركبتيها بارزة تغطيها كدمات وجـروح، تقـاطيع وجههـا منحوتة بأزميل في نتوء صخرة، يتيمة وحيدة في الصحراء. مقلتاها السوداوان نجمتان تلمعان في سماء مظلمة.

مديرة الملجأ تجلس وراء مكتبها الخشـبي الكـالح، يحتل نصف مساحة الغرفة، يختفي جسمها الضـخم تحـت خيمة سوداء من الرأس إلى القدمين، عيناها ثـقبان غائران داخل الخضم الأسود، عينا ثعلب أو فأر داخل المصـيدة، لا تكفان عن الحركة والذبذبة، في يدها عصا مـن الخـرزان طويلة رفيعة مثل الكرباج، تلسع بها أرداف الأطفال، تشـبه الغولة والمارد الأسود الجبار، في الأساطير وقصص ألـف ليلة وليلة، وحكايات الجان والعفاريت الزرق.

في أيام الحر ولهيب الصيف، تجلس في الفناء تحت ظل شجرة الكافور، ترفع نقابها الأسود عن فمهـا لترشـف الشاي الأسود، تمسح حبات العرق عن أنفها بيد داخل القفاز

الأسود، تدس بوز الشيشة في فتحة فمها، ليخرج الدخان من ثقبي عينيها، لو رآها " سلفادور دالي " يرسمها على شـكل خفاش ضخم أو قنفذ أسود:

ـ شايفة البت اللي واقفة هناك وعينيها بتطق شرار خلي بالك منها، أصلها بنت حرام، شوفي واقفة تبحلق إزاي وكل عين تندب فيها رصاصة!

ـ دي بنت غلبانة يا أبلة بعبع.

ـ إيه؟ بتقولي إيه؟

ـ متأسفة يا ست المديرة، زلة لسان!

ـ يعني إيه زلة لسان يا اسمك إيه؟

ـ غلطة يا ست المديرة، سبحان من لا يسهو.

اشتعلت عيناها المدفونتان في الحفـرتين بالغضـب، كان الأطفال ينادونها " أبلة بعبع " من وراء ظهرها، كلمـة البعبع تعني المرعب، نادتها الفتـاة بالاسـم دون أن تنتبـه، بسبب السهو، وسبحان من لا يسهو، تتظاهر المديرة بنسيان اسمها، تحت حجة مشاغلها الكثيرة:

ـ اسمعي يا اسمك إيه، أنا لا أسـمح مطلقًـا إنـك تنطقي كلمة أبلة بعبع دي تاني مفهوم؟

تظل شفتاها مطبقتين، لا تهز رأيها وتقـول، أيـوه مفهوم، لا تريد الاستسلام لجبروتها كما تفعل المرءوسـات، يظل جسدها الضخم ينتفض تحت الخيمة السوداء مفهوم؟!

زوجها يشبهها على نحو مـدهش، ضـخم الجثـة، يرتدي عباءة سوداء فوق جلباب أبيض، رأسه كبير يغطيـه شعر أسود أكرت، يختفي وجهه تحت غابة سوداء من الشعر الكثيف، عيناه ضيقتان غائرتان داخل خضم السواد، لحيتـه كثيفة طويلة تتدلى فوق صـدره، شـعرها نـافر منتصـب كالأسلاك.

يجلس في غرفة مكتبها، ينتظرها حتى تنتهـي مـن أعمالها الهامة، تتعمد أن تنشغل عنه بالأوراق المكدسة فوق مكتبها، تدق الجرس وتنادي على الشغالات والمرءوسـات، تصدر إليهن الأوامر والنواهي، يرتفـع صـوتها بالتأنيـب والتوبيخ، ترمق زوجها بطرف عـين، تنـتفض أحشـاؤها بالبهجة، تمارس السلطة أمام عيني زوجها، يمـارس عليهـا السلطة في البيت، لا تعرف كيف تنتقم منه إلا بهذه السـلطة في مكتبها وبطريق غير مباشر.

اختفت الطفلة من الملجأ ذات يوم، عيناها انحفرت في ذاكرة الفتاة البريق مثل لمعان النجم، تقاطيع الوجه الصخرية، كان اسمها صباح، سألت عنها المديرة، تذبذبت عيناها داخل الثقبين، شوحت بيديها داخل القفاز الأسود:

- هربت راحت في ستين داهية!

كان في الملجأ مئات الأطفال، يلفظهم العالم إلى الملجأ كما يلفظ الكلام المشردة، لا أحد يزورهم، لا أحد يعالجهم إن مرضوا، لا أحد يدفنهم إن ماتوا، لا أحد يبحث عنهم إن هربوا، أو تم بيعهم في سوق الرقيق، عصاباتها داخل المافيا، تحت الأرض وفوق الأرض، تشبه سوق السلاح والمخدرات والجنس، تتغير أسعار الأطفال مع تغيرات العملة والبورصة ورحلات النساء العاقرات من الشمال إلى الجنوب، لشراء طفل أو طفلة سمراء عيونها سوداء تحت اسم الأمومة.

تقبض السيدة المديرة المبلغ بالعملة الصعبة، تشتري تذكرة إلى مكة كل عام، تطوف بالكعبة، تقبل الحجر الأسود، ترمي إبليس بالجمرات في منى، تشرب من بئر زمزم، تعود طاهرة، ذنوبها ممسوحة كالمولودة من بطن أمها.

* * * *

قال سميح وهو يعانقها: الوظيفة في الملجأ لا تليـق بك، تستحقين عملاً أفضل، قالت، العمل الأفضل يحتاج إلـى واسطة كبيرة. قال: سأبحث لك عنها.

كان رستم قد دعاهم لتناول الغداء في النادي حـول المائدة في " الليدو "، حمام السباحة الصغيرة، جلسـت هـي وسميح ورستم، كانت كارمن تسبح فـي البيسـين، جسـمها ممشوق داخل المايوه الأحمر فيه زهور بيضـاء، تتحـرك ذراعاها وساقاها تحت الماء كزعانف السمكة الذهبية.

ترفع الفتاة وجهها نحو الشمس وعيناها مغمضـتين، تترك الأشعة الدافئة تمشي فوق جفونها، الهواء محمل برائحة الشجر والماء والكلور، أجسام النساء والرجال ممدودة فـوق الكراسي، يتجاذبون أطـراف الحـديث، يـدلكون بشـرتهم بالكريم، يرشفون الليمون المثلج على مهل، أمامهم صـحون الفراخ المشوية، مكرونة في الفرن، ريش ضـاني محمـرة، صلاطة خضراء يلمع فيهـا الخيـار والخـس والطمـاطم الحمراء، تتصاعد رائحة الشواء مع الضحكات، تنتقل الفتـاة من زقاق السيدة إلى الليدو في النادي كأنما تسافر من بلد إلى

بلاد، يأتي الجرسون حاملاً قائمة الطعام " المينيـو "، شـاب نحيف طويل تلمع أسنانه البيضاء في وجهه الأسمر، يناولها رستم المنيو، مكتوب بلغة لا تعرفها، أنواع أطعمة لم تسـمع عنها، تتطلع إلى سميح مستغرق في الحديث مع رستم حول رواية بحر سارجوسا، للكاتبة " جين ريس "، مـن منطقـة الكاريبيان.

الإحساس بالغربة يزحف علـى جسـدها كـالهواء البارد، ينتابها الحنين إلى غرفتها في الزقاق، رائحة شـوربة العدس تتصاعد من المطبخ، صوت جمالات يرتفع يناديها:

ـ أنا عملت شوية شوربة تاكلي صوابعك وراها.

جاءها الجرسون يسألها ماذا تطلب. مـن فضـلك، شوربة عدس وصلاطة خضراء، سميح طلب سـمك مقلـي وصلاطة طحينة، رستم طلب لنفسـه ولكـارمن مكرونـة إسباجتي وإسكالوب بانيه، وشيء آخر لم تلتقط اسمه.

خرجت كارمن من الحمام، تمددت تحـت الشـمس يتقاطر من جسمها الماء، دهنت ذراعيها وساقيها بـالكريم، يتحرك جسمها داخل المايوه على نحو طبيعي، كأنما ترتدي ملابسها كاملة، التهمت الطعام بشهية الطفلة، ثم ألقت بنفسها

في الماء من جديد، غطست مسافة طويلة ثم ظهرت، سمعتها تناديها.

ـ تعالي خدي غطس، الميه حلوة!

همس سميح في أذنها:

ـ تحاول أن تغيظك، تجاهليها.

غربتها كانت أشد في ملجأ الأيتام، معلقة كالقشة بين الأجواء، لا تحب الفقر ولا الثراء، تريد أن يضمها قلب كبير دافئ وبيت صغير هادئ، تريد أن تنام بعمق دون أن تلدغها البراغيت، دون أن تزجعها الميكروفونات، تريـد أن تـرى الشجر من نافذتها ومياه البحر، تريد أن تحقق حلم طفولتهـا الذي لا تعرفه، لم تكن لها طفولة، لا أم ولا أب، لا إخوة ولا أخوات، ولا جدة تحكي لها قصة الشاطر حسن، وتلعب معها التعلب فات فات.

كان سميح يقول: أنت تتكلمين عن الحريـة دون أن تتحرري، تفكرين في المستقبل وتعيشين في الماضـي، أنـا وأنت تعاهدنا على الصدق والاختيار الحر، لا أجبرك علـى شيء أنت حرة تماما، حرة!

كلمة " حرة " ترن في أذنها " عرة " الفرق بين حرف الحاء والعين يتلاشى في أعماقها ترقد المرأة الأسيرة، لا تعرف الحرية، لا تملك جسدها، لا تعطي نفسها دون ورقة مختومة ومبلغ من المال، المهر والخاتم، ودفع ثمن الكهرباء والسرير والإيجار.

جمالات تقول: الرجل لا يعرف قيمة امرأة لا يدفع فيها ثمنًا غاليا، كلما ارتفع ثمنك ارتفعت قيمتك، تعترض مريم الشاعرة، لا! أنا قيمتي تعلو فوق العقارات والمال، أنا لست بضاعة في السوق للبيع والشراء.

تضحك جمالات في سخرية وتهز رأسها الملفوف بالحجاب:

- ومن أنت يا عزيزتي؟
- أنا مريم الشاعرة!

يرن صوتها في أذن الفتاة قويا مملوءا بالكرامة، أنا مريم الشاعرة، عيناها السوداوان يشتد بريقهما، بشرتها الخمرية بلون طمي النيل، شعرها يهتز بثقة فوق كتفيها، يتحرك رأسها بكبرياء وهي تنشد:

- أنا مريم الشاعرة.

خرجت كالزرع من بطن الأرض.

ـ لا أسرة ولا أم ولا أب،

لا وطن ولا عشيق ولا زوج.

ـ إلا الشعر!

جالسة في كازينو النيل، تحس جسدها يرتفـع فـوق المقعد، ومعه روحها وعقلها، كأنما قوة مجهولة ترفعها فوق السفينة والنهر، فوق أسطح البيوت والعمارات العالية، فـوق مدينة القاهرة وحقول الدلتا، تغمض عينيها كأنما في النـوم، تحلق في الفضاء دون أجنحة، تطير فوق السحاب، فوق مياه البحر الأبيض المتوسط، ترسو على شاطئ جديد لا تعـرف اسمه، كل شيء من حولها جديد حتى وجهها.

تنظر إلى وجهها في المرآة، ليس هو الحزين القديم، تهبط السلالم جريا تلتهم البايلا السـاخنة، تجتـاز شـارع كلومباس، تسير في الرامبلا بين الزهور وأسراب الشـباب، تدخل من شارع إلى شارع، تتأمل المباني تشبه المتاحف، لا بيدريرا، بالوجويل، كازاميلا في شـارع جراسـيا، الفنـان أنتونيو جاودي مات منذ سنين، لكنه يعيش في كل عمل تركه

وراءه، حتى البناء الضخم الجديد، يسمونه " ساجرا فاميليا "، مات قبل أن يكمله.

في المكتبة الكبيرة خلف ميـدان كاتالونيـا تقضـي الساعات تقرأ قصة دونكيشـوت، أشـعار كـارلوس بابـل ولوركا، تتأمل لوحات بيكاسو، وسلفادور دالي وجون ميرو، قبل العودة إلى بيتها تسير إلى شـاطئ الأوليمبيـك، تخلـع ملابسها إلا المايوه الصغير، لا يخفي عن أشعة الشـمس إلا شعر العانة الأسود، تأخذها أنا جيل إلـى شـاطئ آخـر لا يرتدي فيه الناس المايوه، تسري الأشعة الذهبية الدافئة إلـى الجسد كله، نساء ورجال يسبحون فـي البحـر كالأسـماك، يتمددون تحت الشمس دون غطاء، لا أحد ينظر إلـى أحـد، يتحركون على نحو طبيعي، كما ولدتهم أمهـاتهم، أقـدامهم تترك على الرمال علامات متشابهة، لا فرق بين ذكر وأنثى وفقير وغني وملحد ومؤمن وأسود وأبيض.

تنهيدة طويلة تخرج من أعماقها، راقدة فوق ظهرها تتلقى شعاع الشمس، يتخلل ثنايـا جسـدها ويفـتح المسـام المسدودة، منذ آلاف السنين، منذ الفرعون الأول.

تلقي بالجريدة على الأرض، تدوس عليها بكعب شبشبها البلاستيك كما تدوس على الصرصار، كانت الشقة مليئة بالصراصير، مثل غيرها من الشقق في حي السيدة، تنتمي إلى فصيلة الحشرات الزاحفة، تطورت عبر الزمن وأصبح لها أجنحة مثل الفراشات، لونها أسود أو أصفر داكن كالحديد الصدئ، تتغذى بالبراغيث والنمل والجبن والزبدة، تدخل البالوعة وتسبح في الماء دون زعانف، شواربها مثل قرون الاستشعار، تعرف رائحة الطبيخ الحامض، تمر عليه دون أن تأكل، تجذبها رائحة المسك في وسادة جمالات، قبل أن تنام تخلع شبشبها البلاستيك، تنهال فوق الصراصير، تضربها واحدا وراء الآخر، وهي تصرخ:

- إلهي تاخد الصراصير يا رب ومعاهم الطواغيت.

لا يستجيب ا لدعائها، بل يرسل إليها مزيدا من الصراصير، يتوالدون في غرفتها تحت السرير، تصرخ جمالات وهي تضرب الصرصور:

- الحرة واللا العرة؟!

مريم الشاعرة تندهش حين تسمع جمالات تخاطب الصراصير، أو حين تسمعها تدعو ا أن يأخذ الطواغيت:

ـ يا جمالات مين مع كل الطواغيت بره وجوه!

ـ أستغفر ا   العظيم من كل ذنب عظيم.

تنطلق ضحكة مريم الشاعرة في الجو، ترن في أذن الفتاة صافية رقيقة كالماء المقطر، تخرج من قلبها وأعمـاق صدرها، لا تستطيع أن تضحك مثلها، إن ضـحكت تخـرج ضحكتها مبتورة، مكتومة، ترتفع يدها إلى فمها، تكاد تخفيه، تحول بينه وبين الضحك، كأنما الضحك متراكم في صدرها منذ الطفولة، ما أن تفتح فمها حتى ينطلق متدفقًا دون توقف.

حين تشكو جمالات من الصراصير، تقول لها مريم: إحمدي ربك لأنها مجرد صراصـير وليسـت عقـارب ولا تعابين.

ـ أعوذ با   يا مريم من العقارب والتعابين، جسمي بيرتعش إذا سمعت اسمها، كأني أسمع اسم إبليس.

ـ عمرك شفتي إبليس؟

ـ أبدا والحمد   .

ـ عمرك شفتي عقرب أو تعبان؟

ـ أبدا والحمد   .

ـ عشان كدة بتخافي منهم يا جمالات.

تقرأ مريم قصيدتها بعنوان " الخوف "، نحن نخاف الشيطان لأننا لا نراه، نحن نخاف الموت لأننا لا نراه، لهذا يتخفى الشيطان، ويتخفى الموت، ويتخفى صاحب السلطة داخل القصر العالي الجدران، يتمكن الخوف منا في الطفولة، ومعه الجهل، تغيب عن عقولنا البديهيات، ولا نعود نرى الضوء في النهار.

* * * *

قبل أن تنام الفتاة تجلس جمالات على طرف سريرها، تقدم لها النصائح كالأم، لا تسمعي كلام مريم الشاعرة، الشعراء يغويهم الشيطان، ا أمرك بتغطية كل شيء إلا وجهك وكفيك، الحجاب قبل الحساب، واجب عليك مثل الصلاة، إن أردت دخول الجنة يا عزيزتي.

لم تؤمن جمالات بالنقاب الذي يغطي الوجه، حجابها من النوع الحديث، يتطور مع العصر ويتغير شكله وألوانه، تعشق الزينة والتجميل، ا جميل يحب الجمال يا عزيزتي، وإذا بليتم فاستتروا، القبح عورة تستوجب الستر مثل رأس المرأة.

تنتقل جمالات من الدنيا إلى الآخرة بكلمة أو حرف، هزة واحدة من رأسها المحجب، تصبح في السماوات العليا، حركة خفيفة برموشها الصناعية تعود إلـى الأرض، تغمـز بعينها المكحلتين وتقول: ساعة لربك وساعة لقلبـك، اعمـل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا.

كانت جمالات تعمل في جريدة حكوميـة إسـلامية، مكتبها في عمارة عالية بالقرب من الكوبري، نافذتها تكشف القاهرة من قمم الأهرامات إلى جبل المقطم وقلعـة محمـد علي، فوق مكتبها تتكـدس الأوراق والصـحف والمجـلات تختلط صور ورؤساء الدول بصور الراقصـات والحمـلات سفاحا، لها عمود أسبوعي بعنوان، " يا رب العالمين "، يكتبه لها بهي الدين فوق الجدار كلمة ا جل جلاله، معلقة داخـل برواز ذهبي، المصحف الكريم غلافه مشغول بخيوط الذهب، يرقد في أحد أدراجها إلى جوار علـب البـودرة والكحـل، وأقلام الروج والحنة الحمراء، والمسك والعطور والقرنفـل والنعناع واللبان الدكر والنتاية.

لا يكف جرس التليفون عن الرنين، ولا يكف الزوار عن الدخول والخروج، صحفيون وأدبـاء وشـعراء، نسـاء

ورجال من نجوم القاهرة، يتبادلون الأخبار والفكاهات، يحكي أحدهم آخر نكتة، يهمس بها في أذنها، يدب الصمت لحظـة، ثم تدوي ضحكتها العالية كاشفة عن صـفين مـن الأسـنان البيضاء بين الشفتين الحمراوتين الرقيقتين.

ـ ا يجازي شيطانك يا بهي!

اسمه بهي الدين برعم، يندرج في مفكرتهـا تحـت حرف الباء، له باب ثابت في الجريدة بعنوان، " النقد الأدبي "، مربع الجسم أبيض البشرة أنيق الملابس، حذاؤه لامع بوزه طويل مدبب، أنفه طويل ومدبب يشبه بوز حذائه.

مريم الشاعرة هي التي اكتشفت التشابه، تقول: يمكن الكشف عن شخصية الرجل، من شكل أنفه وحذائه، تخالفهـا جمالات، تقول: لا يكشف عن شخصية الرجل إلا أصابعه.

ـ أصابع يديه يا جمالات.

ـ أعني أصابع قدميه، على العموم هناك تشابه بين الاثنين.

كانت كرامن ترى الأمر على نحو آخر، ربما لأنهـا تعيش في جاردن سيتي، تتمشى على الكورنيش حيث يتمشى

الأثرياء مع كلابهم، تتريض في النادي، حيث تتريض الطبقة العليا، كل منهم يجر كلبا مربوطًا في السلسلة:

- أنا لاحظت الشبه الكبير بين الكلاب وصاحبه يـا جمالات.

- هذه نكتة يا كارمن.

- لأ حقيقة علمية، لأن الكلاب وصاحبه يعيشان فـي مناخ واحد تحت سقف واحد، مثل الرجـل وزوجتـه، بعـد العشرة الطويلة يتشابهان.

تقهقه مريم بالضحك وتسألها جمالات:

- يعني رستم يشبهك يا كارمن؟

- أنا ورستم لا نعيش تحت سقف واحد، لا يمكن أن أعيش إلا وحدي، مع أوراقي وكتبي، رستم يفهمنـي، لأنـه بيكتب، وفاهم يعني إيه الكتابة.

يعني إيه الكتابة؟ السؤال يدور في رأس الفتاة وهـي نائمة، تبدو الكتابة عسيرة على الفهم، أغلب الناس يعيشـون دون كتابة، يتزوجون وينجبون دون كتابة، ينجحـون فـي أعمالهم ويمتلكون العقارات والأراضي والأموال دون كتابة،

يعيشون ويموتون ويذهبون إلى النار أو الجنـة دون كتابـة، وفي جنة عدن لا توجد أوراق ولا أقلام.

يعني إيه الكتابة؟

يدق السؤال رأسها كالمطرقة، فوق الأرض بجـوار سريرها ترقد الرواية، أكوام من الأوراق المتراكمة، يغطيها التراب، جثة هامدة فاقدة الحياة، إن لمحتها بنظرة خاطفـة تسري في جسدها قشعريرة باردة كالموت.

لم تعد بها رغبة في الحياة، تفتقد القوة على المقاومة، مشلولة العقل والجسم والروح، عاجزة عن كل شيء حتـى الحب، انقطعت عن رؤية سميح ورستم وكـارمن ومـريم، تغلق باب غرفتها في وجه جمالات، الحياة لا تساوي شـيئًا، لا تستحق أن تعيشها فما بال أن تبذل جهدا في الكتابة.

دق جرس الباب، كان ساعي البريد يحمـل رسـالة مسجلة، مكتوبة بحبر أسود، مختومة بالنسر، موقعـة مـن مديرة الملجأ، نظرا لتغيبكم أكثر من خمسة عشر يوما فقد تم الاستغناء عن خدماتكم، وتفضلوا بقبـول وافـر الاحتـرام، المديرة العامة.

أمسكت الورقة بإصـبعين كمـا تمسـك جمـالات الصرصار الميت، ألقت بها في بالوعة المرحاض، تنفسـت الصعداء، أخذت حماما بالماء الساخن والصابون، تغتسل من وظيفتها بالحكومة، تمسح عن ذاكرتها خيمة المديرة السوداء، ووجوه الأطفال الشاحبة، وعيونهم الذابلة، إلا عينين اثنتـين يسكوهما البريق، الطفلة صباح التي اختفت فجأة، عيناهـا محفورتين في ذاكرتها، تطلان عليها في النوم، في الحلم، في المرآة وهي طفلة، كأنما هما عيناها.

* * * *

تسير جمالات إلى مكتبها على قدميها، تخـرج مـن الزقاق إلى شارع المبتديان، يعرفهـا الجميـع فـي الحـين أصحاب الدكاكين والبوابين، أكشـاك السـجائر والصـحف والمجلات، مطاعم الفول والطعمية، محلات عصير القصب والباعة الجائلين والشحاتين، تسكن جمالات هذا الحي قبل أن يشتهر اسمها في عالم الصحافة، يلجأ إليها العـاطلون مـن الشباب، يعتبرونها واسطة لدى السـلطات للحصـول علـى وظيفة بالحكومة أو القطاع الخاص، أو عقد عمل بالخـارج، يقبلون عليها وهي تمشي بحجابها الأبيض الملفـوف حـول

رأسها، وثوبها من القماش السميك الذي لا يشف ولا يـرف، صيفًا وشتاء، يرتج تحته جسمها السمين، وحقيبة يدها الجلدية الصفراء، بلون حذائها ذي الكعب العالي، وجهها المستدير الأبيض، حاجباها الرفيعان المقوسان، عيناها الكبيرتان المكحلتان، شفتاها الحمراوتان منفرجتين في ابتسامتها الدائمة وهي تحييهم بالسلام عليكم ورحمة ا وبركاته، تبدو جمالات كأنما هي روح من السماء نزلت إلى الأرض لتحقق أحلامهم، ثم تصعد إلى السماء، حيث تخلع عنها جسدها وتصبح روحا غير مرئية، لم يكن أحد في الحي يعرف شيئًا عن حياتها الأخرى، إلا أن زوجها مات شهيد ا والوطن وهي أرملته الطاهرة أخلصت له في الحياة والموت ولم تتزوج من بعده أبدا.

عرفت الفتاة عن حياة جمالات الأخرى منذ شاركتها الشقة، جعلتها تطلع على مفكرتها الخاصة، كانت تمنحها الثقة، تعاملها كابنتها أو أختها الصغرى، تقدم لها النصائح في أمور الحب، بدت لها دائرة معارف في أمور الجنس، تشرح أدق الخفايا في شخصية الرجل، ترسم فوق الورقة ما يشبه التشريح العلمي لأعضاء الذكورة والأنوثة، وتحكي

تجاربها بدقة بعد أن تنتشي بالنبيذ، تتغنى بعمر الخيام وأبـي نواس ورجوع الصبا للشيخ.

كانت هي ابنة الشـيخ الإمـام الجمـالي، الداعيـة الإسلامي الكبير، اشتهر اسمه بعد معاهـدة كامـب ديفيـد الأولى، أصبح نجما في أجهزة الإعلام، امتلـك العمـارات والعقارات، ثم تغيرت الأحوال بعد أحداث الاغتيالات ومقتل السياح الأجانب، تم القبض عليه بتهمـة الشـذوذ الجنسـي والفساد السياسي، مات في السجن من الكمد، توزعت أملاكه على زوجاته القديمات والجديدات وأبنائه الذكور، لم يعـرف عددهم بالضبط، كانت جمالات ابنته الوحيدة مـن الزوجـة الأولى، تنازلت عن حقوقها خوفًا من أخوتها الذكور، ماتـت أمها قبل أن تحصل على وظيفتها في الصحافة، لم يكن معها شهادة عليا، أصبح عليها أن تشق طريقها بالسـلاح الوحيـد الذي تملكه، الأنوثة الفياضة وحجاب الفضيلة.

تحول مكتبها في المجلة إلى مكـان للترفيـه وقتـل الوقت، ترشف القهوة المحوجة بالحبهان تصنعها هي بنفسها على وابور سبرتو تخرجه من درج مكتبهـا السـفلي، مـع الكنكة وبرطمان البن البرازيلي، وعلبة سجائر كليوباترا في

السنوات الأخيرة ظهرت الشيشة في الركن بجوار المكتبة، تمتلئ غرفتها بالدخان ورائحة البن والبودرة، تتراكم أعقاب السجائر في الطفاية فوق مكتبها، شفتاها مطبوعتين باللون الأحمر فوق كل عقب، لا يكف الزوار عن الدخول والخروج، أصدقاء وصديقات، ومعجبين وعشاق، وبعض العشيقات من النساء، إن أصبحت وحدها تقرأ الصحف والمجلات، أو تفتح الراديو أو التلفزيون الصغير المعلق على الرف بالجدار، أو تطل من نافذته العالية على الكوبري وميدان التحرير.

لم ترث جمالات الفساد عن أبيها، كانت تحن إلى الفضيلة لو امتلكت الدوافع، تعاني الفتور وغياب الحماس، مع الحنين إلى الشبق واللذة المفقودة، تدور حياتها حول محور واحد، الرجل، مثل النساء المكبوتات، الواقعات في براثن الحب المستحيل، الأسيرات الأبديات داخل قبضة الرجل الحمش، الغيور الفظ، الذي لا يقبل الشريك.

الرجل بالنسبة لها ليس جسدا تشتهيه ليلة أو عددا من الليالي المنتهية، بل هو الكون اللامتناهي، الأكتاف القوية تحت حشو البدلة المتين، الصدور العريضة يطل شعرها

الأسود الغزير من فتحة القميص، الانتصابة تحت السـروال أسفل البطن، الصوت الخشن يدغدغ الأذن بالعبارات الفاحشة المبدعة، الأصابع ذات المفاصل البارزة الزاحفة فوق الجسد، والعيون السود أو الزرق أو الخضـر أو العسـلية، المليئـة بالفجر، بالفضيلة، بالغضب، بالرضا، بالترغيب، بالترهيب.

ما أكثر ما عرفت جمالات من أنواع الرجال، تقـول إن ما يجذبها في الرجل هو الإنسان وليس القضيب، لا تفرق بين الرجال على أساس الطبقة أو المهنة أو العائلة، لا تفرق بين عربي وعجمي، عرفت رئيس التحرير كما عرفت سائق سيارته، عرفت الأمير كما عرفت الجرسـون فـي مطعـم الفول، ورثت عن أمها وجدتها فنـون المخـادع والجمـاع، تعلمت على يد البلانة إعداد الفراش والحمام، دهان الأجساد وتدليك المناطق الحساسة، وأكثر الحركات إثارة وخلاعـة، وكيف يهيج الذكر ويضيع عقله، وماذا تقول ومتى، وكيـف تخرج الأصوات من فمها وأنفها، بعبارات عامة سـوقية، أو كلمات راقية فصحى، ضاجعت جمالات الرجال من الطبقـة العالية والسفلى، وخبراء أجانب، ورؤساء مؤسسات، وأزواج النساء المرموقات في العلم والأدب، أو الزوجات المحصنات

في البيوت، وشباب الجامعة العـاطلين، وتلاميـذ الثـانوي المتمردين، وعمال وفلاحين وجنود من فئات الشعب العامل.

تضحك جمالات وهي تقارن بين طريقة الوزير فـي الجماع وطريقة الجرسون في المطعم، أراد الوزير المرعوب أمام الرئيس أن يطفئ النور، كان يخاف الضوء ويخجل من جسده العاري، وانكماش عضوه من طول الكبت، ويخشـى على محفظته المملوءة بالنقد، بخلاف الجرسون الـذي خلـع ملابسه في الضوء، ألقى بالفانلة والسـروال علـى الأرض، مطبوع فوقهما الحرف الأول من اسم طويل تظهر حروفـه في الضوء الحرف وراء الحرف، م.ا. ك .د. و. ن.ا. ل. د. تضيء كلها لتصبح " ماكدونالد ثم تنطفئ وتعم الظلمة.

تقول جمالات، الرجال الساعين إلى الحكم ضـعفاء في الفراش مترددين، غير واثقين في أنفسهم، أمـا الرجـال الفقراء الزاهدين في السلطة فإنهم يتمتعون بقـوة وسـخونة عارمة، ويبذلون أقصى جهدهم لإمتاع النساء.

تحكم جمالات على ذكورة الرجل من شكل أصـابعه وأنفه، يتميز أصحاب السلطة بأصابع قصيرة وأنف مكـور تنقصه الحدة والارتفاع، يكاد يكون قضيبهم نسخة من الأنف،

قصير ومكور، متوسط أو أقل من المتوسط في الارتفـاع أو الانتصاب، وتقول، القوة في الفراش لا علاقة لها بالسـلطة، لأن الفحولة لا تحتاج إلى قوة خارجية.

تدربت جمالات على إدراك خفايا الرجال، ترهـف أذنيها وهي تنصت إلى الخطب السياسية، تؤكـد أن صـوت الرجل يعكس شكل جسده، الصوت الوقـور القـوي النبـرة الضاغط على الألفاظ في السرير يؤكد العكس، أما الرجـل الدون جوان، الذي يسمونه زير النساء، الذي ينتقل من امرأة إلى امرأة، فهو أكثر الرجال هزيمة داخل الفراش.

* * * *

سنوات من عمرها قضتها الفتاة في شقة جمـالات، دربتها على الصلاة خمس مرات في اليوم، قالـت: الصـلاة تمسح الذنوب مثل زيارة قبر النبي في المدينة المنورة، لكن الصلاة لا تحتاج إلى تذكرة طيران ولا مصـاريف، مجـرد الممارسة اليومية حتى تصبح عادة، لا يمكن اقتلاعها.

أخذت عنها عادة الصلاة وعادة التدخين، تشتري لها السجائر مقابل بعض الخدمات، ليلة الخميس هي ليلة السهر،

ليلة المتعة، ساعة لقلبك وساعة لربك، يوم الجمعة هو يوم الرب والصلاة في المسجد والتوبة.

ليلة الخميس يهدأ الزقاق وشارع المبتديان، حي السيدة يصبح هادئًا، يقبع الفقراء في البيوت يستريحون من عناء العمل طوال الأسبوع، يشربون الشاي الأسود مع دخان الشيشة، تدلك أقدامهم نساؤهم بالماء الساخن والملح، تصعد أياديهن المشققة لتدلك أجسادهم الممدودة، يسري الدم في الأعضاء المرهقة المتهدلة، قد يحدث الإنعاش أو الانتصاب.

تكون جمالات قد نامت نصف النهار، أعدت غرفتها لسهرة الخميس، تسميها ليلة الفرج، تتعطر بالمسك بعد الحمام، تجلس على الشلتة فوق الأرض، التليفون المحمول فوق أذنها اليسرى، أذنها اليمنى مرهفة لسماع جرس الباب.

كان سميح يأتي دائما حين تحتاج إليه الفتاة، يدخل حياتها مثل نسمة هواء في جو خانق، لحظة الإفراج من طول الاحتباس، كان مثلها في أزمة يريد الخروج منها، يعاني الاثنان اليأس، وصل كل منهما إلى نهاية الطريق المسدود، لم يكن أمامها إلا أن يلقي أحدهما نفسه فوق صدر الآخر، كالغريق تلامس أصابعه شاطئ النجاة.

كانت له امرأة أخرى يحبها، تركته إلى رجل آخـر، ثم تركها الرجل الآخر لامرأة أخرى، أرادت أن تعود إلـى سميح كاد يصفح عنها ثم تراجع، صفح عنها مـرتين، هـذه المرة الثالثة لن يصفح ولن يعود، كـان اسـمها سـوزان، اختصارها سوزي.

يقول عنها " مجنونة " بالرغبة لتحقيق ذاتهـا، مثـل كارمن، ضميرها غير مستريح، نبحث عن منطق لحياتهـا، تراودها أفكار غريبة لا تنتمي لعالم المرأة.

ـ وما هو عالم المرأة يا سميح؟

ـ لا أعرف.

علاقـة الفتـاة برسـتم دخلـت مرحلـة الخطـر، والتناقضات، يسعى كل منهما إلى تحطيم الآخر عبر الحب، هناك علاقة بين الحب والموت والجنون.

الجنون عند رستم يقوده إلى تدفق الأفكار والكتابـة، تتغلب الفلسفة على الفن في رواياته، يتأمل الكون، يتسـاءل، يعيد الأسئلة القديمة منذ أرسطو وأفلاطون، يحـاول عـلاج الفجوة بين الروح والجسد، أو بين الخير والشر، تشرد عيناه بعيدا ويسألها عن التناقضات في الحب.

صوته تعتريه بحة السعي إلـى الحقيقـة، مبحـوح بذكورة مشروخة، مع القلق المدمر إلى حد الخوف، والرغبة في إنقاذ نفسه بأي شكل، وإنقاذ كارمن معه، كان يحبها أكثر لأنها كاتبة ولأنه كاتب مثلها.

ـ أنتِ أنثى وأنا ذكر وقعت في حبك لأنقـذ حبـي لكارمن، لا أريد أن أفقدها ولا أريد أن أدمر نفسي، أما أنت، أنت من نوع لا يدمره الحب.

ـ أي حب يا رستم.

جذبها إلى رستم ضعفه، تناقضه، تخبطه، تردده، لم يكن مثل سميح قادرا على إخفاء حقيقته.

ـ الحب بيننا يا رستم شيء مختلف، جزء من شيء أكبر.

ـ وما هو الشيء الأكبر من الحب:

لم تعرف الفتاة أبدا لماذا بعد كل قطيعة يعودان إلـى اللقاء، هي ورستم يستغرقان في الحديث طول الليل، يسيران حتى الفجر في شوارع القاهرة سيرا على القدمين أو داخـل سيارته المرسيدس، يجلسان في المقاهي الصغيرة، في الحياء الفقيرة، يشربان الشاي الأسود والشيشة يحاولان الاختفاء عن

عيون كارمن وسميح، ضميرهما يؤنبهمـا فـي كـل لقـاء ويقرران القطيعة، يقتربان أكثر وأكثر بعد كل ابتعاد، يقربهما الافتراق أكثر من اللقاء، تتشـابك أيـديهما مثـل الأطفـال ويمشيان، يقزقزان اللب والترمس على شاطئ النيل، يجلسان فوق الحجر والدكك الخشبية، يستأجران الغرف على سـاحل البحر، يتعانقان طول الليل ينشـدان إفـراغ الشـحنة، دون جدوى، كأنما الحب ليس الهدف، ولا الجنس، ولا أي شيء، إلا اكتشاف المجهول، دون جدوى، يظل المجهـول مختفيـا وراء السحابة، يشعران بالحزن بعد العناق، مـرارة الواقـع وضرورة الفراق، الحب الكبير يحتويهما، ومع ذلـك يظـل صغيرا لا يكفيهما.

في ذاكرتها رغم المسافة رائحة معجون الحلاقة " لا فندر "، عناوين كتب الفلسفة فوق رفوف المكتبـة، الجـدل بطول الليل عن وجود ا ، حين تقبله لا يغمض عينيه، بـل يفتحهما أكثر، يملؤهما شك أكبر يشبه الجنون، يحيط نفسـه بكتبه ورواياته، مثل مريض يحيط نفسه بعلب الأدويـة، أو بزجاجات الخمر والنبيذ، في الليل تسمع أنفاسه تتردد، شيء في رأسه يدق، يمشي الدم في عقله بصوت مسـموع، مثـل

النبض ودقات الساعة فوق معصمه، تسـمع فقـرات عنقـه تطقطق جفونه مسدلة ينبعث من تحتها ضوء، كأنمـا يـرى وهو مغمض العينين، يطل في أعماقه علـى بـؤرة القلـق، يغلبها النوم ساعة أو أكثر، تفتح عينيها لتراه صاحيا، عينـاه مفتوحتان تحملقان في وجهها، يدرس ملامحها فـي النـوم، يحاول اكتشاف شيء لا يراه في الضوء.

كانت كارمن تقول، لا يمكن أن أعيش تحت سـقف واحد مع رستم، لا أريد أن أنام تحت عينه المفتوحة، ترقبني مثل عين ا الساهرة لا تنام، لا شيء يقتل الحب إلا الحيـاة تحت سقف واحد، المشاركة في السرير، الاقتراب إلى حـد التلاصق، الحملقة في وجهك أثناء النوم، اقتحام غرفتك أثناء الكتابة، يأكل معك كل يوم ثلاث مرات، يخترق جسدك فـي الليلة الواحدة مرتين، ينام بعمق يمنعك شخيره مـن النـوم، يدخل معك الحمام، ترين عظامه البارزة المعوجـة، يجلـس أمامك فوق المرحاض، تسمعين صوت أمعائـه وحشـرجة الكبد والطحال، والكحة والسعال، يؤلمك الصوت إلـى حـد الأرق.

وكان رستم يقول: عشت حياة الحرية والاستقلال منذ طفولتي، لم يشاركني أحد غرفتي، لا أستطيع الالتزام بقيـود الحب أو الزواج، لا أسمح لأحد أن يسألني، إلى أين أذهـب، مع من أسهر، ماذا أشرب وماذا أكتب، لا شيء يقتل الحـب إلا التلازم الدائم أكثر من اللازم، وجود شخص آخر تحـت غطائي، وجود امرأة تحت جلدي، أسمع أنفاسها طول الليل، يزعجني انتظامها دون انقطاع، بقدر ما يزعجني انقطاعها.

* * * *

على شاطئ برشلونة تتمدد الفتاة فوق الرمال تحـت الشمس، يخرج من صدرها زفير طويـل محمـلاً بالـدخان والتراب، تأخذ شهيقًا عميقًا من هواء نقي، عبـرت البحـر الأبيض المتوسط من الجنوب إلى الشمال، حملتها الطـائرة أربع ساعات إلى عالم آخر، المبـاني المزينـة بالتماثيـل، اللوحات الأصلية للفنانين، الكتب المطلة من نوافذ المكتبات، الموسيقى والغناء وأضواء المصابيح، مطاعم السمك وقواقع البحر، المناضد فوقها مفارش مكوية بيضاء كالثلج، الأطباق نظيفة لامعة تبرق، الفوط مطوية على شكل الزهرة الملاعق والكساكين والشوك معقمة ملفوفة، الكئوس البللوريـة تتـألق

تحت أشعة الشمس، زجاجات النبيـذ الكـاتلاني " ألبـاريتو ألباينو " "وبتريا شـاردونيه أناجيـل" تحـب النـوع الأول، "فرانسيسك" يحب النوع الثاني، اختـاروا منضـدة بجـوار البحر، كان فرانسيسك يمر بفترة اكتئـاب، يريـد أن يفعـل بحياته شيئًا غير الوقوف كالتماثيل في الشارع، يرى نفسـه في الحلم فنانًا مشهورا مثل سلفادور دالي، يقيم معارضه في بلاد العالم، يصبح من الأثرياء تتهافت عليه الفتيات، قالت له أناجيل، هذا حلم ذكوري مريض.

كانت أناجيل تتألق بالسعادة، كتفاها ناعمتان عاريتان تحت الشمس، ترتدي بلوزة رقيقة تكشف عن بطنها الضامر، بنطلونها من الجينز الضيق مثل القفاز، مشدود تحت الخصر بحزام عريض من البلد الأخضر، تمطت وهي تفود ذراعيها عن آخرهما.

أخيرا وجدت نفسي في كتابة الشعر، كنت ضائعة في الحياة حتى قرأت " ماريا ميرسيه مارسال "، جـاءت مـن القرية طفلة إلى برشلونة، كانت فقيرة مثلي، اسـتطاعت أن تقهر الفقر والعالم بأبيات الشعر، أحب قصيدتها التي تقـول فيها:

" تلقيت من الحياة هدايا ثلاثة.

إنني ولدت امرأة.

وفقيرة،

ومقهورة،

مما جعل تمردي ثلاثة أضعاف."

ماتت ماريا ميرسيه مارسال في ريعان الشباب مثل الزهور، قبل أن تموت، التقت أناجيل بها صدفة، انحرفـت ملامحها في عقلها، وقعت في حبها دون وعي، اكتشـفت أن أمها الميتة لم تمت، أنها تعيش وتمشي على قـدميها، تقـرأ ديوانها وسط الآلاف، وفي الليل تحوطها بذراعيها تعيدها إلى طفولتها ورحم الأم.

يفرغ فرانسيسك كأسه في جوفه، ينهض واقفًا هادرا كـالبحر الغاضـب، ينطـق الكاتلانيـه، بحـروف حـادة كالرصاص، لا يطيق سماع أناجيل وهي تحكي عن حبيباتها النساء، يمط بوزه في اشمئزاز، هـؤلاء النسـوة الليزبيـات السحاقيات الباردات العاجزات جنسيا المقطوعات البظر!

لم تكن أناجيل مقطوعة البظر، كانت مكتملة الجسد، تقول: إن فرانسيسك عاجز مثل الرجال في الشـمال، ينبـع

العجز من الخوف أنا أحب ماريا مارسيه مارسال لأنها شاعرة وليس لأنها امرأة، تستولي على خيالي أكثر من الرجال، رغم كونها ميتة، هناك شيء أكبر من الحب يا فرانسيسك!

تذكرها أناجيل بمريم الشاعرة على شاطئ النيل، أثارت خيالها منذ لقائها الأول بها، بشرتها خمرية بلون الفخار، صوتها وهي تلقي الشعر ناعم وصلب كالرخام، ممشوقة القامة متينة البنيان مثل شجرة جذورها في الأرض، ورأسها في السماء، شعرها كثيف بلون الليل، عيناها كبيرتان تتألقان تحت الضوء، يتغير لونهما مع حركة القمر، عنقها طويل قوي، يحمل رأسها دون عناء، يتحرك جسمها على نحو طبيعي، لا يمثل ثقلاً ولا عبئًا، كأنما هو مصنوع من مادة أخرى غير اللحم والعظم، ربما هي الروح.

كانت الفتاة يائسة، عاجزة عن تحقيق نفسها، يصيبها اليأس بالضعف والهزال، يفقد جسدها مناعته الطبيعية ضد الأمراض، تهاجمها الفيروسات صيفًا وشتاء، تتصبب عرقًا في ليالي البرد، وفي وطأة الحر تنتعش بالبرودة، انقطعت عن رستم وسميح وكارمن، تشاركها جمالات الشقة كأنما

تشاركها جسدها، تعيش معها تحت سقف واحد، يتوالد الصراع من طول الاحتكاك، التلازم الزائد بين اثنتين عن الحد اللازم، ترى وجهها المترهل كل صباح بلا حاجبين وبلا رموش، تسمع صوتها في الحمام تبسمل وتحوقل تشغل المرحاض طويلاً بسبب الإمساك المزمن، صوت الغاز المكتوم في الأمعاء، الدهون المتراكمة مع الفول والطعمية والكوارع، شخشخة الأساور حول معصميها، وحبات السبحة تصطك بين أصابعها، وصرير ضروسها وهي تردد أسماء ا الحسنى، تشعر بالبهجة حين ترى الفتاة مريضة في الفراش، تزداد قوة بازدياد ضعفها، تتزين وتتعطر وتتبختر أمامها وهي راقدة تليفونها المحمول ملتصق بأذنها، تطارد الرجال من عشاقها، تفتتح حديثها باسم ا والسلام عليكم وتختمه بالصلاة على سيدنا محمد، يرن صوتها العالي وإن أغلقت الفتاة الباب، وإن سدت أذنيها بالقطن، وإن دفنت رأسها تحت الوسادة، يأتيها صوتها المتأجج باللذة، يغلي الدم في عروقها، إقبالها على الحياة يؤكد اكتئابها، إحساسها بالمرح يزيد من حزنها، تفتح الباب وتجلس على طرف سريرها، تفوح منها رائحة البودرة والمسك والعطور، حول

حجابها عقد من اللؤلؤ، بين شـفتيها الحمـراوتين سـيجارة مشتعلة، يدخل دخانها في صدرها يزيدها مرضا، تنقلب على الجانب الآخر تعطيها ظهرها، خشب السرير يئن تحت ثقلها كحيوان مريض.

تحاول جمالات التخفيف عنها، تقول لها أنها تـذبل مثل زهرة لا يرويها إلا الإيمـان، والمـرض يـأتي عبـر الشيطان.

- كفاية يا جمالات أرجوكي!

- تحجبي تسلمي، لا تسمعي كلام إبليس، أنا كنـت مثلك قبل أن يهديني ا ، الإيمان حماية من الأمـراض، ا يعاقبك في الدنيا وفي الآخرة، ولا علاج لك يا عزيزتـي إلا بالحجاب.

خرجت جمالات إلى مكتبها، تسللت الفتاة إلى غرفتها تبحث عن زجاجة الحبوب المنومة، فوق المنضدة إلى جوار سريرها أدوية متعددة الأنواع، مكتوبة بحروف أجنبية مـع الترجمة العربية، حبوب طاردة للغازات، حبوب تمنع الحمل، حبوب مضادة للاكتئاب، مانعة للإمساك، مسـهلة للهضـم، حبوب السعادة، أخيرا وقعت يدها علـى الحبـوب المانعـة

للأرق، أخذت ثلاث حبات مع كوب ماء وسقطت في غيبوبة النوم.

* * * *

أفاقت على صوت أناجيل، اليوم عيد سان جوردي، لا أحد يبقى بالبيت، إنه يوم الحب، شربتا النبيذ فوق السطح تحت أشعة الشمس، هبطتا السلالم حتى الـدور الأرضـي، الساعة الثانية عشر ظهرا، يولاندا جالسة في المطعم تلـتهم صحن البايلا الساخنة، تمثال أنتونيو لوبيز لا زال منتصـبا داخل المعطف، عن يمينه قصر ضخم، له برجان عاليـان، قمته تزينها التماثيل، ملائكة ونساء لهن أجنحة، أربعة أعمدة مستديرة ترتفع فوق المدخل، السلالم رخامية بيضاء، حروف كاتلانية منقوشة على الحجر، **Correos y telegrafos** تذكرت أن سميح ينتظر منها ردا على رسالته:

ـ أريد أن أرسل فاكس إلى القاهرة يا أناجيل.

دخلنا إلى البناء الضخم، كتبت الفاكس بالقلم الأسـود الجاف.

عزيزي سميح،

أشكرك على رسالتك الرقيقة، وعلى جهودك من أجل العثور لي على عمل لائق، لم أحصل هنا على أي عمل، لم أكتب شيئًا في الرواية، سأعود إلى القاهرة بعـد أن أضـع مولودتي، سأعطيها اسمي واسم أمي، القانون هنا لا يفـرق بين اسم الأب والأم، أغلب الأطفال يحملون أسماء أمهـاتهم حتى رئيس الحكومة الجديد " زاباتيرو "، كلمة " زابـاتيرو " هي اسم أمه يا سميح، أيأتي يوم في بلادنا يحمل فيه الرجـل اسم أمه دون أن يشعر بالعار؟

أمسكت أناجيل بيدها، سارتا تشقان الزحام في شارع الرامبلا، عيد سان جودري هو عيد الحب، الأرض مفروشة بالزهور والكتب، يشتري الرجل زهرة حمراء يهـديها إلـى المرأة التي يختارها من دون النساء تشـتري المـرأة كتابـا تختاره من دون الكتب، تهديه إلى الرجل الذي تختـار مـن دون رجال العالم، توقفـت أناجيـل أمـام مكتبـة بلاسـا كاتالونيا،اشترت ديوان ماريا مارسيه مارسال، أهدته للفتـاة مع الوردة الحمراء، هي اشـترت ديـوان ماريـا مارسـيه مارسال، أهدته للفتاة مع الوردة الحمراء هي اشترت ديـوان شعر الخنساء باللغة العربية، أهدته لأناجيل مع وردة حمراء،

أصبحت أناجيل تقرأ وتكتب بالعربية، كانـت تعـد دراسـة مقارنة بين الشعر العربي والكاتالوني، فـي مجـال الحـب والحرية، حفظت عن ظهر قلب قصائد الخنساء تقول عنهـا الشاعرة العربية الحرة، لم تخضع لحاكم في القبيلـة أو زوج في الأسرة، أكثر ما أعجب أناجيل في التاريخ العربي القديم هو شجاعة النساء حتى الجاريات:

ـ أتعرفين هذه الحكاية؟

ـ أي حكاية يا أناجيل؟

دخلت على أمير المؤمنين جاريتان إحداهما جاريـة قيمة لديه والأخرى جديدة اشتراها حديثًا، اشتعلت نار الغيرة بين الجاريتين، قالت الجارية القديمة: إن ا فضلني على تلك الأخرى بقولـه " والسـابقون الأولـون.. " ردت الجاريـة الجديدة: بل فضلني ا على القديمة بقوله: " والآخرة خيـر لك من الأولى "، ضحك أمير المؤمنين واستلقى على قفاه من شدة الضحك، وأمر بالمساواة بين الجاريتين القديمة والجديدة.

ترن ضحكات أناجيل في أذنها، تتـذكر ضـحكات جمالات في بابها الثابت في الجريدة، تحت عنوان: " يا رب العالمين ".

بعد أن استمعت يا ربِ إلى بيان الحكومة في مجلس الشعب حول مشروع الخطة العامة للدولة والموازنة، وهـي حكومة مجاهدة في سبيل ا من أجل الإصلاح على الطريقة الأمريكانية، لا أملك إلا أن أرفع كفي إلـى السـماء داعيـة المولى عز وجل أن يفرج عنا الغلاء الفاحش، ويأخـذ إليـه سبحانه وتعالى المتاجرين باللحوم الفاسدة والمبيدات السامة، والشركات المباعة، وعرق الشعب الكـادح، والاسـتثمارات الوهمية، والشباب المهاجر، والجنيه المصري المنكمش خزيا أمام الدولار الفاحش، والآثار المنهوبة في الغرف المظلمـة، ونواب القروض ومهربي البلايين، وطوابير النسـوة أمـام الطوابين، وفقاقيع الوعود المتبخرة فـي الهـواء، يـا رب العالمين يا أرحم الراحمين يا سميع يا كريم.

ـ ومن هي جمالات؟

ـ شريكتي في البيت.

رمقتها أناجيل بنظرة متسائلة، كلمة " شريك البيت " تعني بالكاتلونية الزوج أو الزوجة، أو العشـيقين دون عقـد زواج، الأسرة عندنا لها شكل واحد يا أناجيل، رجل وامـرأة يعيشان تحت سقف واحد، يجمعهما عقد زواج مختوم، أمـا

جمالات فهي صديقة تشاركني الشقة، تكتب بابا أسبوعيا في الصحافة، تنفس به عن غضبها، وهي مؤمنة با والرسول محمد حسب المذهب السني، تغضب لأن المسلمين الشـيعة يورثون البنت مثل الولد، ولأن المسلمين في الصين يصلون الظهر ست عشرة ركعة، والمفروض أنها أربع ركعات، مـا عدا صلاة الجمعة فهي ركعتـان، وهـي شـديدة التمسـك بالحجاب والوحدانية في أمور الدين، أما في أمور الدنيا فهي تؤمن بالتعددية.

كان الزحام شديدا في شارع الرامبلا، ضاعت أناجيل في الزحام، جرفتها أجسام الناس بعيدا، بينما توقفـت الفتـاة تتطلع إلى امرأة واقفة مثل التمثال، تؤدي دور البانتومـايم، بشرتها مدهونة بلون اسود يشبه القطران، ملابسها بيضـاء شفافة، فوق رأسها مظلة بيضاء مفتوحة، رموشها ثابتة كثيفة سوداء، تجمع حولها الأطفال فابتسـمت، ظهـرت أسـنانها بيضاء مشرقة كالشمس، عيناها سوداوان مليئتان بالسواد، ثم تجمدت مرة أخرى مثل تمثال من الحجـر، ألقـى الأطفـال بعض النقود في القبعة البيضاء الكبيرة عند قدميها.

وسط الأطفال رأتها، ترتدي ثوبا زاهـي الألـوان، حول عنقها عقد من الزهور، عيناها الكبيرتـان يكسـوهما البريق، نجمتان تلمعان بالضوء، تقاطيع وجهها بارزة كأنمـا منحوتة في صخرة، في عينيها النظرة الحزينة وإن ابتسمت، تراها في النوم منذ طفولتها، تطل من المرآة منذ نظرت على وجهها في المرآة.

ـ صباح؟

التفتت الطفلة ناحيتها مندهشة، مترددة، شدتها مـن يدها امرأة ضخمة الجسم، ترتدي قبعة رمادية فيهـا ريشـة حمراء، فوق عينيها نظرة سوداء، تطل من خلفهـا مقلتـان غائرتين في السواد، تشبهان العينين المدفونتين داخل ثقبـي النقاب الأسود.

قضت الفتاة الليل مفتوحة العينين، تسترجع الوجـوه في ملجأ الأطفال، في الصباح جاءت أناجيل، قالت أرخـص الأطفال من إثيوبيا ومصر والسودان، أغلى الأطفـال مـن روسيا والصين وإسرائيل، وفي المتوسط لا يقل ثمن الطفـل أو الطفلة عن ثلاثين ألف " دولار ".

* * * *

جاءتها رسالة من سـميح، يطلـب منهـا العـودة، ينتظرها بشوق كبير ومعها طفلتها، هي طفلتنا ألا تـذكرين، وبأي اسم تختارين، " زباتيرو " يحمل اسم أمه، وهو أفضل من الملوك والرؤساء الحاملين لاسم الأب ".

وجاءتها رسالة من كارمن، تطلب منها العودة إلـى الوطن، ومعها الطفلة، هي طفلتنا نحن الثلاثة، أنـت وأنـا ورستم، أنت الأم الأصلية وأنا الأم الفرعية، والأب الأصلي هو رستم، وإن شئت يمكن إضـافة سـميح، هـذه الطفلـة محظوظة لها أمان اثنتان وأبوان.

** * *

الحنين إلى الوطن تحسه تحت ضلوعها، ضـربات القلب القوية في تتابع وانتظام، مع الضربات الأخرى تحـت جدار البطن، داخل الأحشاء تحولت فلذة الكبـد إلـى طفلـة تشبهها، رأت صورتها من خلال الأشعة، وابتسـم الطبيـب الكاتالني، مبروك يا نورية، كان يناديها باسم أمها " نورية "، ستكون طفلة جميلة ماذا تسميها؟ قالت " سيكون لها اسم أمي "، قال الطبيب، يمكنك إضافة اسم أبيك إن شئت "، لم يكـن

لي أبي، ضحك الطبيب، أنت محظوظة مثلي، لم أعـرف إلا أمي مثل " زباتيرو " أحمل اسمها وأشعر بالفخر.

* * * *

حملقت يولاندا طويلاً في عيني الطفلة السـوداوين يكسسوهما البريق، ثم شهقت، باسم الأب والابـن والـروح القدس، هذه الطفلة هي حفيدتي، عيناها بالضبط هما عينـاه، حين كان طفلاً، ابني فرانسيسـك، هـاجر إلـى اسـتراليا، انقطعت عني أخباره، رسمت يولاندا الصليب على صدرها، الحمد والشكر لك يا رب، عوضتني عن ابني بهذه الطفلـة، عيناها بالضبط هما عيناه، كأنما أراه أمـامي، ابنـي، فلـذة كبدي.

حضنت يولاندا الطفلة بذراعيها، ودموعهـا تنهمـر أنفاسها تلهث صوتها يرتعش متمتمة بالآيات مـن الإنجيـل، أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك في السماء كذلك على الأرض، لك الملك والمجد إلى الأبد أمين، تجهش بالبكاء، تغيرت يولاندا منذ نظـرت فـي عين الطفلة، كأنما عثرت علـى نفسـها الضـائعة، كأنمـا استردت أبناءها وبناتها المهاجرين، في بلاد العـالم، أبوهـا

المسيح هو الذي ردهم إليها دفعة واحدة في نظرة واحدة من عيني الطفلة، اسمها نورية باسم ابنتها الغائبة، باسم الآلهـة الكاتالانية القديمة نورية، لك الملك والمجد إلى الأبد يـا رب العالمين.

وأرسلت إليها مريم الشاعرة قصيدة بعنوان نوريـة الشجاعة، التي جاءت إلى الدنيا رغم أنف الدنيا، ضـد إرادة الجميع، جاءت نورية مثل شعاع الشمس، لا تقـدر القـوى النووية أن تمنع ظهور الشمس، خفقة القلب تحت الضـلوع، فلذة الكبد في الأحشاء، وكلمة الحب في قصيدة الشعر.

أما جمالات فلم ترسل شيئًا، إلا الباب الذي تكتبه في الجريدة كل أسبوع، أعطت له عنوان، ضياع شرف الأمـة الإسلامية، يا رب العالمين أنقذ شرف الأمة مـن الضـياع، تزايد الفساد في بلادنا وامتلأت الملاجئ والشوارع باللقطـاء والأطفال غير الشرعيين، يا رب العالمين أنقذ شرف الرجل من عبث النساء السافرات خلقت المرأة من ضلع أعوج كمـا قال الرسول عليه السلام، إن حاولنا إصلاحه انكسر، فارحمنا يا رب العالمين، ولا تكشف الفضائح والمخـازي وانتهـاك العرض في سجن أبي غريب، احتلال الأرض في فلسطين،

وخديعة رئيس الحكومة لمجلس الشعب، وعجـز الموازنـة وتضخم الديون، وعدم تطبيق الشريعة في القوانين، وانصـر يا رب رجال المقاومة في العراق ونساءها، فالمرأة المسلمة المقاتلة تنقذ شرف الأمة، سبحانك يا رب تضع سـرك فـي أضعف خلقك، وتجعل شرف الأمة في يد الأنثى، تنقـذه إن ماتت شهيدة الوطن، وتهدره إن سقطت وغواها الشيطان.

* * * *

وهما ترشفان الشاي فوق السطح تحت أشعة الشمس قالت أناجيل، لا تعودي أبدا يا نورية، إن عدت ربما تتعرض طفلتك للخطف أو للقتل، وهي مولودة بريئة لم تفعـل شـيئًا وأنت أيضا ستنالين العقاب، أرجوك لا تعودي، أنت هنا في وطنك، فالوطن هو حيث يكون الحب وحيث تكون الحرية.

يولاندا حوطت الطفلة بذراعيها، حفيـدتي الوحيـدة ليس لي في الدنيا غيرها، لا تعودي وإن عدت فهي سـتبقى هنا في وطنها وسط أهلها، هذا حقها ولن تسلبها هذا الحـق أية قوة وإن كانت نووية.

في الليل يرفرف الشيء تحت ضلوعها، يعود إليهـا وجه سميح ورستم وكارمن ومريم، حتـى جمـالات تعـود

بحجابها الملفوف حول رأسها، وحاجبيها الرفيعين المرسومين بسن القلم، وضحكتها المجلجلة وصوتها يقول: ألف مبروك على الشغل الجديد يا حبيبتي.

كان سميح قد عثر لها على وظيفة، أمينة المكتبة في النادي الرياضي، اشترت الفتاة حذاء كاوتش متينا، أصبحت تمشي في الصباح الباكر أربعين دقيقة من بيتها إلى عملها، تخرج من الزقاق الغرق في المجاري إلى شارع المبتديان، تغرق في الزحام، والتراب المتصاعد تحت عجلات السيارات والأتوبيسات والموتوسكلات والدراجات وعربات الكارو، تجتاز شارع قصر العيني كمن تغوص في دوامة البحر، تظهر على البر في الناحية الأخرى، تنفض عنها الغبار والهلع، تدخل إلى حي جاردن سيتي كأنما تدخل إلى مدينة أخرى في عالم آخر، حيث يعيش الناس في هدوء، وراء الأسوار العالية تظللها الأشجار وزهور البوجانفيليا الحمراء دم الغزال، المباني الحديثة أو القصور القديمة ذات الأعمدة الرخامية أو الحجرية على الطراز الأوروبي، السفارة البريطانية بأسوارها العالية تشبه القلعة في العصور الوسطى، السفارة الأمريكية أسوارها أكثر ارتفاعا، تعلوها

الأسلاك المكهربة والعيون الإلكترونيـة وأجهـزة المراقبـة والرادار، تخرج من مدينة الحديقة (جاردن سـيتي) علـى كورنيش النيل، تملأ صدرها بالهواء، تمشي فوق الرصيف، فندق الميريديان الضخم يحجب السماء، سائحات أمريكيـات بالقبعات الملونة والصدور العارية، رجالهم يرتدون الشورت والتي شيرت، ونساء خليجيات تحت الخيمة السوداء، تبـرق عيونهن السود من الثقوب رجالهم يرتدون البدل أو الجلاليب مع اللحى والذقون، أصابع أقـدامهم تطـل مـن الصـنادل المفتوحة، وحبات السبحة الصفراء تتراقص بـين الأصـابع حسب المذهب أو الحزب، يمين أو يسار أو وسـط، تنتمـي جمالات إلى الوسط حسب قول الرسول نحن أمـة وسـطا، يتأرجح رستم بين اليسار واليمين يتنقـل سـميح مـا بـين المعارضة والحكومة، تقف كارمن على الحياد، وتقول الفـن للفن وليس للسياسة، أما مريم الشاعرة فهي تنشد قصـيدتها بعنوان، عصر الهزيمة والنفاق، يعقدون الصفقات في لنـدن ونيويورك وتل أبيب، يدبجون المقالات الطويلة، عن التنمية والاكتفاء الذاتي يتنافسون على تقبيل يد رؤساءهم، وأنا أسمي

مريم باسم العذراء الطاهرة، ابنة حواء الآثمة، أعاقر الخمر وأعاشر الشيطان، لأكتب الشعر.

قبل كوبري قصر النيل، ترقد العوامات فوق الماء، تتثاءب في استرخاء، وقوارب صغيرة مزركشة بالألوان والأعلام، جاهزة لنزهات السياح، يحرسها صبية من الصعيد، عظامهم بارزة تحت البشرة السوداء المقشفة، عيونهم صفراء واسعة مملوءة بالحزن، عن اليمين فندق شبرد الأبيض، مكان الفندق المحروق منذ نصف قرن أو أكثر، يوم حريق القاهرة في نهاية العصر الملكي، يبدو قزما إلى جوار فندق الإنتركونتنال الضخم مكان سميراميس القديم، تنحرف إلى اليسار فوق الكوبري المهيب، يحرسه الأسدان المتوحشان، ترتفع فوقه الأعلام وصورة الزعماء، بالحجم الطبيعي، معلقة فوق قوس النصر، يلقحها الهواء من الشمال والجنوب، ومن الشرق والغرب، لكن ا سبحانه وتعالى كما تقول جمالات يثبتها بالمسامير، وبالانتخابات الحرة والاستفتاءات، حيث يقول الشعب الوفي الأمين، نعم، بنسبة ٩٨,٨٠ %، تطورت الأحوال في عصر الديموقراطية، وانخفضت النسبة عن ٩٩,٩٠ %.

مبنى الأوبرا الأبيض يظهر عنـد نهايـة الكـوبري ينتصب على أبوابه الحراس من الطبقة الدنيا، ملابسهم لامعة عيونهم شاحبة، لا يـدخل الأوبـرا إلا النخبـة، المثقفـون والمثقفات، المفكرون والمفكرات، يدخلون الانتخابات تحـت اسم فئات، من التيارات والأحزاب المتعددة، يرتدي الرجـال ربطات العنق الملونة، يسمونها الكرافتـة، ترتـدي النسـاء فساتين السهرة مع حجاب الرأس، المتطـور علـى شـكل التيربون، وقد يكون الشعر عاريـا دون غطـاء، والعنـق مكشوفًا حتى الشق العميق بين النهدين، وكلمة " ا " تتـدلى فوق الصدر من سلسلة ذهبية، وخمسة وخميسة لصد عـين الحسود.

تسير في الشارع المظلل بالأشـجار حتـى البـاب الخلفي، تدخل منه مع العمال في النادي، أصبحت لها بطاقة عليها صورتها واسمها الثلاثي وحالتها الاجتماعية، متزوجة، أو مطلقة أو عذراء والحالة الانتخابيـة، عمـال أو فئـات، وغيرها من الخانات، الديانة ومهنة الأب والـزوج، وعـدد الأطفال، وبصمة الإبهام والخلو من السوابق، كانـت تتـرك

هذه الخانات خالية، حتى خانة الجنس، أنثى أو ذكر لم تكتب فيها شيئًا، حملق الحارس في بطاقتها طويلاً متشككًا وسألها.

ـ انتي جديدة هنا.

ـ أيوه.

ـ بتشتغلي إيه؟

ـ في المكتبة.

ـ مع سيادة اللوا صبحي باشا؟

أربع كلمات مرعبة مرهبة، أكثرها رعبا ورهبة هي " باشا "، من الألقاب القديمـة فـي عصـر الإمبراطوريـة العثمانية، كان يحملها الوزراء ورؤساء الوزراء والمماليـك وقيادات الجيش، وكلمة " اللوا " بالعاميـة تعنـي " اللـواء " بالفصحى، من ألقاب الجيش الرفيعة في عصر الجمهوريـة تحت الحكم العسكري، لا تقل رهبة عن " الأميرالاي " فـي العصر الملكي.

تشق طريقها عبر مشتل الزهور، عن يسارها نـادي الفروسية، طفل مدلل (في فمه بـزازة) يركـب حصـانًا صغيرا أبيض، يجره السايس، رجل عجوز نحيـف الجسـم

محروق بالشمس أسود مجعد مقشف يبربش بجفون متآكلـة سقطت رموشها.

تواصل السير في الممر المخصص لسباق الخيـل، يسمونه " التراك "، عن يسارها وعن يمينها تمتد المسـاحات الخضراء الواسعة لملاعب الجولف، تخرج من التراك إلـى الساحة الكبيرة حيث مدخل النادي الرئيسي، تسير إلى المبنى الآخر حيث المطعم الجديد واللاونج المكيف في الدور الأول، تصعد السلالم الرخامية العريضة إلى الدور الثـاني، حيـث المكتبة.

أصبحت تجلس في غرفة المكتبة النظيفة المطلة على حديقة الشاي، يسمونها في النادي " تي جاردن " كلمة " تي " تعني شاي بالإنجليزية، لم يتغيـر الاسـم منـذ الاحـتلال البريطاني في نهاية القرن قبل الماضي، أصبحت جمـالات من عضوات النادي، تمـارس رياضـة المشـي بحجابهـا الأبيض، تسبح في الماء، بحجاب أسود غير قابـل للبلولـة، تنطق كلمة " تي جاردن " بطرف لسانها، وكلمـة أخـرى " الليدو " تنطقها بصوت خافت، كأنما هي كلمة نابية، تقـول "

الليدو " أصلها في العربية " اللايده "، وهي المرأة المصـابة بالنيمفومانيا.

ـ يعني إيه نيمفومانيا يا جمالات؟

ـ يعني لايده.

ـ لايدة يعني إيه؟

ـ يعني ليدو بالمذكر.

تضحك جمالات حتى تدمع عيناها، تمسحهما بطرف طرحتها البيضاء، عرفت الفتاة كلمة " الليـدو تعنـي حمـام السباحة الصغير المخصص للكبار مـن أعضـاء النـادي، وعضواته، لم يكن مسموحا للعاملات أو العمال في النادي أن يسبحوا في الحمام الصغير أو الكبير، ولا أن يجلسوا علـى الكراسي في ال " جارن " أو أي مكـان آخـر، ولا دورات المياه المخصصة للأعضاء والعضـوات ولا المطـاعم ولا الملاعب.

غرفة المكتبة أصبحت المكان المحدد للفتـاة، تبقـى داخلها من الثامنة صباحا حتى الرابعة بعد الظهر، الساعات الثماني التي كانت تقضيها في ملجأ الأطفال بفم الخليج، لكن المكتبة نظيفة خالية من البراغيث، يحوطها الرفوف المليئـة

بالكتب، تطل من النافذة الكبيرة على الأشجار وحديقة الشاي، من خلفها ملاعب الكروكيه، كلمة الكروكيه تنطقها جمـالات الكركوبة، تقول أن الكركوبة تلعب الكروكيـه، فهـي لعبـة العجائز غير القادرين على الجري، المسنين والمسنات فـي مجلس الشورى أو المجالس الأخرى العليا، أغلبهم من الطبقة المستريحة، خطواتهم على الأرض بطيئة، أجسامهم سـمينة وأردافهم ثقيلة، من طول الجلوس فـي المقاعـد الـوثيرة، يتناقشون في أمور السياسة، بعضهم في حـزب الحكومـة، بعضهم في حزب اليسار، وبعضهم في الحزب الإسـلامي، أصبحت جمالات من لاعبات الكروكيـه، تنثنـي بجسـمها السمين فوق الكرة الصغيرة، تضربها بحركة خفيفة رقيقـة، تقفز الكرة مسافة متر واحد أو نصف متر، تتبعها جمـالات بخطوات بطيئة، شامخة رأسها الملفوف بالتيربون الأنيـق، يتبعها من خلفها ردفاها الكبيران محشوران داخل السـروال الضيق الجينز.

لم يكن يتردد علـى المكتبـة إلا القليـل النـادر ن الأعضاء والعضوات، يتغيب سيادة اللوا صبحي باشا معظـم النهار، مربع الجسم أصلع الرأس يرتدي البلـدة الرياضـية

لونها أصفر فيها خطوط سوداء، يسميها " ترينج سوت "، يضع بين شفتيه سيجارا من هافانا، يقول عن نفسه أنه بطل ثورة يوليو وليس عبد الناصر، عنده الوثائق والبراهين، يعرف أسرار النظام التي يشيب لها الولدان، يمنعونه من الكلام في أجهزة الإعلام، كان بطل التنس والاسكواش، وظيفة أمين المكتبة لا تليق بمكانته، لم يقبلها إلا أنها في النادي العريق، يأتي إليه كل يوم من أجل الرياضة ومقابلة الأصدقاء والصديقات.

لم يكن أمامها إلا القراءة، في تمام الرابعة بعد الظهر تحمل حقيبة يدها الصغيرة، تهبط إلى الدور الأول، تمر على المطبخ في المطعم، لتشرب كوب ماء، يقدمه لها جرسون اسمه محمد، شاب طويل نحيف في عينيه حنان، تسير تحت المظلة الخشبية حيث ترقد السيارات، كالتماسيح النائمة في الظل، ظهورها المقوسة لامعة، تجتاز المساحة الخضراء الكبيرة لملاعب الجولف، كلمة " الجولف " ترن في أذنها غريبة، تحورها جمالات إلى كلمة " جلنف " تقول الجلنف يلعب الجولف، تعني به رئيسها في الصحافة، كان أبوه ماسح أحذية يجلس أمام باب السيدة، حصل على الابتدائية ودخل

الصحافة وهو صبي صغير، يجـري فـي الشـوارع بـين السيارات يبيع الجرائد، تعرف إلى صبي يعمل شـيالاً فـي محطة السكة الحديد، نمت بينهما صداقة، بعد سقوط الملكيـة تسال عبر الصداقة إلى الجمهورية، أصبح يحمل لقب رئيس تحرير، كان صديقه قد دخل الجيش وأصـبح يحمـل لقـب الرئيس،

في يوم لمحت " رستم " من ظهره يلعب الجولـف، كان واقفًا مستعدا لضرب الكرة، ساقاه طويلتان مشـدودتان داخل بنطلون أسود، ضرب الكرة بحركـة قويـة رشـيقة، طارت مثل البيضة الصغيرة، حلقت في الجو وهو يتابعهـا بعينيه حتى هبطت بعيدا بالقرب من نادي الفروسية، انطلـق يسير إليها بخطوات واسعة، من خلفه يهرول الصبي يجـر العربة الصغيرة، تطل منها المضارب الطوية النحيفة، وجـه الصبي طويل نحيف محروق بالشمس، يشبه الوجوه في ملجأ الأيتام.

أسرعت الفتاة الخطى تخفي وجهها بحقيبـة يـدها، تخشى أن يلمحها رستم قبل أن تخرج من البـاب الخلفـي، تسير الخطوة السريعة مسافة عشر دقائق حتى كوبري قصر

النيل، تتراخى عضلاتها وهي تمشي فوق الكوبري، تتأمل الأمواج الصغيرة المتعاقبة كالأسماك الذهبية تحت الشـمس، تقف عند منتصف الكوبري تملأ صدرها بالهواء، تتطلع إلى المباني العالية على جانبي النيـل، أكثرهـا ارتفاعـا فنـدق سميراميس إنتركونتننتال، ترفرف الأعلام من حوله، تسـير حتى نهاية الكوبري، تنحـرف إلـى اليمـين فـي شـارع الكورنيش، تعود في الطريق ذاته الذي جاءت منه، تختـرق حي جاردن سيتي الهادئ إلى شارع قصر العيني الصاخب، تدخل إلى شارع المبتديان ثم إلى زقاق السيدة زينب، كأنمـا تنتقل من شاطئ إلى شاطئ.

ذات صباح دخل رستم المكتبة، كان يرتدي تـريننج سوت رمادية وحذاء كاوتش أديدس، كانت الفتاة مستغرقة في القراءة، رفعت عينيها مـن فـوق الكتـاب رأتـه أمامهـا واقفًا،بشرته ملوحة بالشمس عيناه يكسـوهما بريـق القـوة والصحة.

تتسع عيناها في دهشة، يسألها عن سبب القطيعـة؟ كان القرار هو قرارهما معا في لقائهما الأخير، كيف ينسى،

مشاغله الكثيرة، الانتخابات ومجلـس الشـورى، الروايـة الجديدة التي يكتبها، مشاكله في البيت مع كرامن؟

ـ إزاي نسيت يا رستم؟

ـ نسيت إيه؟

ـ القرار كان قرارانا احنا الاثنين وبإرداتنا.

ـ وهل الحب يخضع للإرادة يا حبيبتي؟

ـ يمكن.

ـ إرادة خارج إرادتنا؟

ـ مش عارفة.

ـ هل فيه إرادة خارج إرادتنا؟

ـ يمكن.

ـ قصدك قوة إلهية؟

ـ مش عارفة.

لم يكن رستم يؤمن بوجود الآلهة، لكنـه يعتقـد أن هناك قوة ما خارج الإنسان، يقول عنها روحية، تسأله الفتاة عن معنى الروح، تشرد عيناه بعيدا، يتنهد طويلاً، ويهمـس، علمها عند ربي، يكاد يشبه جمالات حين تشرد عيناها فـي السماء وتقول، الروح لا يعلمها إلا ا ، لكن سميح لم يكـن

مذبذبا، لديه يقين أن لا شيء يتجاوز الإنسان، كارمن مثـل سميح تؤمن بالعقل، أما مريم الشاعرة فهي تتسـاءل دائمـا لماذا تنتصر إرادة إبليس دائما ولماذا يخرج الشعر الجميـل من وحي الشيطان؟ أما الحب فهو مثل الشعر يعلـو علـى الرذيلة والفضيلة، لا يخضع إلا لقانونه الخاص!

كلمات مريم الشاعرة تشجعها على الحيـاة، تملؤهـا شجاعة الإقدام على كل شيء تحبـه، كانـت الفتـاة تحـب الجلوس على شاطئ النيل تحت ضوء القمر تستمع إلى أبيات الشعر وكلمات الحب، تعشق القراءة والسباحة في البحر، لم يكن مسموحا حسب قانون النادي أن تسبح في حمام " الليدو " أو أي حمام آخر، يسمونه البيسين "، لم يكـن مسـموحا أن تجلس على الكراسي في حديقة الشاي، " تي جـاردن "، ولا أن تشرب فنجانًا من القهوة في أي مكان يجلس فيه الأعضاء والعضوات، كانت تحمل في حقيبتها ساندويتش، إن شـعرت بالجوع تلتهمه بسرعة جالسة في المكتبة، مع كوب الماء من المطبخ، أو كوب شاي يحمله الجرسـون محمـد، بشـرته السمراء بلون طمي النيل، أسنانه البيضاء تلمـع كإشـراقة الشمس في وجهه النحيل، عيناه سوداوان مليئتان بالحنـان،

تخرج محمد في جامعة القاهرة، كلية الآداب، حصـل علـى الماجستير في الأدب العربي المعاصر، لم يعثر على عمل إلا جرسون في مطعم النادي، لا يحصل على راتـب شـهري، يعيش على ما يقدمه الأعضاء والعضوات من " البقشـيش "، كلمة يلفظها بطرف لسانه، " بقشيش "، لا يتلقاه إلا الخـدم، أراد أن يتحرر من الفقر والمهانة، مزق شـهادته الجامعيـة وألقى بها في سلة القمامة.

يختلس محمد بضع لحظات، يقفز السلالم إلى الدور الثاني، يدخل من باب المكتبـة متـرددا، وجهـه مشـرق بالابتسامة، يستعير كتابا لمدة يوم أو يومين، يناولهـا كـوب الشاي الساخن، يتبادل معها وهوواقف بضع كلمات، قبل أن يراه أحد من الملاحظين، يطلق عليهم فـي النـادي اسـم " الكونترول ".

* * * *

في يوم رفعت عينيها من فوق الكتاب، رأتها واقفـة أمامها متحفزة كالنمرة، أول مرة تراها، رسمت ملامحها في خيالها كما وصفها لها سميح، كانت وحدها بالمكتبة، وقفـت صامتة ترمقها بعينين نفـاذتين، سـاقاها مفتـوحتين داخـل

بنطلون ضيق من جلد النمر، لم تر في حياتها نمرا إلا فـي الصور، ظلت واقفة ترمقها، من قمة رأسـها حتىالقـدمين، توقفت عيناها عند حذائها القديم المعفر بتراب السيدة زينب، إصبعها أبيض له ظفر أحمر طويل مدبب يشير إليها.

ـ جربوعة زيك تاخد سميح مني أنا؟

لم تستطع أن تنظر في وجهها المبقـع بالمسـاحيق، بيضاء وحمراء وظلال خضراء على الجفون، خطوط بالقلم الأسود حول العينين، بياضهما جاحظ خضراوتان تشـوبهما حمرة، شعرها أصفر منقوش أطرافه حمراء، شفتاها رفيعتان مصبوغتان بالروج، منفرجتان عن أسـنان مدببـة لامعـة، أنفاسها تلهث، صوتها حاد له رنة معدنية.

ـ إنتي جربوعة!

ـ وانتي مين؟

ـ أنا ستك وتاج راسك سوزان هانم.

كأنما مشهد كوميدي في المسرح، وهي جالسة فـي مقعد ضمن المشاهدين، ليس لها علاقة بالمسرحية.

قدمت لها مقعدا لتجلس، ترددت مندهشة ثم جلسـت بحركة قوية، واضعة ساقها اليمنى فـوق اليسـرى، قـدمها

المرفوعة تعتز أمام وجهها بحركة لا إرادية، داخـل حـذاء أحمر لامع، له بوز مدبب.

تعلقت عيناها بذبذبة القدم، لم ترفع عينيها إلى وجهها المبقع بالمساحيق.

ـ إنتي يا اسمك إيه؟

تذكرت صوت المديرة في ملجأ الأطفـال، اللهجـة نفسها والطريقة وحركة الرأس وملامح الوجه المتخفي تحت حجاب من القماش أو طبقة سميكة من المسـاحيق، تلاقـي الأضداد في مشهد واحد، توقفت قدمها عن الاهتـزاز حـين رأتها تبتسم، منذ التحقت بالمكتبة قررت الانسلاخ عن حياتها القديمة، توقفت عن لقاء سميح ورستم وكارمن، أدركت أنهم ينتمون إلى طبقة أخرى لا تريد الانتماء إليها، ربمـا عقـدة النقص، أو الإحساس بالذنب، أو لأنها اكتشفت عالما جديـدا داخل المكتبة، عالم القراءة والكتابة، كأنما عثرت على نفسها الضائعة منها، متعة جديدة تفوق متع الحياة الدنيا، عالم جديد ينفتح أمامها، تسير فيه إلى الأمام لا تنظر إلى الخلف، عالم القراءة والكتابة، كأنما تولد من جديد، من أم أخرى من وطن آخر، شاطئ جديد ترسو عليه بعد الضياع في المحيط.

ـ لازم تقطعي علاقتك بسميح!

رنت كلمة سميح في أذنها فانتبهت، بدت كلمة غريبة بصوتها المعدني كادت تسألها من هو سميح، ثم عادت إليهـا الذاكرة، رأت وجه أمها وهي طفلة تحبـو، كأنمـا " أمهـا وسيمح " اسم واحد لشيء في الماضي البعيد.

أطرقت طويلاً تبتلع الدمعة الحبيسة، أغمضت عينيها كأنما تسقط في النوم، أفاقت على صوت خائر منهـزم، أنـا غلطت في حق سميح، عرفت قيمته بعد ما فقدته، أرجـوكي ساعديني لأسترده.

اختنق صوت سوزان، حركت رأسها نحـو النافـذة وابتلعت الدموع، نهضت واقفـة تشـد عضـلات جسـمها الممشوق، رأسها مرفوع تهزه بقوة، كأنما تنفض عن نفسـها لحظة الضعف، خرجت من الباب تدق الأرض بكعب حذائها دون أن تستدير.

كانت الفتاة تلتقي بها أحيانًا وهي تلعـب الجولـف، تجتاز المساحة الخضراء بسرعة لتخرج من الباب الخلفـي، إن لمحتها تهز رأسها بالتحية، تهز سوزان رأسـها بحركـة سريعة لا إرادية، ثم تنثني بجسمها الرشيق لتضرب الكـرة،

تتبادلان الابتسام حين تلتقيان وجها لوجه، ذات يـوم توقفتـا لحظة على وشك الحديث، دون أن تملكا الشجاعة، لم يكـن هناك ما تتحدثان عنه إلا سميح، وهو اسم تحاول كل منهمـا أن تنساه.

رأتها الفتاة مرة جالسة تحت ظـل الشـجرة، علـى أطراف ملاعب الجولف، تستريح بعد الجهد، جالسـة علـى الحشيش الأخضر، فوق فوطة النـادي البيضـاء أطرافهـا خضراء، محنية على نفسها جفونها مغلقة، كأنمـا ناعسـة، نهدها الأيمن متهدل تحت قميصها الأبيض، ركبتها اليسـرى مرفوعة يستند إليها كوعها، رأسها مطرق يستند إلى كفها.

بدت وحيدة حزينة، أرادت الفتـاة أن تربـت علـى رأسها بحنان، أن تلقي رأسها فوق صدرها وتبكـي، مـا أن فتحت سوزان جفونها حتى ابتعدت الفتاة لتخرج من البـاب الخلفي دون أن تراها.

* * * *

تمنت الفتاة في يوم أن تحظى بالثقة في نفسـها، أن تخطو على الأرض كما يخطو رستم وهو يمشي، يدخل إلى المطعم الصغير فوق هضبة الأهرامات، يشق طريقـه بـين

الموائد الصغيرة ذات المفارش البيضاء، يجلس على المائـدة عند الحافة العالية المطلة على المدينة، من خلال النافذة تشرد عيناه بعيدا، يحركهما نحو المدخل من حين إلى حين، يتوقع مجيئها كما وعدت.

كانت تفي بالوعد رغم قـرار القطيعـة، لا يـؤدي التباعد إلا لمزيد من التواصل، شحنة من الطاقة في الـروح في الجسد في العقل أو شيء الآخر، تتجمع في بؤرة ما داخل الصدر، تضغط على القلب مثل الدم المحبوس، ثم تندفع فـي لحظة مفاجئة بقوتها الذاتية كالبخار يحرك القطار.

تذهب إليه متأخرة عن الموعـد، علمتهـا جمـالات بعض فنون النسوة، " الحلوة تتأخر "، كلما تـأخرت اشـتد شوق الرجل إليك، دعيه ينتظرك طول العمر، فـي أعمـاق الذكر تقبع غريزة الصياد، لا تثيره الفريسة السهلة السـقوط، وتقول جمالات، لا تكوني غبية مثل الحور الحـين أو حبـة العنب في جنة عدن، تسقط وحدها من الشجرة في فم الرجل الصالح، دون أن يبذل أي جهد، ثم تطلق ضحكتها المجلجلة، المحملة بالجراثيم مثل الأمـراض المعديـة، ينتـاب الفتـاة

الضحك رغم إرادتها كالمرض المفاجئ، تضحك معهـا دون وعي حتى تغرق عيونهما في الدموع.

يملأ رستم كأسهما بالنبيذ، ملآن صـدريهما بهـواء الصحراء، تتملكهما رغبة جارفة للحديث، يتبادلان الأفكـار فيما يقع من أحداث، الحرب في العراق وأفغانستان، المذابح في فلسطين، مآسي المهاجرين والمهاجرات، الفساد والرشوة في جهاز الدولة، الأكاذيب المنشورة، انهيار الأخلاق وزيادة الجرائم تحت اسم الشرف، والانتخابات القادمة فـي مجلـس الشورى.

يتحدثان مثل الصديق والصـديق، يبـدآن بأحـداث السياسة والحرب، ينتهيان بأخبار الفن والأدب، كان يكتـب رواية طويلة لا يعرف نهايتها، وهي تكتب روايتها الأولى لا تعرف بدايتها، لا تكاد تذكر من هـذه الأحاديـث شـيئًا، إلا ضوء القمر المنعكس على تلال الرمال البعيدة، تشبه موجات البحر الصغيرة، رائحة الصحراء المحملة برائحة النبيذ، مع نكهة كولونيا ما بعد الحلاقة، اللافندر، حين يقرب وجهه من وجهها، قبل أن يقبلها، محفورة هذه اللحظات فـي ذاكرتهـا رغم مرور السنين، تعود إليها تقتحم خيالها أكثر من لحظات

العناق، والشبق المجنون في الفراش، راحت هذه اللحظات في العدم رغم ما كان فيها من عنفوان، لم يبق في الذاكرة إلا اللمسات الرقيقة، ونكهة النبيذ الخفيفة، وكولونيا اللافندر المتلاشية في الهواء، كأنما هي اللحظات الحقيقية الوحيدة.

تسترجع الفتاة هذه اللحظات وهي على الشاطئ الآخر من البحر الواسع، تحاول الإمساك بها تحت سن القلم، دون جدوى، تكسبها الحروف بريقًا على الورق ثم تطفئها كما تنطفئ النجوم في ضوء الشمس، لتولد من جديد من رحم الليل، لتعود تنطفئ.

في غرفتها بشارع المبتديان كانت تنام بين ذراعي سميح فوق السرير الخشبي القديم، يئن تحت أجسامهما مع تبادل العناق، يترامى إليهما من خلال الباب المغلق شخير جمالات، خافتًا منتظما مثل دقات المنبه بجوار السرير، قبل أذان الفجر يصحوان على خرير الماء في الحمام، وصوتها يردد أسماء ا وهي تتوضأ، تستعيذ با من الشيطان الرجيم، يزحف شبشبها البلاستيك فوق البلاط، تشد سجادة الصلاة من تحت سريرها، تفرشها على الأرض في اتجاه الكعبة في مكة، يطلق صوت يؤذن لصلاة الفجر، تتبعه آلاف

الميكرفونات المعلقة على الجوامع القديمة والجديدة، تدوي في الجو مثل طلقات المدافع.

سميح ينام بعمق لا يؤرقة شيء، تتأمله وهو مغمض العينين، يبدو هادئًا وادعا مبتسما في النوم، يحلق في الأحلام، مثل طفل مطمئن إلى وجود أمه وأبيه، ملاك من السماء لا يعرف إلا الخير.

كان رستم مختلفًا، تنطوي أعماقه على شيء من الشر، له أعمال نبيلة وله سقطات كبيرة، يمكن أن يكون قاسيا مثل قطعة حجر، ربما كان يشبهها أكثر من سميح.

في أعماقها قسوة على نفسها والآخرين، يمكن أن تقول لرستم دون أن يطرف لها جفن، " علاقتنا يجب أن تنتهي "، تدرك خطورة ما تموج به أعماقها، تريد تجميد ما بينهما عند حدود الصداقة، وتبادل الأفكار، ما يسميه رستم " نكاح العقل "، يقول إنه أخطر مما يحدث في الفراش.

كارمن كانت حبه الكبير، تشعر الفتاة نحوها بالحب، يرتعد خيالها لهذه الفكرة وهي معه، جالسة إلى جواره في المطعم فوق الهضبة، عيناها شاردتان بامتداد الصحراء، تقول لنفسها، ما جدوى هذه العلاقة؟ عاملة فقيرة منهوكة

القوى بلا شهادات، وأستاذ كبير ينتمي إلى الطبقة الحاكمـة، زوجته كاتبة مرموقة من النخبة الرفيعة، تتنبأ الفتاة بوقـوع فضيحة، تضج بها المدينة، تتحطم حياته وحياتها، ثم ينتهـي الأمر إلى القطيعة، بإرادتهما أو بغير إرادتهما، تعبر الفتـاة عما يجول في خاطرها، جالسان يطلان من الحافة الصخرية العالية إلى الهاوية السحيقة، ترقد بيوت القاهرة فـي القـاع المظلم، ترتعش الأنوار الصغيرة المتناثرة، نجوم توشك على الانطفاء.

يحرك عينيه بعيدا عنها، يقول بعد صـمت طويـل، وهل الأمر باختيارنا؟ صوته تعتريه بحة خشنة، أدمنت أذناها سماع هذه البحة الذكورية، لها وقع خاص يسري في أعماق الجسد، يحرك شيئًا مجهولاً في أعماق العقل.

ـ لا أنا ولا أنت نملك القوة للاختيار، لأنها خـارج إرادتنا، ليست خارج إرادتنا تماما، بل هي جزء من إرادتنـا الكامنة في العقل الباطن.

يدب الصمت بينهما، يسمعان أزيز طائرة في الجو، بوق سيارة من بعيد، يشعل سيجارة بعود كبريـت، يتركـه مشتعلاً، يتأمل اللهب بعينيـه الكبيـرتين، تـنعكس الشـعلة

الحمراء على المقلتين الزرقاوين، تذوب الحمرة في الزرقة، كما يغرق قرص الشمس عند الغروب فـي ميـاه البحـر، ويطغي اللون الأسود على عينيه الشاردتين، ينتبه فجأة حين يحرق اللهب أصابعه، يطفئه بنفخة واحدة، تعم الظلمـة ولا تكاد الفتاة تراه، فقط تسمع صوته المبحوح:

ـ وعادت كارمن مائة مرة وفي كل مـرة أخـون الوعد وأعود إليك.

أطرق برأسه طويلاً، دب صمت الصحراء في أذنها صفيرا ممدودا، مثل رياح من الرمال تهب من الشرق فـي الربيع.

ـ وسميح؟ ما رأيه؟:

كان سميح يقول، هذه أمور لا تنفع فيها الوعود ولا النيات الحسنة، لا يمكن أن أقف بينك وبين رستم كما تفعـل كارمن، ليس لأنها تحب رستم أكثر مما أحبك، وليس لأننـي أعقل منها، فهذه الأمور تتجاوز العقل:

ـ أنت يا سميح لا تؤمن بشيء يتجاوز العقل.

ـ أعني العقل الكلـي، ويشـمل الجسـم والـروح واللاوعي.

ـ اللاوعي؟

ـ أعني الذاكرة المنسية الجماعية.

يدور الحوار بينها وبين سميح في الفراش، يتبـادلان الكلام بلذة أكبر من تبادل العناق، يقول إنها مصابة بـالبرود الحسي رغم رهافة الحس وسخونة العقل، لم تكـن علاقتهـا برستم تؤلمه، بل يراها ضرورية.

ـ أنت من معدن يتجاوز الرغبـة فـي الامـتلاك، وعقلك يتسع لأكثر من شخصية أو ثلاثة أو أكثر،

يبتهج عقلها في الحوار معه داخل الفراش الـدافئ، تغمرها لذة تفوق الجنس، تعلو فوق الروح، فـوق مشـاعر الحب والذكورة والأنوثة، لكن هذا الابتهاج يظل ناقصـا لا يتجاوز اللحظة الحاضرة، لا يكاد يهبط مـن رأسـها إلـى جسدها، تحت ضلوعها تحس شيئًا ينخس كـالإبرة، تحـت الرئة اليسرى، تحت الشريان الذي يغذي القلب بالدم، كأنما دمها مسمم بمرض مزمن، عميق ومجهـول، صـوت فـي أعماقها يهمس، سميح لا يحبك، لا يؤلمه أن تقعين في حـب رجل آخر، تخبط صدرها بقبضة يدها، تريد أن تصد عنهـا

هذا الصوت، هذا الفحيح الواصل إليها من الزمن السحيق، وعصر الجواري والعبيد.

* * * *

أناجيل تمسك يدها، تسيران في شوارع برشلونة، الشمس ساطعة في الربيع، أصوات الآلاف تهتف، جيرانو جيرانو، أساسين أساسين، إيراك بالاستينا، الشوارع تغطيها أجساد النساء والرجال والشباب والأطفال، يحملون اللافتات مكتوب عليها " جيرانو " لا للحرب، جورج بوش أساسين، توني بلير وشارون وأزنار، أساسين!

بدأت المظاهرة في الساحة الكبيرة عند فونتانيلا في شارع لوتانا، سارت إلى قلب المدينة، تلتحم بها مظاهرات قدامة من جميع الشوارع والميادين، يذوب جسدها في الأجساد، صوتها المشروخ تخنقه الدموع، تختلط الكلمات العربية بالكاتلانية، والضحك بالبكاء، تبكي على نفسها المفقودة ووطنها الضائع، ويغمرها الحزن والفرح في آن واحد، جيرانو جيرانو، إيراك بالاستينا، يهتفون للعراق وفلسطين، رغم أنهم على الشاطئ الآخر في الشمال، من أجناس أخرى وأديان أخرى وألوان أخرى، لا يفرقهم شيء

ملايين الأجسام مثل أمواج البحر، ترتفع وتتلاقى في موجـة واحدة تنطح السماء، طائرات هليوكوبتر تحلق فـي الجـو، ترقب المظاهرة بالعيون البوليسية، يتلاشى أزيزها الحديـدي في هدير الأمواج البشـرية، جيرانـو جيرانـو، أساسـين أساسين!.

كانت الشمس عمودية ثم انكسـرت ومالـت نحـو الغروب، جفت حلوقهم والتهبت أقدامهم من المشـي، قالـت أناجيل: ما رأيك نستريح ونأكل ساندويتش؟

كان المقهى يواجه مبنى البرلمـان، طلبـت الفتـاة الفنجان شاي بالنعناع مع ساندويتش بيض وجبنـة، طلبـت أناجيل قهوة باللبن مع ساندويتش جانبوه، بينما هما تـأكلان سألتها أناجيل:

ـ هل رأيت البرلمان؟

ـ لا

ـ هل عندكم برلمان؟

ـ أيوه، لكن...

لم تكمل الفتاة العبارة، أرادت أن تقول لكن البرلمان عندنا يختلف عن البرلمان عندكم، الانتخابات عندكم لم يمكن تزويرها، استطعتم في الانتخابات الأخيرة إسقاط أزنار.

ـ نجح زباتيرو وقرر سحب جنودنا مـن العـراق، كان أزنار مثل جورج بوش وتوني بلير، أساسين.

ـ أساسين يعني سفاحين.

ـ زباتير اسم أمه.

ـ عنـدكم انتخابـات حقيقيـة وبرلمـان حقيقـي، لكن......

أطبقت الفتاة شفتيها، عادت إليها صورة المبنى فـي شارع مجلس الأمة، ومن خلفه المبنى الآخـر يحمـل اسـم مجلس الشورى، رأت رستم خارجا من المبنى يمشي علـى مهل، شاردا بعينيه، بين أصابعه السـبحة، حبـات السـبحة صفراء ناعمة، تشبه السبحة في يد جمـالات، وقـد دخلـت جمالات أيضا مجلس الشورى، كما دخلت النادي الرياضي، أصبحت من الأعضاء والعضوات.

توقفت الفتاة أمام البرلمان لحظـة دون أن تـدخل، المبنى أبيض له أعمدة على الطراز الكاتلاني، أمامه بحيـرة

صغيرة زهورها وأوراقها الخضراء طافية فوق سطح الماء كالأسماء الميتة، وسط البحيرة تمثال مـن الحجـر لامـرأة جالسة، محنية على نفسها بحركة منكسرة، جسدها العـاري يلمع تحت رذاذ المطر، رأسها مدفون فـي صـدرها بـين ذراعيها الممدودتين إلى الأمام، ركبتها اليمنى ترتكز فـوق الأرض، ركبتها اليسرى مرفوعة تحاول أن تخفي بها شـعر العانة أسفل البطن، نهدها الأيسر يختفي، والنهد الأيمن يطل من تحت ذراعها على استحياء، عنوان التمثال محفور علـى القاعـدة الحجريـة بحـروف كاتلانيـة، دسكونسـول (**Desconsol**) وتعني " الحزن " إنه أحد تماثيل الفنـان جوزيف ليمونا (**Josep Limona**) نحته عام ١٩٠٣، منذ أكثر من قرن كامل.

توقفت الفتاة أمام المرأة المحنية، تـذكرت سـوزان وهي جالسة تحت الشجرة في النادي، محنية على نفسها فـي هذه الجلسة الحزينة، أدركت لأول مرة أن حبها لسميح كـان أكبر من حبها له، كانت تفتقده أكثر منها، كانت تستحقه أكثر منها، تذكرت سميح بعد أن أعد الحقيبة، ظـل واقفًـا عنـد الباب، لم ترفع وجهها إليه، تركته يمضي دون عنـاق، دون

كلمة وداع أخيرة، كانت تخشى أن تنظـر إليـه، إن التقـت عيونهما ربما يغلق الباب ويعود، فالحب الكبير يبقى محفورا في شغاف القلب، كالجرح العميق الغائر في الجسد.

في المستشفى النفسي كانت كـارمن غاضـبة مـن الأطباء، تقول بصوت خائر، هؤلاء الأغبياء يفرضون علـى ابتلاع حبوب السعادة يمنعونني من منبع سعادتي، سـعادتي الوحيدة تنبع من الكتابة، يشرب الناس النبيذ بحثًا عن السعادة وأنا أرشفه ليغمرني الحزن، لا شيء ينقصني بعـد أن عـاد رستم إلي، لكن جروح القلب لا تلتئم مثل جروح الجسد، إنها غائرة تحت الدماغ، فيما وراء العقل، ربمـا هـي جـروح الروح.

ترن كلمة " الروح " في رأس الفتاة مثل حجر يلقـي في بحيرة، يحدث الدوائر بلا عدد، الكبيرة داخلهـا دوائـر صغيرة، وهذه داخلها دوائر أصغر.

والكبيرة من حولها دوائر أكبر، لا نهائيـة، تـدور الدوائر حول بؤرة عميقة في الوسط مثل دوامة البحر، ويدق السؤال في رأسها الدائر بسكرة النبيذ الأحمـر، ومـا هـي الروح يا كارمن؟ السؤال المزمن منذ الأزل.

* ** *

سميح كانت تجري في عروقه دماء مختلطة، أبـوه كان مؤمنًا با   والرسول، أمه كانت تؤمن بالثـالوث، الأب والابن والروح القدس، يحق للرجل المسـلم أن يتـزوج أي امرأة بشرط أن تكون من أهل الكتاب.

يمشي سميح بخطوة هادئة ثابتة، يعرف بالضبط أين يضع قدمه، ملامح وجهه عاقلـة موزونـة، يـؤمن بـالعلم والبرهان، والتجربة والاستنتاج، والخطأ والصواب، عينـاه خضراوان بلون الزرع في حقول دلتا النيل، فيها سـكون أو حركة خفيفة مع نسمة الهواء، تلمع تحت الضوء حين تسطع الشمس،

جمالات كانت تقول، ملامحه علمية عقلانية خاليـة من العواطف، تسميه " البروفوسير "، تؤكد للفتاة أنه انجذب إليها بالعقل وحده، ترمقها من قمـة الـرأس إلـى أخمـص القدمين، تمط بوزها الأحمر، عيناهـا المكحلتـان تضـيقان تبحثان في كيانها عن شيء مما تسميه الأنوثة، تضرب كفـا بكف،   في خلقه شئون، مقاييس جمالها لا تنطبـق علـى الفتاة، تراها نحيفة جادة على عضمة، سمراء زرقاء، صوتها

مبحوح فيه شرخة ذكورية، ليس لها ثديان بارزان ولا ردفان مثل ردفيها المكوران يرتجان بالأنوثة في كل خطوة.

أول مرة زارها سميح رمقته جمـالات مـن بـاب غرفتها الموارب، بعد أن خرج سألته:

- مسلم والا قبطي؟

- لا كده ولا كده.

- يا خبر اسود؟ يهودي؟

- لأ

- بوذي والا هندوكي؟

- لا كده ولا كده

- يا مصيبتي يا خرابي؟

لم تتصور جمالات أن واحدا من البشـر يمكـن أن يعيش دون هوية دينية، فما بال أن يكون من سكان القاهرة، مدينة الألف مئذنة، التي توالدت لتصبح مليون وأكثر.

ثلاثون عاما تغيرت فيها المدينة والناس، لـم تكـن جمالات ترتدي الحجاب في الستينات، كانت تصفف شـعرها عند الكوافير، ترفع صوتها بكلمـات الاشـتراكية وتـذويب الفوارق بين الطبقات، تردد عبارات الاتحـاد الاشـتراكي،

تخرج طرف لسانها وتقول يعني، واللا، وما إلى ذلـك، ثـم انقلبت في يوم وليلة مع المنقلبين في عصر الرئيس المؤمن، أصبحت من الداعين إلى الإسلام والانفتاح، والتعددية والعلم والإيمان، تسافر في موسم الحج لتزور قبر الرسول والسوق الحرة، تعود محملة بالبضائع المستوردة والأحجبة والمسابح والمباخر، وملابس أنثوية داخليـة مـن القمـاش الشـفاف المشغول بالدانتيلا، وأشرطة فيديو من الممنوعـات، وفـي موسم الانتخابات تحمل المنشورات عن تاريخنـا المجيـد، وأخيها الشهيد، توزعها على الناخبين والناخبات، مع إمساكية شهر رمضان، وبعد حادث المنصة والاغتيال تبـرأت مـن الطاغوت القديم، انزلقت مثل الصابونة الناعمة إلى الحـزب الجديد، الذي يحمل اسم القومي الوطني العروبي الإسـلامي المعتدل، يؤمن أعضاؤه بالواقعية والشراكة في كل شيء إلا الشرك با ، حزب حكومي ونصف حكـومي، ومعـارض شرعي، يقولون: في الانتخابات " نعم "، وفي أجهزة الإعلام والصحف يقولون " لا "، يعارضـون الجميـع إلا السـلطة، أغدق ا عليهم النعم، لا أحد يحاسب أحدا، فالمال مال ا ، وا يعطي من يشاء بغير حساب.

لم تكن جمالات قريبة إلى ا ، رغم صلاتها كل يوم وحجابها السميك، لم تنل جمالات من متاع الدنيا إلا البـاب الأسبوعي في الجريدة، وراتب شهري من المجلس، ومكافأة رمزية من اللجنة الدائمة، تمط شـفتيها الحمـراوتين وهـي تتمتم، ولا دوام إلا سبحانه وتعالى.

* * * *

سميح كان يملك دار النشر في مصر الجديدة، ورثها مع البيت في جاردن سيتي، شغلته أعمال الطباعـة والنشـر والتوزيع عن حلم حياته، كان يرى نفسه في الحلم روائيا مثل تولوستوي أو دوستوفيسكي، يؤرقه الحلم في الليـل، يؤلمـه العمل في النهار، ورثه عن أبيه وجده، كالسلسـلة الحديديـة تربطه بالماضي، يلقي بنفسه في خضم " البزينس " وتجـارة الكتب، يكره الحسابات والأرقام ومقادير الربح والخسـارة، يخسر أكثر مما يكسب، يزداد وجهه نحولاً وشحوبا، كأنمـا ينزف الدم من القلب وهو جالس في مكتبه.

كان يزور الفتاة في غرفتها بزقـاق السـيدة، يبـدو غريبا عن المكان بحذائه النظيف اللامع والبلدة المكوية، يميل إلى الألوان الزرقاء الفاتحة أو الرمادية الهادئة، تزوره فـي

دار النشر أحيانًا، تراه جالسا وراء مكتبه الكبير بجسمه الناحل ووجهه الشاحب، كالحبيس داخل الجدران، غارقًا في الأوراق حوله رفوف الكتب من الأرض حتى السقف، يرفع وجهه ويراها، ينهض مبتسما، قامته صلبة ظهره مستقيم، يصافحها برقة تنم عن قوة الإرادة، نظرته مباشرة ليس فيها التواء، تجمعه بالعاملين معه صداقة حميمة كأنهم زملاء.

في الصالة الكبيرة كانت تعقد الندوات، عن الكتب والروايات يشارك فيها الكثيرون، رجال ونساء، منهم رستم وكارمن، تراهما جالسين وسط الجمهور، رأسه إلى جوار رأسها، يدخلان معا ويخرجان معا ذراعه تحوط خصرها، جاء وحده ذات يوم، كانت الندوة عن رواية " بيت الأشباح " لإزابيل أليندي، أدار الحوار ناقد معروف، قال: إنها رواية من الأدب النسائي، لا تغوص في صلب المشاكل الإنسانية، وتضيع في التفاصيل الصغيرة.

كان سميح قد أعطاها الرواية من قبل، عاشت الفتاة مع الرواية عددا من الليالي والأيام، قرأتها جمالات ومريم الشاعرة، تجتمع الصديقات الثلاث في السفينة على شاطئ النيل، يتحدثن عن الرواية، قالت مريم : إنها رواية جميلة، لم

تقرأ رواية مثلها منذ سنين طويلة، قالـت جمـالات : إنهـا رواية هابطة، تتعارض مع ثوابت الدين والأخلاق، أما الفتاة فقد قرأت الرواية أكثر من مرة، توقفت عند بعض الأجـزاء لتعيد القراءة، لتستعيد المعاني وراء الكلمة، تحت السطر، أو ما بين السطر والسطر، ثم قرأت عن حياة المؤلفـة إزابيـل أليندي، من شيلي في أمريكا اللاتينية.

كان الناقد الكبير جالسا فوق المنصة، قصير سـمين أبيض البشرة، تلمع صلعته الحمراء تحت الضـوء، ربطـة عنقه فاقعة الألوان، يخرج طرف لسانه ويقول، رواية نسوية فيمنيست.

رفعت الفتاة إصبعها وأخذت الكلمة، عارضت الناقد الكبير، لم تكن المعارضة مألوفة إلا بين الكبار من النخبـة، رمقها بنظرة جاحظة من وراء النظارة السميكة، لـم تكـن هيئتها تنم عن الانتماء إلى النخبة، فتاة مجهولة الاسم شاحبة الوجه، شوح بيده كأنما يطرد عن وجهه ذبابة.

غمرها العرق والإحساس بالمهانة، كأنما تلقت صفعة على وجهها، أصبحت تجري كأنما تطاردها الأشباح، توقفت عند نهاية شارع الحرية، كان هناك مقهـى صـغير يبيـع

الساندويتشات، جلست تسترد أنفاسها، من خـلال الزجـاج وكانت ترى الشارع، وأشعة الشـمس الغاربـة مـن وراء المباني، بيوت مصر الجديدة لها أعمدة حجرية تشبه البواكي القديمة، شرفاتها كبيرة نوافذها واسعة تتدلى فوقها السـتائر، من خلفها يتحرك أفراد الأسرة السعيدة، آباء وأمهات وأطفال يضحكون، أولاد وبنات، أمامهم فوق المائدة صحون الطعام، يتصاعد البخار في الجو ومع الضحكات.

تطرق الفتاة في حزن، خيالها يئن بالألم، لـيس لهـا أسرة، لم تكن لها طفولة، لم تأكل شيئًا منذ الصـباح، جـاء الجرسون يسألها ماذا تطلب على وجهه ابتسامة حانية كالأم، اختنق صوتها بدموع حبيسة.

ـ ساندوتش جبنة بيضة وزتون أخضر، وكباية شاي من فضلك.

وهي ترشف الشاي رأت من خلال الزجاج سـيارة مرسيدس تتوقف عند الرصيف، هـبط رسـتم مـن بابهـا الأمامي، تركه مفتوحا، اتجه إلى بـاب المقهـى بخطـوات واسعة سريعة، وقف أمامها متكئًا بيده فوق المنضدة، صوته متحشرج مبحوح قليلاً.

- كلامك عجبني جدا، الرواية مدهشة والناقد ده معروف إنه مالوش في الأدب خصوصا الأدب النسائي!

كان بين أسنانها زيتونة خضراء، سقطت من فمها قبل أن ترد. تدحرجت الزيتونة فوق المنضدة حتى لامست يده، التقطها بإصبعين وقذف بها في فمه وهو يضحك، باحب الزيتون الأخضر أوي.

أنا سايب العربية دايرة، هاتي الساندويتش والزتون وتعالي معايا أعرفك بكارمن مراتي، وسميح جاي بعد ما يخلص الشغل.

* * * *

جلست الفتاة في المقعد الأمامي إلى جواره، تحركت المرسيدس في نعومة مثل سفينة بيضاء تنزلق على الماء، موسيقى خافتة تنبعث من مكان ما، استرخى جسمها المرهق داخل المقعد المريح، زجاج النافذة عن يمينها مزدوج متين، يحجب عنها الضجيج، تبدو القاهرة في الخارج كالبحر المتلاطم الأمواج، زحام البشر والسيارات والدراجات والموتسكلات، تموج المدينة بالحركة تراها دون أن تسمعها، كالصور المتحركة في فيلم قديم، قبل أن تصبح السينما

ناطقة، عن يسارها ترى وجهه من الجانـب، " البروفيـل "، جبهته عريضة ملوحة بالشمس، عظمة الأنف قوية مملـوءة بالثقة، شفتاه مطبقتان في استغراق، عيناه شاخصـتان إلـى الطريق فيما يشبه الشرود، جذور الشعر في وجهه نابتة لـم يحلق منذ أيام.

يتبادلان الكلمات القليلة من حين إلى حين، يتابع أدب أمريكا اللاتينية، الرجال منهم والنساء، يعتبر إيزابيل أليندي في مستوى جابرييل جارسا ماركيز، تستحق جائزة نوبل، لو أن هناك عدالة.

فجأة رأتها تمشي في الشـارع، جمـالات، قبـل أن تنحرف السيارة يمينا في شارع قصر العيني إلـى جـاردن سيتي، كانت خارجة من محل البقالة على الناصية، يتدلى من يديها كيسان كبيران من البلاستيك الأسود، رأسـها ملفـوف بطرحة بيضاء، ظهرت صورتها أمامها فجأة كأنما تخـرج من بطن الأرض حيث كانت تعـيش معهـا فـي الماضـي السحيق.

توقفت السيارة أمام فيلا بيضاء اللون تطـل علـى كورنيش النيل، باب الحديقة الحديدي تتـدلى فوقـه فـروع

شجرة البوجانفيليا الحمراء دم الغزال، رائحة الياسمين والفل، والممر الطويل حتى باب البيت، في المدخل بهو له أعمدة حجرية منقوشة، تتدلى من السقف نجفة كبيرة لمباتها الصغيرة كثيرة كالنجوم، فوق الجدران لوحات وصور داخل براويز ذهبية، صالة صغيرة تقود إلى صالة كبيرة، ثم صالة أخرى بها المائدة، الشموع فوقها مضاءة، سفرجي أسود الوجه بلون الليل ثوبه أبيض كالثلج، حزامه أحمر من القطيفة، يرص الكئوس البللورية والملاعق والشوك والسكاكين الفضية.

كانت كارمن في غرفة المكتبة، ممدودة فوق الأريكة الجلدية تقرأ، من حولها صفوف الكتب تطل من وراء الزجاج تتصاعد حتى السقف، سجادة عجمية مزركشة من الصوف الناعم تلين تحت حذائها.

نهضت كارمن في غرفة المكتبة، ممدودة فوق الأريكة الجلدية تقرأ، من حولها صفوف الكتب تطل من وراء الزجاج تتصاعد حتى السقف، سجادة عجمية مزركشة من الصوف الناعم تلين تحت حذائها.

نهضت كارمن بحركة بطيئة تتمطى، بـدت طويلـة القامة ممشوقة أنيقة نضرة مستريحة، الفتاة منكمشـة داخـل ثوبها القديم وحذائها المعفر بالتراب وحقيبتها الباهتة تفـوح منها رائحة الزيتون المخلل وساندويتش الجبنة.

غمرها شعور بالخزي، كارمن صافحتها على نحـو طبيعي، فتح رستم زجاجة النبيذ، تصاعدت رائحة الشواء من غرفة الطعام، أصابها الحزن يشبه الحنين إلى جـو الأسـرة الحميمة داخل بيت من الطمأنينة.

جلست كارمن على رأس المائدة، عن يمينها جلـس رستم، والفتاة عن يسارها، بدت كارمن رب البيت، بدأ رستم إلى جوارها منطفئًا، وأكثر شرودا.

دار الحديث حول الندوة ورواية " إيزابيل ألينـدي "، والناقد المعروف، ضحكت كارمن، وقالت مالوش في الأدب، ثم سألتها، هل أنت من الكاتبات الشابات الجديـدات؟ هـزت رأسها بعلامة النفي:

ـ أنا مش كاتبة يا أستاذة.

ـ أرجوكي بلاش أستاذة دي.

ـ أنا مش كاتبة.

ـ ناقدة؟

ـ ولا ناقدة.

ـ أمال إيه؟

ـ ولا حاجة.

تأملتها كارمن طويلاً بعينيها الكبيرتين، من القدمين إلى الرأس، نظرتها تكاد تشبه جمالات، حين تفتش بعينيهـا في جسمها عن شيء يجذب العين، لم تجـد شـيئًا ذا بـال، فانسحبت نظرتها إلى زوجها، كأنما تراه لأول مرة، تفحصه جيدا بعينيها البراقتين، توقفت نظرتها عنـد ربطـة العنـق الزاهية الألوان، مربوطة بعناية شـديدة، لا يربطهـا بهـذا الاهتمام إلا في مناسبات معينة، في موسم الانتخابات وموسم الربيع حين تتفتح الزهور ويخفق الشيء تحت الضلوع.

هبطت عيناها إلى صدره داخل القميص الحريـري، وبطنه المشدود بالحزام الجلدي له مقـبض فضـي مغلـق، وأزرار البنطلون الأربعة مغلقة، أصبح زوجها مثل الكتـاب المفتوح تحت عينها، تقرأ الشيء في عينيـه قبـل حدوثـه، تعرف متى ينسى إغلاق الزرار الرابع في البنطلون، يحدث ذلك يحين يشرد طويلاً في قصة حب جديدة، أو بسبب ضيق

الوقت أيام الانتخابات مع ضيق المرحاض في بيوت الناخبين والناخبات.

كان رستم جالسا في استرخاء، يرشف النبيذ على مهل، فاتحا ساقيه، وكارمن عيناها ثابتتان فوق الشيء تحت البنطلون المشدود، ترمقه بنظرتها الفاحصة، مع خيالها الأدبي، تكشف بوضوح عن أسراره الخفية.

انتبه رستم من شروده على كارمن تقول: أنت روائي كبير، موهبتك الأدبية نادرة، لكنك لا تعترف بها، وتضيعها في الانتخابات والعلاقات، ضحكت بعد أن أفرغت الكأس في جوفها، خصوصا النساء، لا أقول أنك زير نساء، على الإطلاق، ثم تحركت عيناها نحو الفتاة تخاطبها، رستم إنسان يحترم المرأة ولا يمكن أن يسيء إليها أو يسبب لها أي ألم.

أطبقت الفتاة شفتيها في صمت طويل، لم تسمع فيه إلا احتكاك السكين بالصحن الصيني في يد كارمن وهي تقطع من اللحم المشوي قطعة صغيرة، أمسكتها بأسنان الشوكة دون أن تقربها من فمها، أصابعها الرشيقة تهتز قليلاً والشوكة معلقة في الهواء، تقول بصوت خافت كأنما تكلم

نفسها، رستم إنسان رقيق حساس، ثم قذفت بقطعة الشواء في فمها.

* * * *

جمالات في شقة السيدة لا يفوتها شيء، مثل رجال المباحث، تعرف عن حياة الفتاة أكثر مما هي تعرف، تبدو جمالات مخيفة بعد أن تغسل وجهها من المساحيق، يصبح وجهها أبيض مفلطحا مثل بطن قدمها، يختفي الحاجبان تماما والرموش والعينان والشفتان، الملامح كلها تختفي على نحو غريب، شعر رأسها بعد أن تخلع الحجاب يبدو خفيفًا منقوشًا مصبوغًا بالحنة الحمراء، تغسله بالشامبو مرة واحدة في الأسبوع، ليلة الجمعة المفترجة، يتساقط شعرها مع رغوة الصابون ويسد بالوعة الحمام، تتركها مسدودة حتى تسلكها الفتاة وهي تلعنها، ا يلعن حجابك يا جمالات، ماله الحجاب يا سافرة يا كافرة! الحجاب سبب سقوط شعرك لأنه بيمنع عنه الشمس والهوا، فين الهوا ده؟ قصدك التراب والقرف والزفت وخطب الطواغيت، اسكتي يا جمالات الحيطان لها ودان، ودان إيه يا عزيزتي، إنشا يكون لها أنياب هيعملوا فينا أكتر من كدة إيه؟

تضحك جمالات بصوتها العالي المرح، تبدو سعيدة لا تعرف الاكتئاب، إلا لحظات قليلة تغرق عيناها في حزن مفاجئ وهي ترسمهما بالقلم الأسود، أو حين تحلق ذراعيها وساقيها بالموس، أو حين تمسك طرفي الفتلة لتنزع الشعر عن حاجبيها، تتقلص عضلات وجهها بالألم، تتذكر أمها التي حرقت نفسها في الحمام، تتنهد بعمق وتشير بإصبعها إلى رأسها، المرحومة أمي طار عقلها لما أبويا اتجوز عليها، كان راجل مؤمن صالح، ربنا حلل له الجواز بأربعة، أمي اعتبرتها خيانة عظمى، أستغفر ا العظيم يا رب، كفرت أمي وحرقت نفسها بالجاز، أبويا مات بعدها بأسبوع واحد من الحزن.

تقهقه بالضحك حتى تدمع عيناها، يتهدج صوتها في نشيج يرتج له جسمها الممتلئ، تنقطع أنفاسها يخرج صوتها مشروخًا، أبويا لم يخلص لأمي إلا بعد ما ماتت، ا يرحمه ويحسن إليه يا رب.

جمالات تأخذ من الفتاة نصف راتبها ثمن إيجار الغرفة، تضيف مصاريف الكهرباء والماء والغاز، لا يبقى للفتاة إلا ما يكفي الوجبات الثلاث، في الفطور فنجان الشاي

مع نصف رغيف بالجبنة البيضاء في الغذاء نصف رغيـف بالبيض والزيتون الأخضر بدون فنجان شاي، أو مع كـوب شاي يحمله إليها محمد جرسون النادي، في العشاء رغيـف كامل محشو بالفول المدمس أو الطعمية، تعرفـت جمـالات على كل من تعرفهم الفتاة، لها طريقتها في الدخول إلى عمق حياتها، تتشمم علاقات الحب قبل أن تقع، تدخل غرفتها تدس أنفها في وسادتها وتقول:

ـ سميح كان عندك إمبارح؟

لديها حاسة شم قوية، يهتز الشعر الأسود في فتحـة أنفها الغليظ الأفطس، يكاد يشبه أنوف الكلاب البوليسية، تقرأ سورة يس فوق سريرها لتطرد عنه الشياطين، تنظـر فـي حقيبة الفتاة، تسألها إن كان معها ورقة بعشـرة أو عشـرين جنيه، حين لا تجد شيئًا تمصمص شفتيها، يعني مش عارفـة تاخذي حاجة من سميح أو رستم، قصدي سلفة قابلة للسـداد مثل قروض البنك الدولي، أو منحة لا تـرد مثـل المعونـة الأمريكية!.

تطلق ضحكتها المرحة الصاخبة، كانت الفتاة تغضب وتطردها أحيانًا من الغرفة، ثم تعودت على طريقتهـا فـي

المزاح، تقول جمالات عنه مزاح إسلامي بريء، على غرار الذبح على الطريقة الإسلامية، تذبح الفرخة في حوض المطبخ وهي تقرأ شهادة ألا إله إلا ا ، تفصل رأسها عن عنقها دون أن يطرف لها جفن، تضعها في الماء المغلي، تنتف ريشها بأصابع ثابتة قوية كما تنتف حاجبيها وشعرات الشنب فوق شفتها العليا.

كانت جمالات تتقبل الهدايا من أصدقائها الرجال، أو قروض طويلة الأجل، تقول النبي قبل الهدية يا عزيزتي، أراد سميح أن تترك الفتاة الغرفة وتعيش معه في شقته بجاردن سيتي، التي تطل على كورنيش النيل، واسعة من سبع غرف وثلاثة حمامات، يسكن فيها وحده بعد انفصاله عن صديقته سوزان، كانت رسامة تشكيلية أقامت عروضا داخل الوطن وخارجه، جدها الأكبر كان من البشوات في العصر الملكي، يملك الأراضي والعقارات، أقيمت عليه الحراسة في العصر الجمهوري، آلت أملاكه إلى مؤسسة الرئاسة، مات بانفجار في المخ، عاش أبوها وأمها في الفقر، تمردت سوزان في الطفولة عن طريق الرسم، لمع اسمها وهي طالبة في معهد الفنون الجميلة، تعرف عليها سميح في

أحد المعارض الفنية، جذبها إلى دار النشـر لترسـم أغلفـة الكتب، وجذبته إلى الفراش في شقتها في حـي المهندسـين، أصبحت تنتمي إلى الطبقة العليـا، تسـبح فـي الحفـلات والمهرجانات الثقافية، في عروقها تجري دمـاء البشـوات، اشتهر اسمها في المجتمع الراقي باسم سوزي هانم.

وكانت مثل سميح لا تؤمن بقانون الزواج، تقول عنه قانون متخلف من بقايا العبودية، جمعهما الحب دون ورقـة، بدأ ساخنًا ملتهبا وانتهى باردا متجمدا، وأصبح كـل منهمـا يتطلع إلى شيء جديد، أو خفقة ما تحت الضلوع.

* * * *

أشارت جمالات بإصبعها إلى ثديها الأيسـر، فـوق القلب مباشرة، وقالت، هنا الألم ينخس مثل الإبرة، تصورت الفتاة أن الأمر يتعلق بحب جديد، لكن الطبيب قرر دخولهـا المستشفى، لعمل الفحوص والأشعات، هناك ورم ينمو فـي ثديها، من النوع الخبيث، أصبحت جمالات تبكي ليل نهـار، تخفف عنها الفتاة وتقول، ا سبحانه وتعالى أعلم من الأطباء يا جمالات، وهو على كل شيء قدير، يقـول للشـيء كـن فيكون، وأنت مؤمنة ومحجبة تواظبين على الصلاة والصيام،

لن يخذلك ا يا جمالات وسوف يقول للـورم كـن حميـدا فيكون.

تجف دموعها، تبتسم في إعياء، تهمـس بصـوت خائر، كلامك يعيد إلي الثقة با ، فقـدت الثقـة فيـه، إزاي يبتليني بالمرض ده؟ إن كان امتحان يا رب يبقـى امتحـان صعب، أصعب من الثانوية العامة، أنا ساقطة في الثانويـة، كنت باكره المدرسة كره العمى، كرهت القراية والكتابة طول عمري، كنت طايشة وعملت ذنوب كتيرة، وانـت يـا رب غفور رحيم، بتغفر الذنوب جميعا إلا أن يشرك بك، وأنا يـا رب لم أشرك بك، ليه تعـاقبني بالشـكل ده؟ يعنـي كنـت بتضحك علي يا رب، أستغفر ا العظيم من كل ذنب عظيم، يظهر إني كفرت يا إله العالمين يا أرحم الراحمين، اغفر لي يا رب وابعد عني الشيطان والمرض الخبيث.

خرجت جمالات من المستشفى بعد أيام قليلة، كأنمـا ولدت من جديد، كانت الفتاة في غرفتها تقرأ حـين سـمعت باب الشقة يفتح، رأت جمـالات أمامهـا مشـرقة بـالفرح، حوطتها بذراعيها وهي تشهق:

- ربنا كبير سمع دعـوتي، والـورم طلـع حميـد والحمد .

راحت الفرحة بعد دقائق قليلة.

- دفعت للمستشفى ألف جنيه وباقي ألف جنيه، ألفين جنيه يا رب على شوية تحاليل فاضية؟ واجيب الألف التانية منين يا رب؟

- ربنا كريم يا جمالات.

- أيوه ربنا كريم في كل حاجة لكن فين الفلوس يـا عزيزتي.

- أستغفر ا العظيم.

- بلاش كلام كتير، السما لا يمكن تمطر جنيهـات، روحي لسميح والا رستم وهاتي سلفة بألف جنيه.

- أنا عمري ما استلفت فلوس من حد، أنـا أفضـل الجوع عن إني أستلف من حد خصوصا سميح أو رستم.

- السلف مش حرام ربنا حلل الاقتراض!

لم تكف جمالات عن الإلحاح، حتى طلبـت الفتـاة الألف جنيه من سميح كان سميح أقـرب إليهـا، وعلاقتهـا برستم لا تزال متأججة بمشاعر الحب المتناقضة، مـا بـين

الإقبال والإدبار، والقطيعة والوصـال، وتضـخم الكرامـة وانكماش الإرادة، محاولة التحرر والاستغناء مع الخضـوع والاستلام للرغبة، وموجات بين الألم واللذة، والعار والإثم.

علاقتها بسميح هادئة باردة، خاليـة مـن المشـاعر الجياشة، كالعلاقة الزوجية الناجحة المستقرة، ناولها سـميح الألف جنيه على نحو عادي، كأنما هو أمر طبيعي، لم تفـتح المظروف، أخفته في حقيبتها كالعورة، ما إن وصلت البيـت حتى تخلصت منه، فتحت جمالات المظروف بأصابع قويـة ثابتة، عدت الجنيهات الألف لا تنقص شيئًا، ثم دسـتها فـي حقيبة يدها وهي تصبح،

- ياريتني طلبت ألف وخمسمية!

* * * *

الفيلا في جاردن سـيتي كانـت تمتلـئ بـالزوار والضيوف، تتلألأ الأنوار في الصالة داخل الصـالة، تتـألق الوجوه بالسعادة، تتصاعد الضحكات مـع دوائـر الـدخان والقفشات المضحكة والأصوات الناعمة مع نكهة الياسـمين والعطور الأنثوية وماء الكولونيا، تسبح كارمن فـي الجـو كالسمكة الفضية تجيد السباحة، رستم يرشف النبيـذ شـاردا

كعادته، سميح ينهمك في الحديث في أحد الأركان، جمـالات ومريم الشاعرة تقفان فـي الشـرفة تطـلان علـى النيـل وتتهامسان، الفتاة جالسة وحدها كعادتهـا تشـعر بالغربـة، تتمشى أمام المكتبة الكبيرة، تتطلع إلى صفوف الكتب، تنشغل بقراءة العناوين، يأتي رستم يتمشى إلى جوارها، كأس النبيذ في يده اليسرى، والسيجار بين شفتيه.

ـ هاربانه دايما كدة؟

يخاطبها دون أن ينظر ناحيتها، وهو ينفث الـدخان، عيناه تدوران على الكتب، تتوقفان أمام عنوان، يشد الكتـاب ويناوله لها، الرواية دي جميلة جدا، أحب اناقشك فيها بعد ما تقريها.

بطرف عينها تلمح كارمن ترمقهما بطرف عينهـا، ترن ضحكتها في الجو، مرحة مجلوة كرنين إناء من الفضة، منهمكة في الجدل مع بعض الضيوف، رستم منهمـك فـي النظر إلى صفوف الكتب، يخاطـب الفتـاة دون أن ينظـر ناحيتها،

ـ إيه رأيك نتعشى سوا ونتكلم في الرواية، مشغولة الخميس الجاي؟

- أيوه.

- مشغولة بإيه؟

- حاجات كتير.

تتصاعد رائحة الشواء، ترتفع الأصوات تدعوهما للعشاء، تجلس كارمن على رأس المائدة، رستم يفتح زجاجات النبيذ، تطلب جمالات عصير فاكهة لأن ا حرم الخمر ولحم الخنزير، يهمس سميح في أذنها، صديقتك دمها خفيف، تعزف الموسيقى لحنًا جميلاً لا تعرفه، تقول: كارمن، اسم المؤلف، تشايكوفسكي، تهز رأسها، تمر بعينيها على الوجه، تلتقي عيناها بعيني رستم، يبتسم يرفع كأسه نحوها قائلاً: " في صحتك ".

مرة بعد مرة ضاع رونق هذه الدعوات، أصبحت الفتاة تشعر بالملل والاغتراب، لا تنتمي إلى هذه الفئة، وإن اشتاقت أحيانًا لما يدور فيها من أحاديث، تلبي دعوة رستم للعشاء، تشعر بالإثم مع اللذة وهما يتحاوران حول رواية من الروايات، يتمشيان معا في الظلمة، يدخلان إلى الشاليه البعيد في الصحراء، يخلع رستم عن وجهه القناع، يخلع ربطة العنق والحذاء، يمشي فوق الرمال حافيا، يلعبان كالأطفال

التعلب فات فات، وفي ديله سبع لفات، يعانقها تحت ضـوء القمر شاردا بعينه في السماء، سئمت حياتي المليئة بالنفـاق، أرجوكي خديني.

هو الذي يقول خذيني، كأنما هي الرجل وهو المرأة، يصبح بين ذراعيها شخصا آخر، لا تكاد تعرفـه ، يطفـئ اللهب في جسدها، لم تتدرب في حياتها على أن تأخذ الرجل، تجربتها في الحب أحادية، يأخذ الذكر الأنثى وليس العكـس، كان يدربها على أشياء جديدة، يفتح عينيها علـى حقـائق لا تعرفها، وروايات لم تقرأها، وموسيقى لم تسـمعها، بـدأت الحياة تبدو لها أكثر ثراء ألوانهـا متعـددة مثـل الطيـور والزهور البرية في الغابات تنمو وحدها وتتشعب وتعلو دون أسوار.

في مكتبة النادي كانت تقضي الفتـاة النهـار فـي القراءة، إن أصابها الملل أو التعب تتمشى قليلاً فـي حديقـة الأطفال، تتبادل الحديث مع خادمة أو مربية يسـمونها " دادة ماجدة "، لا تعرف من العربية إلا كلمات قليلة، تجلس إلـى جوارها على الأرض، بجوار حوض الرمل، حيـث يلعـب الأطفال، لم يكن مسموحا لها أن تجلس فوق الكراسي التـي

يجلس عليها الأعضاء والعضوات، نمت الصـداقة بينهمـا، اسمها ماجدة، اختصار ماجدولين، ولدت فـي قريـة قـرب لاهور، من أب باكستاني مسلم وأم هندوكية، اغتصبها ابـن عم أبيها وهي في الحادية عشرة، ارتفـع بطنهـا بالحمـل، هربت قبل أن يقتلها أبوها، ركبت القطار في ظلمة الليل إلى لاهور، تخلصت من الجنين وأصبح اسمها ماجدولين بدلاً من خديجة، حذفت اسم أبيها، قالت لها صاحبة مكتب التشغيل أنا أمك فوفو، ترسل إليها نصف راتبها كل شهر حسب العقد.

لا تكف ماجدة عن الكلام، في أعماقها مخزون مـن الحكايات، عيناها سوداوان مسحوبتان، فيهما بريق جـذاب، خليط من دماء آسيوية عربية إسلامية هندوكية، ومسحة من الشجن أو الحزن الجميل، خيالها واسع سافرت إلـى بـلاد العالم عبر أسواق الرقيق، من لاهور إلى مانيلا في الفلبـين، ومن الرياض إلى مكة إلى إسرائيل، ومن لندن إلى بـاريس إلى نيويورك إلى بيروت ثم القاهرة، تعرف أسرار القصور والبيوت، دخلت الفراش مع الوزراء والسفراء والسـفرجية والطباخين والزبالين، تسرد الحكايات عن أعضـاء النـادي وهي جالسة في حوض الرمل، عيناها ترقبان الطفلين بانتباه

رغم استغراقها في الحكاية، أبوهما شخص مهم في المجلس الأعلى، يشاركها الفراش حين تسافر زوجته، عجوز متصاب يصبغ شعره وشنبه بالحنة البغدادي السوداء، يبتلـع حبـوب الفياجرا الزرقاء، ترى صوره أحيانًا في الصفحة الأولى مع الكبار، له ابن من زوجته الأولى خبير بالورصة، وابن مـن الزوجة الثانية رجل أعمال يشـارك أبنـاء الرؤسـاء فـي الشركات الكبرى، أما الزوجة الثالثة فهـي قريبـة وكيـل المجلس النيابي، المسئول عن المرشحين ونتائج الانتخابات، لا أحد ينجح دون جهوده، كان من المعدمين أصبح من ذوي البلايين.

كانت ماجدة تزودها بالحكايات، وقطع مـن تورتـة الشكولاتة (بلاك فورست)، وأنواع الفاكهة المجففـة مـع اللوز والفستق، وأشياء أخرى لا تقول عنها سرقة، بل جزء من حقها المسلوب، تضحك وتهز شعرها الأسـود الطويـل الناعم، ضريبة الحب المجاني في غياب ست البيت، تقولهـا بمزيج من العربية والإنجليزية والباكستانية، ثم تنهض تنفض عن ثوبها الرمل، تمسك الطفلين، كل طفل في يد، يحـاولان الفكاك من قبضتها الحديدة، عيناها وهي ترمقهمـا يمتلئـان

بالكراهية، تصفع أحدهما على قفاه، تلكز الآخر في كتفه، ثم تجرهما وراءها كالأرنبين من الأذنين.

* * * *

كانت ليلة صيفية دافئة، السيارة المرسيدس يقودها رستم، القمر غائب وراء غلالة شفافة، تملأ الفتاة صدرها بهواء الصحراء في الليل، جاف وناعم كالحرير، يملؤها بالحنين إلى شيء مجهول، أوقف السيارة عند باب الشاليه، جلسا فوق الرمل يرشفان البيرة المثلجة مع قطع الخيار المخلل والزيتون جلسا فوق الرمل يرشفان البيرة المثلجة مع قطع الخيار المخلل والزيتون الأخضر، كان شاردا وكانت صامتة، ترقب السماء والشعاع الأبيض يتسلل من وراء السحابة، وجه القمر من الفضة اللامعة في خضم السواد، تعلوه ابتسامة ماكرة، كان يتنكر على شكل القمر، يتألق في السماء ثم يهبط في بطن الأرض، ليصبح إله الموت، تذكرت أمها الميتة، كل شيء مصيره الموت حتى هي، عقلها عاجز عن استيعاب الفكرة، أن تموت وتنتهي مثل هذه النملة الزاحفة بين الرمل، عقلها عاجز أيضا عن استيعاب فكرة

البعث أو الحياة بعد المـوت، اجتاحتهـا رغبـة عنيفـة أن يحوطها ويغرقها بالحب قبل أن تموت.

ـ هل فكرت في كتابة رواية؟

فاجأها السؤال، صوته مبحوح فيه ذبحة، كأنما يعاني ألما في صدره، أو التهابا في الحنجرة، واهتز رأسها وحـده علامة النفي، لم تفكر أبدا في كتابة رواية أو أي شيء آخر، ربما خطرت لها الفكرة وهي غارقـة فـي النـوم، أو فـي الطفولة قبل أن يدركها الوعي، فكرة غامضة تتسـلل مـن وراء سحابة سوداء، ترعبها الفكرة كالموت.

سمعته يتنهد بصوت كالأنين:

ـ آه من الكتابة، هي الجحيم بعينه، عذبتني طـول حياتي، خيالي عاجز بارد، بالنسبة لسخونة الأحداث، كل يوم فيه حدث سياسي مهم، ومشاغل المجلس والانتخابات، الكتابة عاوزة معاناة وتعب وجوع وشقاء، وأنا شـبعان ومسـتريح أربعة وعشرين قيراط، ويعني الكتابة بتعمل إيه؟ كلام علـى الورق، مجرد تنفيس عن الغضـب المكبـوت زي العـادة السرية.

رنت كلمة العادة السرية في أذنها نابية، لم يعودها على سماع هذه الكلمات الخارجة عن الأدب.

- أنا آسف إذا جرحت شعورك.

قالها وهو يقترب منها بجسده، يلتصق بها كالغريق يتشبث بقارب نجاة، أنفاسه تلهث، الكلمات تخرج من بين شفتيه مبتورة متقطعة:

- أحيا.... أحيانًا. با. با.... با حسدك.

- ليه؟

- لأنك سعيدة.

- أنا؟

- على...... الأقل.. غير مؤرقة. غير مؤرقة. بال.... بال... بالكتابة.

أصابعه ترتعش باردة كالثلج، عيناه متسعتان شاردتان ينعكس عليهما ضوء القمر الخافت، شفتاه منفرجتين عن ابتسامة واهنة:

- أنا تعبان... أنا... غير مخلوق للكتابة... أنا في الحقيق... في الحقيقة... غير.. غير موهوب... عملوني

كاتب كبير بالوراثة... بالواسطة.. بالفلوس.. وحفلات العشا والخمرة والنسوان...

رنت كلمة النسوان في أذنها نابية، لم تسمعها منه من قبل، كلمة سوقية تنم عن عدم احترام النساء، وهـي واحـدة منهن، كان يحوطها بذراعية يحاول الضغط بشفتيه الباردتين على وجهها الساخن، سرت البرودة في جسدها كالقشعريرة، دفعته بيدها بعيدا عنها، شدها إليه بقوة، حـاول اغتصـابها بعنف وقسوة، كأنما ينفس عن غضبه المكبوت في جسـدها، نجحت في الإفلات من قبضته، فقدت شهيتها للحب، ابتلعـت المرارة والإحساس بالمهانة، تذكرت كارمن، كانت تقول لها:

ـ رستم ضعيف، متناقض، طفل كبير يبحـث عـن ثدي أمه، يعجز عن حب المرأة فما بال الكاتبة؟

محاولة فاشلة لاختراق جسدها، عقلها منتبه منتصب يسد عليه الطريق، وتهمس الفتاة بصوت مخنوق.

ـ انت طفل يا رستم.

ـ كل الرجال أطفال بين ذراعي المرأة.

ـ أرجوك لا تتكلم مثل سميح.

ـ وأرجوكي لا تتكلمي مثل كارمن.

- كارمن كاتبة موهوبة.

- وأنا مش موهوب؟

- في السياسة.

- وفي الكتابة؟

- لأ يا رستم.

يقبض على جسدها بعنفوان الغضب، وعنفوان الحب، كأنما الحب والغضب وجهان لشيء واحد، كأنما الحب بالوعة تمتص الغضب والحسد والغيرة واليأس والحزن الموروث في الطفولة، كأنما الحب ليس بين اثنين، هي وهو، ولكن بين أربعة أشخاص كارمن ورستم وسميح وهي، يزيد عليهم الأربعة الآخرين، أو صورة كل منهم عن نفسه، يزيد عليهم صورة كل منهم عن الآخر، يصبح العدد الكلي اثني عشر شخصا، لكل منهم وجه مزدوج، تتراءى لها الوجوه كلها وهو يعانقها، شفتاه باردتان وأنفاسه ساخنة، تلامس عنقها مع نسمة الصحراء الجافة في الليل، صوته يهمس في أذنها كأنما من مكان بعيد، باحبك، باحبك، إلى الأبد.

ترن كلمة إلى الأبد في الفضاء خاوية كالصحراء، يتردد الصدى في أذنها، تذكر مريم الشاعرة، وهي تنشد قصيدتها على شاطئ النيل في الليل تحت ضوء القمر.

- ما معنى أن نقول إلى الأبد؟
- هل نعيش إلى الأبد ولا نموت؟
- وإن عشنا فكم من الزمن نعيش؟
- خمسين أو سبعين أو مائة سنة؟
- لا يقاس العمر بالأعوام والسنين،
- قد تساوي لحظة الحب في ضوء القمر،
- ألف عام.

يتسرب ضوء القمر إلى جسدها من تحت الثوب الخفيف، كانت راقدة فوق الرمال، عيناها شاخصتان إلى السماء، ترقب القمر يختفي وراء السحابة، إلى جوارها يرقد جسد شخص لا تعرفه عن يقين، ربما هو رستم أو شخص آخر من الاثني عشر، عاريا كما ولدته أمه، قطرات العرق تلمع فوق ظهره تحت ضوء القمر، كأنما هي فصوص من اللؤلؤ، يعود إليها صوت مريم تتغنى، لحظة الحب في ضوء القمر تساوى ألف عام، وأعذب الحب أكذبه مثل الشعر.

وكانت مريم تقول الحب مثل الشعر يعلو فوق الصدق والكذب، لا توجد فضيلة ولا رذيلة في الشعر أو الحب، ولا خير ولا شر، ولا إله أو شيطان، إن أراد ملاك أن يهبط إلى الأرض فسوف يكون شاعرا غارقًا في الحب مثل قيس مجنون ليلى، يعارضها سميح ويقول لو هبط الملاك إلى الأرض فلابد أن يهبط على شكل رغيف الخبز وإلا أعرض عنه الملايين، أما كارمن فكانت تقول، لو كان هناك ملك في السماء فسوف لا تموت الأطفال من الجوع أو في الحروب، يبتسم رستم في إعياء ويقول، أتمنى أن يهبط على شكل النائب العام ليقبض على المسئولين وأعضاء مجالس الشورى.

في القاعة الفسيحة كانت مريم تنشد قصيدتها، آلاف العيون تتطلع إليها، تتغنى بالحب مثل كوكب الشرق، تخفق القلوب مع النبض في عروقها، تلتهب كفوفهم بالتصفيق، ترتج أجساد الرجال والنساء بالنشوة، ينزعون عن رءوسهم كل الأغطية، طرابيش وبرانيط وأحجبة وعقالات وطقيان من أرض الحجاز، وعمائم بيضاء ملفوفة حول رءوس الشيوخ، وسوداء اللون مما يرتديها القسس في الكنائس.

كانت مريم تتألق تحت الأضواء، مرتدية ثوبها الأخضر المزركش بزهور الياسمين البيضاء، حول شعرها الأسود الغزير عقد من اللؤلؤ، حول عنقها الطويل عقد من الفل الأبيض، يتنافس على حبها الرجال والنساء، كانت زاهدة في كل شيء إلا الشعر، محصنة ضد الإغراءات في أي حزب، رفضت دخول مجلس الشورى والمجلس الأعلى للشعراء، وجوائز الرئيس والتفوق، يتطلعون إليها كالنجم في السماء صعبة المنال، امتلاكها من المحال.

ترمقها جمالات بحسد، تقول عنها ملحدة مصيرها نار جهنم، تضحك مريم وتسألها، وأنت مصيرك إيه يا جمالات؟ تؤكد جمالات أن مصيرها جنة عدن خالدة فيها إلى الأبد، تمط الفتاة شفتيها حين تسمع كلمة إلى الأبد، كانت النساء الثلاث جالسات في كازينو السفينة على شاطئ النيل، ترشف مريم النبيذ مع حبات الفول السوداني، تكسو عينيها دموع حبيسة، تلمع تحت ضوء القمر، تعود إليها صورتها وهي طفلة، كانت في العاشرة من عمرها حين فتحت عينيها في ظلمة الليل، رأت أمها واقفة منتصبة داخل ثوبها الأسود، لم تكن ترتديه إلا في الكوارث.

وتسألها جمالات وهي منتشية بعد الكأس الرابعـة أو الخامسة.

ـ كوارث زي إيه يا مريم في حياة الست والدتك؟

ـ مثلاً موت أمها اللي كانت جدتي، أو انتحار أختها اللي كانت خالتي، أو دخول أبوها السجن اللي كان جدي، أو قيام الحرب، أو خناقة كبيرة بينها وبين جوزهـا، وتسـألها جمالات بلسان ثقيل وعقل نصف غائب.

ـ وجوز أمك كان أبوكي؟

ـ أيوه، وكان دايما يتخانق مع أمي على أقل حاجة، لو أنها بصت من الشباك، لو إنها اتنهدت أو نسيت...

كان النصف الثاني من عقل جمالات قد غـاب مـع الكأس التاسعة أو العاشرة يصبح لضحكاتها رنين في الجـو مثل الآنية الفضية المجلوة، ومريم تشاركها الضحك ورأسها مرفوع في ثقة بالنفس، إلى جوارهما تجلس الفتاة منكمشـة حزينة، لم يكن لها أب وأم يتعاركان حول اسـمها، لا أحـد يذكر اسمها، وهي نفسها تنساه، حتى سمعت الطبيـب فـي برشلونة يناديها نورية، رن اسمها في أذنها جميلاً، نوريـة، اسم نادر مثل قطرات المطر في الصحراء، وسألها الطبيـب

عن اسم ابنتها، قالت ستحمل ابنتي اسم أمها نورية كما يحمل زباتيرو اسم أمه.

* * * *

في برشلونة تتفتح الزهور في الربيع، يتغير الطقس في الفصول، في الخريف تتساقط الأوراق عن الأشجار، قبل أن تسقط تكتسب جميع الألوان، الأحمر والأصفر والأخضر والبرتقالي والذهبي والفضي والزمردي والياقوتي والمرجاني، يتغلب الأحمر متفجرا يملأ السماء بحمرة الدم، والأرض تصبح مفروشة بألوان الطيف.

تدوس الفتاة فوقها وتمشي، تتحرك الأوراق الملونة تحت قدميها مثل الكائنات الحية، تتلوى تنثني تنتصب يشتد لمعانها تحت أشعة الشمس، تعلوها قطرات الندى ورذاذ المطر الخفيف في الربيع.

انتزعت يولاندا الطفلة من حضنها، ملامحها تشبه ابنها الغائب فرانسيسك، تحاليل المعمل والحامض النووي يمكن أن تثبت علاقات الدم، أرضعتها يولاندا من ثديها، وضعت الحلمة السوداء في فمها، انهمر اللبن غزيرا مثل النهر، أو الشلال تسقط أمامه السدود، تغيرت يولاندا، عاد

إليها الشباب وغريزة الأمومة، لم يعد في حياتهـا شـيء إلا هذه الطفلة، اسمها نورية، باسم أمها وجدتها، تستعيد يولاندا وجه أمها وجدتها، تنظر في وجه نورية فترى ابنها الغائـب وابنتها المهاجرة، وكل أولادها وبناتها المبعثرين فـي بـلاد العالم.

ـ سأعطيك نصف المطعم والشقة في العمارة وآخذ نورية.

ـ اسمعي يا يولاندا، أنا لا أبيع ابنتي!

ـ سأعطيك ثلاثين ألف يورو نقدا.

ـ ابنتي ليست للبيع.

ـ ليست ابنتك وحدك، ابني فرانسيسيك هو أبوها.

ـ ليس لها أب لا فرانسيسك ولا غيـره، وأنـا الأم أقرر من هو الأب!

لم تكن جمالات تحب الربيع في القاهرة، تقول عنـه موسم الخماسين والزعابيب، تهب الريـاح مـن الصـحراء محملة بالرمال، يصبح الكون لونه أصفر، تلتهـب عيناهـا يصبح بياضهما أحمر.

ترتدي نظارة سوداء، ترى كل شيء أسـود، تلعـن الدنيا والدين وكل شيء، بما في ذلك نفسها.

ـ أن منافقة زي كل النـاس، لازم أكـذب عشـان أعيش، لازم أكتب الباب بتاعي كل أسبوع، لازم أقـول أي حاجة حسب الجو، والجو في بلدنا ملوث بالسموم والتـراب والدخان، حتى الربيع، موسم الحب والزهور والفـرح فـي العالم، أصبح عندنا موسم القرف والزفت والقطران!

ثم تنفجر بالبكاء والضحك، تدمع عيناها الحمراوان، تمسحهما بمنديل من الورق، تشده من فتحة العلبة المستطيلة من الكرتون، مكتوب عليها " كلينكس " بحـروف أجنبيـة، تتحول الضحكات المبتورة إلى نشيج متقطع صوتها متحشرج يخرج من أنفها الذي يرشح مثل صنبور ماء بليـت جلدتـه، تجففه بمناديل الورق تملأ بها صفيحة القمامة.

ـ حتى الزكام بيجي في الربيع، وفيـروس سـي، وفيروس الأبيض المتوسط، ومشروع الشرق الأوسط الكبير، حتى المناديل اللي بنمسح بيها مناخيرنا ما نعـرفش نعملهـا ونستوردها بالعملة الصعبة من أمريكا زي القمـح والعـيش

والفول المدمس، ا يخرب بيت الطواغيت ويخرب بيت صاحب البيت الأبيض!

دق جرس الباب، دخل بعض أصدقاء جمالات وزملائها في الصحافة، منهم بهي الدين برعم، يحمل باقة ورد ملفوفة بورق شفاف، في يده الأخرى كتاب جديد من تأليفه في النقد الأدبي، يشتمل على فصل كامل عن الكاتبة الكبيرة جمالات، جلس على المقعد إلى جوارها وهي مريضة في الفراش، يقرأ لها مقدمة الفصل،

ـ تختلف الكاتبة الكبيرة جمالات عن غيرها من الكاتبات النسويات، فهي لا تكتب عن الجنس، أو الرغبات الجسدية للمرأة، لديها اتزان أدبي رفيع وحرص على الأخلاق والأسرة وقيم الدين الحنيف، تتوجه في بابها الأسبوعي دائما إلى ا خالق الكون.

لم تطمئن جمالات حتى ناولها الكتاب، ارتدت نظارة النظر ذات الشنبر الذهبي، وضعت الكتاب تحت وسادتها، عاد الدم إلى وجهها الشاحب، وعاد المرح إلى صوتها:

ـ اللغة العربية خطيرة جدا، نقطة واحدة على حرف واحد تدخلك السجن، ودي غلطة مطبعية مقصودة مية في

المية، عمال المطبعة بقوا من أبتاع العرب الأفغان والقاعدة وأسامة بن لادن، عاوزين يشتموا النظام على حسابي وحسابك يا بهي، منافقين وجبناء وعملاء لرئيس التحرير، الدنيا كلها بقت ملخبطة وأنا عيانة ودماغي واجعاني!

من الشارع يرى سميح النور مضاء في غرفتها، كانت الفتاة تحاول الكتابة أو تقرأ رواية، يصعد إليها حاملاً كيس برتقال أو موز، أو رزمة ورق وأقلام سوداء جافة، كان يشجعها على الكتابة، في أيام الصيف يأخذها إلى الأسكندرية، ورث عن أمه شقة تطل على البحر في سيدي بشر، كان يعلمها السباحة، تبدو الأمواج مخيفة مثل الكتابة، تحاول أن تكسر الخوف دون جدوى، لا تعرف كيف تطفو فوق الماء، في الليل تواجهها الصفحة لابيضاء مرعبة مثل سحابة فوق عينيها.

تتمشى مع سميح على كورنيش البحر، الهواء النقي وهدوء الليل بعد أن ينام الناس، يتمشيان حتى تظهر نجمة الصباح، أحيانًا ترتفع الأمواج، تصبح مخيفة في الليل، مثل جبال من الرمال السوداء، هديرها يدوي، يرج السماء، مثل هتاف المظاهرات في الشوارع وميدان التحرير، يحوطها

سميح بذراعيه، كالأم الحنون، أنامله الرقيقة تلامس وجهها، تضع رأسها فوق صدره وتنام بعمق، تفتح عينيها في الظلمة، تمد يدها تلمس يده، تريد التأكد أنه جسم حقيقي وليس فكـرة في الخيال، في الصباح بعد الفطور، يصنع الشـاي بعنايـة، والخبز التوست، مربة البرتقال أو الفراولة، اللبن المنـزوع الدسمن البيض المسلوق أربع دقائق، تبدو الحيـاة مسـتقرة تخضع لنظام ثابت، تغمض جفونها في اسـترخاء، تـود أن تستمر الحياة المطمئنة إلى الأبد، أن تلد منه أربعة أطفـال، ولدين وبنتين، تود أن تعبر له عن كل ما في نفسها، وحبهـا لرستم، كأنما علاقتها برستم شيئًا خارج حياتهـا الحقيقيـة، مجرد قصة أو رواية فوق الورق تحكيها لسـميح وتنتهـي منها.

كان سميح مثل الجدار تستند إليه، يحميها من الوحدة والحزن والفقر، في الأعياد يأخذها إلى الحدائق، فـي شـم النسيم، في العيد الكبير والصـغير، يتمشـيان فـي حديقـة الحيوان، وحديقة الأورمان، يمسك يدها في يده وسط الزحام، قريب منها إلى حد التلاصق، هي وهو وحدهما في العـالم الكبير، يشتري لها اللب الأبيض والفول السـوداني، علـى

شاطئ النيل، يسيران المسافات دون أن ينال منهما التعـب، دون أن يشعرا بمرور الوقت، يجلسان على الـدك الخشـبية يقزقزان اللب، تمر بهما الطفلة الشحاذة، يناولها سميح قطعة من النقود، تدعو ا أن يحميها من الأشرار، يأتي الصـبي الذي يمسح الأحذية، يعطيه سميح قطعة أخرى مـن النقـود دون أن يمد له قدمه، يشعر بالحرج، كيف يمكن أن يمسـح لأحد حذاءه؟ وتذكرت قصـيدة لمـريم الشـاعرة بعنـوان الزعيمة:

"أعلنت الزعيمة والفخر يملؤها،
أنها تمسح حذاء زوجها كل صباح،
وتركع له كل ليلة بعد صلاة العشاء،
فالزوج يأتي في المرتبة الأولى،
وقال الرسول عليه الصلاة والسلام،
لو أمرت أحدا أن يسجد لغير ا ،
لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها."

كانت قصائد مريم ممنوعة بقرار من الأزهر، جـاء في مذكرة المنع أن الشـاعرة تتجـاوز حـدود الشـريعة، وتحرض النساء على عدم الطاعة، وظل القرار حبرا علـى

الورق، وكل ممنوع مرغوب، تتلهـف الجمـاهير لانتهـاك المحاذير، تسعى إلى الممنوعات والمحرمـات، والقـرارات التي تصدر لتحريم الرقص والغناء وشرب الخمر، لا تؤدي إلى شيء إلا لمزيد من الرقص والغناء وشرب الخمر، تطلق جمالات ضحكتها المجلجلة وهي تفرغ كأسها فـي جوفهـا، داوني بالتي كانت هي الداء يا بهي يا برعم، يا برغـل، يـا أبهى خلق ا ، اسقني مما أعطانا ا حتى نسمع أذان الـديك في الفجر، فالخمر مكروهة فقط، وأنا أكرهها وأحبها مثلك يا بهي، وهل هناك حب دون كره، هل هناك ليل دون نهـار؟ هل هناك جنة دون نار؟

وسأل رستم الفتاة أكثر من مرة:

ـ هل فكرت في كتابة رواية؟

كانت تسأله، ماذا يهمه في أن تكتب فتـاة مغمـورة مثلها رواية؟ وإن كتبتها هل يقرأها أحد؟ في المكتبة وهـي جالسة وحدها ترمق رفوف الكتب من الأرض إلى السـقف، مئات الكتب، لا أحد من أعضاء النادي يدخل إلى المكتبـة، وهي تمشي في الشارع ترى مئات الكتـب مفروشـة فـوق الأرصفة، آلاف الكتب، ملايين الكتب تطل مـن الأكشـاك

والمكتبات وأرصفة الشوارع والأزقة، يمر بها الناس بعيون مغمضة، تتوقف طوابيرهم أمام المخابز يتقاتلون ويتـدافعون بالمناكب، تخرج المرأة منهم أو الرجل، مكرمش الملابـس معفر الوجه يتصبب عرقًا، يلعن الدنيا والدين، يتدلى من يده كيس بلاستيك أسود مملوء بالأرغفة.

تقول الفتاة لنفسها في الليل وهي غارقة في النـوم، سأكتب الرواية حين أصحو، في الصباح تطبـق شـفتيها لا تستطيع أن تنطق الكلمة، " رواية "، كأنما هي سر دفـين لا تبوح به لأحد حتى نفسها، إلا في غيبوبة الحلم، كأنما هـي عورة تستوجب الإخفاء، مثل الثقب الصغير في بطن حذائها القديم.

* * * *

في دار النشر أثناء الندوة، تجلس الفتاة بـين رسـتم وسميح، يبدو رستم أكثر تألقًا، أقل شحوبا من سميح، يقترب سميح منها أكثر مما كان، يمسك يدها في يده، أصابعه نحيلة رقيقة، يغمرها الحنين إلى ذراعيه والحنان، حين تراه جالسا وراء مكتبه الضخم، يمتلئ قلبها بالشفقة عليه، كالسجين بين الجدران، يراجع الحسابات والأرقـام، يبـدو رسـتم تحـت

الأضواء بعيدا عنها، مثل بطل قصة قرأتها في كتـاب منـذ زمن بعيد.

في الليل تتأمل وجه سميح الشاحب، تعلـوه نظـرة حزينة وهو نائم، تقبله فوق خده فيفتح عينيه، يحكي لها عن طفولته وحلم حياته، كان يمكن أن يكون كاتبا كبيـرا مثـل رستم، لو امتلك الوقت، لكنه مرهق في دار النشـر، يكـره التجارة وحسابات المكسب والخسارة، يود أن يغلقهـا إلـى الأبد، دون أن يملك الشجاعة، مثل زوج يعيش مع زوجة يود فراقها دون أن يملك الإرادة، كالمدمن يتجرع السم كل يـوم يحاول التخلص منه دون جدوى، ويهمس في أذنهـا وهـو يعانقها في الفراش.

- أنت تستحقين رجلاً أفضل مني.

- من هو؟

- مش عارف.

- يمكن مش موجود.

- يمكن.

وتشرد عيناه الحزينتان بعيدا عنها، ترقد إلى جواره غارقة في الصمت، غارقة في العرق في ليـالي الصـيف،

تشعل سيجارة بعود كبريت، مكتـوب علـى العلبـة اسـم كليوباترة، سرقتها من خزين السجائر في غرفـة جمـالات، أصبحت تعشق الدخان، تنفثه من أنفها وفمها إلى السقف، لم يكن سميح يحب رائحة السجائر، خاصة من نوع كليوباترة، تذكره بجمالات، يشد السيجارة من بين شفتيها، يحملها معـه إلى الحمام يغسل لها ظهرها بالليفة والصابون، يرشها بالماء ويضحكان كالأطفال، يلعبون على شاطئ البحر في إجـازة الصيف.

ـ إيه رأيك نعيش سوا في شقتي؟

ـ تحت سقف واحد؟

ـ أيوه.

ـ إلى الأبد.

ـ أيوه

ـ مستحيل.

ـ ليه؟

ـ مش عارفه.

بعد أن يمضي سميح تستلقي الفتاة من حولها البشكير الأبيض، تدفن وجهها في الوسادة التي نام عليهـا، تسـتعيد

رائحة شعره وأنفاسه، ينتابها الحنين إلى جسده مـن جديـد، تشتاق إليه في غيابه أكثر من حضـوره، تبـدو اللحظـات الماضية خارج عمرها، خارج قدرتها على الإمسـاك بهـا، تنزلق من بين أصابعها كالسمكة في الماء، تذوب في أعماق الذاكرة مثل فص الملح في البحر.

ويعود إليها صوت كارمن، لا يمكن للمرأة أن تعيش مع رجل تحت سقف واحد فما بال الكاتبة؟ يدور السؤال في رأسها، وما الفرق بين المرأة والكاتبة، وهل تغير الكتابة من فصيلة الإنسان؟

لم تكن موارد الفتاة تسمح لها أن تعـيش وحـدها، كانت حياتها تحت سقف واحد مع جمالات أمرا مزعجـا، لا تكف جمالات عن إطلاق الأصوات، مـن غرفتهـا، ومـن الصالة ومن المرحاض، ربما هي جمالات السبب في عجزها عن الكتابة، ما أن ترى وجهها في الصباح بلا حاجبين حتى ينتابها الفزع، لكن الانتقال إلى شقة سميح تفزعهـا أكثـر، وأكثر ما يفزعها أن تعيش مع زوج إلى الأبد، لم تعرف في حياتها زوجين سعيدين، كان رستم يقول: الـزواج مؤسسـة التعاسة، وتقول كارمن: لا يستمر الزواج السعيد إلا بسـبب

العادة أو الكسل، يتنافس الاثنان رستم وكارمن علـى قلـب الفتاة، تنجذب إليهما الفتاة بدرجة متساوية، يكشف كل منهما عن عيوب الآخر، تنصت إليهما كأنما ابنـة تنصـت إلـى شكوى أبيها من أمها، وشكوى أمها من أبيها، تحفظ السر لا تبوح به لأي منهما، تدرك عن يقين أنهما بعد كـل خصـام يتصالحان، وتصبح هي الضحية وحدها.

يضع رستم رأسه فوق صدرها يكبرها بثلاثين عاما، من عمر ابنه محمد إدريس، لم تعرف شيئًا عن هذا الابـن، كان ينساه بإرادته وبغير إرادته، تسمع صوت أنينه وهو راقد إلى جوارها، ينفض عن ذاكرته الماضي، يدفن وجهه بـين نهديها، يصب في جسدها أحزانه القديمة، يهمس فـي أذنهـا بصوته المبحوح، الماضي ميت والمستقبل غير موجود، هذه اللحظة الحاضرة هي عمرنا الوحيد، هي كل ما نملك، علينا الاستمتاع بها حتى نفقد الوعي.

وينسى اسمها لحظة فقدانه الـوعي، يناديهـا باسـم كارمن، وأحيانًا يقول لها يا كريمة، بطلة روايته الأولى، كان شابا في مقتبل العمر، يرى في الحلم فتاة أحلامه، ابنة خالـه الباشا، سوف يتزوجها بعد عامين اثنين، حين يتخـرج فـي

الجامعة ويحصل على الشهادة، عامان كاملان ينتظرها على حرارة الجمر، يعانق في الليل جسدها، لا يرى وجهها في الظلمة، لا يريد أن يرى وجهها، يتعانقان خلسة من وراء الوعي، بعيدا عن العيون ما فيها عينيه، لا يملك شجاعة النظر في عينيها، فهي واحدة من الخادمات في البيت، فتاة فقيرة من الريف، لا تعرف القراءة ولا الكتابة، تناديه وهي راقدة تحته سيدي رستم، عيناها مغمضتان لا تملك الشجاعة لتفتحهما وتنظر في عينيه، أنفاسه الساخنة تلفح وجهها، وصوته يسري في أذنها متحشرجا كأنين حيوان مريض، يسترد عافيته بعد أن ينفث فيها السم، ويصب في جسدها الأنين، ينهض من فوقها بحركة سريعة، مستعيدا قوته ومكانته الأولى.

لم تكن الضحية واحدة، بل اثنتين أو ثلاثة أو أكثر حتى حصوله على الشهادة العليا، وكانت خالته تطرد الخادمات، الواحدة بعد الأخرى، تختفي كل منهن في غياهب الدنيا والآخرة، لا أحد يعرف مصيرها، قد تصبح راقصة بطن في أحد الملاهي، أو خادمة سرير لأحد العجائز أو واحدة من بنات الهوى، أو تعود إلى أهلها ليغسلوا العار

بدمها، أو تركب البحر مع الطيور المهاجرة إلى الشاطئ الآخر.

إلا واحدة منهن أكثر سذاجة كانت في الخامسة عشر من عمرها، طفلة بريئة من الريف، حين يزورها رستم في الليل تظن أنه إله الحب، وهي العذراء الطاهرة، تحمل نطفته المقدسة في رحمها، لم تفقد براءتها إلا بعد أن ولدت الطفل، حملته فوق صدرها وذهبت إلى سيدها تزف النبأ، طردها من القصر في جاردن سيتي هي وابنها، أصابتها الصدمة بهبوط في القلب، ماتت وتركت الطفل لرعاية ا ، أصبح يقضي الليل والنهار فوق الرصيف، تحت قبة السماء بلا غطاء ولا طعام، مثل أطفال الشوارع أصبح يسرق ليأكل، ويشم مع الشمامين من أجل النسيان، لم يبق بذاكرته إلا اسم أبيه والعنوان، كانت أمه قبل أن تموت قد اعترفت بالحقيقة، حين أدركه الوعي ذهب إلى أبيه يطلب الرعاية، منعه الحراس من الدخول، صفعه أحدهم على قفاه، وضربه الآخر في بطنه، فسقط على الأرض، حوطه البوابون والسفرجية والخدم جاء رجال الأمن، وحملوه إلى القسم، كان يعلن الدنيا

والدين، ويكيل السباب لأبيه وأم أبيه التي ولدته مـن ضـلع أعوج، ضربه رجال البوليس ووضعوه في التخشيبة.

- اسمك إيه يا ولد؟
- محمد إدريس ابن رستم باشا.
- إخرس يا ابن الشرموطة.
- أمي كريمة وابويا هو الشرموط.

لم تكن كلمة " شرموط " مألوفة في اللغة، فهي فـي الأصل مؤنثة غير قابلة للتذكير، وانتشـرت الحكايـة فـي المدينة، تلقفها المنافسون لرستم في مجلس الشـورى، كـان موسم الانتخابات على الأبواب، تسبقه فضـائح المرشـحين والمرشحات، ظهرت منشورات مجهولة المصـدر بعنـوان القرموط (على وزن الشرموط)، وكان محمد إدريـس قـد خرج من السجن، أخذوه في حزب المنافسين لأبيه، يحملونه معهم في جولاتهم الانتخابية، كان نسخة طبق الأصـل مـن أبيه، الوجه، الجبهة، العينان، الحاجبان، الأنـف، الشـفتان، القامة، الصوت بالبحة الذكورية الجذابة للنساء، وما أن يظهر محمد إدريس أمام الناخبين حتى يهللون، " رستم باشا "، طبق الأصل، وأمه كريمة بنت الدايرة، كان مرشح الدائرة يضرب

عصفورين بحجر واحد، غريمـه الأول رسـتم، وغريمتـه الأخرى كريمة، إحدى الصحفيات من زمـيلات جمـالات، يقولون عنها بنت الدايرة، تعني اللغة العامية ابنـة امـرأة " دايرة على حل شعرها أي عاهرة " وتعني اللغة الفصـحى " ابنة الدائرة "، الانتخابية للمجلس الموقر.

* * * *

وكانت كارمن تتابع الحملة من بعيد، لم تكن تعـرف أن لزوجها ابنا غير شرعي، حكى لها عن مغامراتـه قبـل الزواج، إلا حكاية كريمة التي أعطت الطفل اسم أبيها إدريس وأضافت إليه اسم محمد، بأمل أن يضفي اسم النبي على ابنها الشرف والشرعية، دون جدوى، ظل محمد إدريـس فاقـدا للشرف والشرعية حتى مات، بعد انتهاء الانتخابات، صدمته سيارة وهو يجري في الشوارع يوزع الصحف والمجـلات، سقط تحت العجلات، من حوله تناثرت الأوراق، غارقة فـي الدم والحبر، وصدى صوته يردد أهرام أخبـار جمهوريـة وخطبة الرئيس في العيد.

* * * *

في الليل يدفن رستم رأسه في صدر كارمن، يحاول أن ينسى وجه ابنه، والمنشور المازوق فوق الجدارن على الورق المصقول، انتخبوا القرموط، السابح مع التيار في كل العصور، من الاشتراكية إلى الخصخصة إلى القصقصة وكتابة الروايات، الشديد الجاذبية للنساء، من ملعب الجولف إلى حرب الخليج وخريطة الطريق، من البورصة إلى إسرائيل إلى مكة، يمسح ذنوبه في موسم الحج، وفي شهر رمضان يزكي عن أمواله بموائد الرحمن.

تحوطه كارمن بذراعيها، تهدهده كالأم، لم تكن تؤنبه، ولم يكن يعتذر عن شيء يقول لها وهو في حضنها، الخيانة الزوجية ليست خيانة، فالرجل خلقه ا لا تكفيه امرأة واحدة، لا يذكر ا إلا في هذه الحالة حين تكتشف زوجته القصة الجديدة، وكانت كارمن تعرف متى تكون البداية، يبدو رستم مهموما مملوكًا للشعور بالإثم، يتعمد أن يؤلمها حتى تغضب، لتنفجر بالغضب وتلعن اليوم الذي عرفته فيه، يتراخى جسده ويسقط في نوم عميق، يصحو خفيفًا كأنما تخلص من العبء، تقول له كارمن، اسمع يا رستم، أنا سئمت هذه اللعبة، عليك أن تتحمل آثامك ولا تحملني أنا

مسئولية تطهيرك منها، يحملق في وجهها كأنما يراهـا لأول مرة، يفزعه أن تكشف عن أعماقه الخفية، يدخل في حضنها كالأم، يدفن وجهه في صدرها ويجهش بصوته المتحشـرج، اغضبي مني يا كارمن، طهريني من ذنوبي لأحبك أكثر، ثم يضيف بلا صوت، ولأكرهك أكثر.

تدفعه بيدها بعيدا عنها ثم تشده إليها، تنجـذب إليـه وتنفر منه في آن واحد، ينهض من الفراش ويجلس بجوارها ينفث الدخان إلى السقف، ثم يرتدي ملابسه ويخـرج، كـان يلتقي بالفتاة إن لم يجد امرأة سواها، إن غابـت أو تمنعـت يجول بالمرسيدس في شوارع المدينة، يلتقط واحدة من بنات الهوى، يحملها إلى الشاليه في صحاري سيتي، يفـرغ فيهـا الغضب والهوان، يضغط بأسنانه على شفتيها حتى تنـزف، يعضها في كتفها مثل كلب مسـعور، إن تأوهـت يضـربها بقبضة يده، في صدرها وبطنها، تتـوهج ذكورتـه بازديـاد أنينها، يتحشرج صوته هامسا في أذنها، خـذيني يـا لبـوة، وتصعد الفتاة فوقه وتأخذه بالقوة كما يأخذ الرجـل المـرأة وكانت جمالات تقول: لا يشعر الرجل باللذة إلا مـع امـرأة تؤلمه، يتلاشى الفاصل بين الألـم واللـذة، وتقـول مـريم

الشاعرة، المرأة مثل الرجل تتأرجح بين الخضوع والاستبداد إلا النساء اللبؤات، الأكثر قوة من الأسد.

* * * * *

كان يوما من أيام الشتاء الممطرة، تتحول الأزقة في حي السيدة إلى برك صغيرة، تختفي الفئران والصراصـير داخل الشقوق، ويأوي الناس في الشقق المغلقة منذ الغروب، كانت الساعة تجاوزت منتصف الليل، الظلمة كثيفة بلا قطرة ضوء، هبت الفتاة من نومها على الصرخة، رأت جمـالات واقفة عند الباب بملابس الخروج، وجهها متهدل شاحب بـلا مساحيق ولا حاجبين، تلطم خديها بيديها الاثنتين.

- ليه يا رب؟! ليه يا رب؟!

- حصل إيه يا جمالات؟!

لم يكن هناك وقت للإجابة، انطلق بهما التاكسي يشق الأزقة الغارقة في الوحل والظلمة، يلعن السائق الدنيا والدين، جمالات صامتة على غير عادتها، الفتاة جالسة إلى جوارهـا غارقة في أفكارها، توقف التاكسي داخل زقاق فـي مدينـة الموتى أسفل جبل المقطم، لم تستطع السيارة التحـرك إلـى أكثر من ذلك، هبطت جمالات ومن خلفها الفتـاة، غاصـت

أقدامهما في الطين من زقاق إلى زقاق، ثم توقفت جمـالات أمام شق في الجدار، أخرجت من جيبها منديلاً وضعته فوق أنفها، كانت الرائحة غير محتملة، تشبه اللحم المشـوي مـع العظام والشعر والأظافر والجلد، في المدخل كانـت امـرأة واقفة ترتدي خيمة سوداء، عيناها تطلان من الثقبين الغائرين في السواد، إلى جوارها رجل داخل جلباب أبـيض طويـل، وثلاثة رجال بملابس البوليس، تقدم أحدهم نحـو جمـالات، يسلط على وجهها كشاف النور:

ـ إنتي أمها يا مدام جمالات؟

ـ أيوه.

نطقت الكلمة أيوه كأنما تلفظ النفس الأخير، تسـاقط جسدها إلى الأرض، رفعوها لتنهض واقفة، بدأت تنقل القدم وراء القدم وهم يسندونها، تتوقف مرتدة تلتقط أنفاسها، مـن خلفها الفتاة تتحرك كمن في النوم، الظلمـة شـديدة إلا مـن ضوء الكشاف الصغير على شكل دائرة صفراء، سقطت فوق كتلة متفحمة بحجم الطفل المولود، إلى جوارها كتلة أخـرى أكثر تفحما أكبر حجما، شعر رأسها محروق، لم يبـق مـن وجهها إلا العظام، احترقت بعض أجزائها وانطفـأت داخـل

بركة من الماء والطين، إلا شيء واحد كالجمرة تحت الرماد، بلون الدم الأحمر، يلمع في الظلام، عين مفتوحة بلا رموش ولا جفون ترمقهم دون أن تطرف.

* * * * *

رقدت جمالات في الفراش ليل نهار، لا تخرج إلى مكتبها ولا تقابل الزوار، نشرت إحدى زميلاتها القصة باسم مستعار، وهي قصة شائعة متكررة، الابنة غير الشرعية تخلصت منها أمها، تركتها أمام باب الجامع، التقطها رجل من الزبالين عاشت البنت داخل القمامة كالجرذان، قفز عليها الذكور منهم قبل أن يدركها الوعي، أصبحت أما وهي طفلة، أفزعتها الحقيقة إلى حد الموت، بإرادة ا ، أو بعود كبريت.

تماثلت جمالات للشفاء، نهضت من الفراش، مدت ذراعها تحت السرير وشدت الزجاجة من عنقها، أفرغت الكأس وراء الكأس في جوفها، خاطبت الرب حين غاب عنها الوعي، تسأله السؤال القائم منذ الأزل، ليه يا رب؟ ولا يأتيها الرد إلى الأبد.

في الليل تتقلب الفتاة في فراشها، في أحشائها شيء ينمو، لا تعرف ما هو، وكيف تسرب إلى أعماقها، تظنه

وهما مصنوعا من الخوف، أو ورما من الأورام الحميدة أو الخبيثة، تتذكر لقاءها الأول بسميح، كان ذلك في دار النشر في مصر الجديدة، تمتلئ الدار بفتيات من الهاويات الحالمات بالكتابة، والفتيات الهاوين الحالمين، يحدث النقاش في الندوات حول القصة والرواية، كانت الفتاة تسعى إلى المعرفة، لم يكن الحب هدفها بل زيادة الإدراك، ومن أجل الكتابة كانت تضحي بالجسد، يتضاءل جسدها إلى جانب إشباع العقل.

ما تصوره سميح شبق الحب لم يكن إلا شبق المعرفة، تلقي نفسها بين ذراعيه ليس لأنها امرأة، بل لأنها كاتبة، لم تكتب شيئًا في حياتها، ولا أحد يعرف أنها كاتبة، حتى هي لا تعرف، وإن عرفت فهي تخفي السر في أعماقها كالعورة.

ربما هو رستم، الذي كشف لأول مرة عن عورتها، قال لها وهو يحوطها بذراعيه، عقلك متقد مثل كارمن زوجتي، نحن نتعانق عناق الكاتب للكاتب، داخل عالمنا الخاص، عالم الكلمات، ترتفع فيه لذة الخيال على الواقع.

كانا يتعانقان حتى بلوغ القمة، تنحبس أنفاسهما عند الذروة، يتجمدان في الفراش دون حراك، يخشى كل منها أن تحرك أن ينطفئ الوهج، وكانت كارمن تقول، أنا ورستم تجمعنا علاقة مدمرة لنا نحن الاثنان، وأنا لن أهدأ حتى أدمره تماما، وأحوله إلى رواية من رواياتي، وهو بالمثل لن يهدأ حتى يدمرني.

كانت مباراة للتدمير من أجل ما يمكن أن يبقى، محاولة للبقاء بعد الموت، لم يكشف أحدهما السر، ربما كان هو الحب وليس الكتابة، أراد الاثنان إخفاءه تحت اسم الأدب، وإضفاء هدف نبيل للدخول معا في السرير.

كان رستم يعرف أنها تحب رجلاً آخر، وكارمن تعرف أنه يحب امرأة أخرى، تجاهل الاثنان مشاعر الغيرة أو الامتلاك تحت اسم الحرية أو التعددية، تتملكهما أحياناً غريزة الاستطلاع، يحاول كل منهما أن يعرف أسرار الآخر، ربما بدافع المعرفة وليس الغيرة، يريد رستم أن يعرف من أقدر منه على إقناع زوجته، وهي تريد أن تعرف من أقدر منها على إقناع زوجها، وكان إشباع الجسد أكثر سهولة من إشباع العقل.

كانت كارمن تقول: الكتابة شيء جميل لإخفاء أشياء قبيحة. في روايتها انتقمت من زوجها، جعلته مؤرقًا بالغيرة، يستأجر الجواسيس لمعرفة حياتها السرية، يطارد أي رجـل تحبه بمسدس مكتوم الصوت، وتقول مريم الشـاعرة: نحـن نكتب لنعبر عن الخرس في أعماقنا، نخاف اللامنطوق أكثر من الموت ولا نفكر في الانتحار إلا حين نعجز عن الكتابة.

تطوعت جمالات للتجسس على حياة رستم، كانـت تحب الكشف عن الجرائم الخفية، تجد فيها نوعا من السلوى وتقول: " خلق ا الخير والشر، وخلق الشيطان مـن أجـل الغواية والضلال، تضحك جمالات وهي ترشف النبيذ، وخلق ا الخمر من أجل سعادتنا يا عزيزتي، وإلا لمـا امـتلأت الجنة بأنهر من الخمر، اكتشفت جمالات قصص الحب فـي حياة رستم، بطلاتها من الفتيات المجهولات الاسم في عـالم الكتابة، تسعى الواحدة منهن إلى الشهرة من خـلال الحـب، يتنقل رستم من امرأة إلى امرأة كما ينتقل من روايـة إلـى رواية، يخلط بين الحلم والواقع، يقول في إحدى رواياته على لسان البطل، أنا رجل ينطوي على فحولة خمسين رجلاً، فهل أكتفي بأربع نساء؟

وتحكي جمالات عن المرحوم زوجها، ضبطته ذات ليلة فـي فراشها مع امرأة أخرى، لطمت خديها صارخة: في فراشـي وفي بيتي يا خائن؟ صوتها كان عاليا، قفز زوجها من فـوق المرأة، أغلق فمها بيده: ُأسكتي يا جمالات اسكتي وإلا سمعك الجيران! جيران إيه وزفت إيه يا راجل، صحيح الخيانة في دمكم، على رأي المثل، يا مآمنة للرجال يا مآمنة للمية فـي الغوربال، وتقول مريم الشاعرة حين تسمع الحكاية:لا يشـبع الرجال من ثلاثة، المال والسلطة والنساء، ولا تشبع النسـاء من ثلاثة، الألم والندم والعار.

* * * *

في برشلونة كان الربيع هو مهرجان الحب، جاءت أناجيـل إلى الفتاة في صباح مشرق وقالت: هنا رجل يحبـك اسـمه جوردي، رآك وأنت تمشين على الشاطئ، أتؤمنين بالحـب من أول نظرة؟ قالت الفتاة، الحب ليس له قانون عام، لكـل قصة قانونها، ولكل رواية أسلوبها الخاص، وقالت أناجيـل: جوردي شاب من عمرك، يحاول الكتابة مثلك دون جـدوى، يدق الطبلة في الرامبلا أمام المطاعم ويغني، تتطلـع إليـه

عيون النساء، يجذبهن الفن والفقر، كلاهما ساحر فـي عيـد الحب.

ـ وما هو عيد الحب يا أناجيل؟

هو عيد سان جوردي، كان شابا فقيرا حالمأ أنقـذ الأميـرة الجميلة من الغول، أو المارد المتوحش، الذي أحب الأميـرة وأراد افتراسها، لكن الشاب انتصر عليه، انتزع منه الأميرة، حملها فوق حصانه الأبيض، وطار بها إلى شاطئ الحب في برشلونة، أهداها في عيد زواجهما وردة حمراء، وهي أهدته كتابا، كانت الأميرة تعشق القراءة والكتابة، وأصبح الناس في برشلونة يحتفلون بعيد سان جوردي، يسمونه عيـد الحـب، يتبادلون الزهور الحمراء والكتب.

وأقبل جوردي يحمل إليها الوردة الحمراء، يشبه فتى أحلامها وهي طفلة تمشي على شاطئ النيل، قال لها: أنـا جـوردي وأنت؟ قالت: طفلتي اسمها نورية أخـذتها يولانـدا، وقـال جوردي: الأطفال في كل مكان يولدون ويموتون ويولـدون من جديد، أنت في غير حاجة إلى الولادة مثل الأرنبة، أنـت في حاجة إلى شيء آخر، هل حاولت الغناء أو الـرقص أو الكتابة.....؟

ـ الكتابة؟!

ترن الكلمة في أذنها فتصحو من النوم، تراه واقفًـا أمامها يكاد يشبه سميح أو رستم أو فرانسيسك أو اسم آخـر عالق بذاكرتها المنسية، يكاد يشبه كارمن ومريم وجمـالات، ملامحهم جميعا تذوب في الوجه الواحد، يجمع بين الرجولة والأنوثة، أمه من برشلونة وأبوه من طنجة، طويـل القامـة نحيف بشرته سمراء تشوبها حمرة، بلون الصخور الفاصـلة ما بين شمال إفريقيا وجنوب أسبانيا، عنـد مضـيق جبـل طارق، يتكلم العربية والكاتلانية، يدرس النقد المقـارن بـين الأدب العربي والأدب الكاتلاني، يشتغل في المساء في مطعم " موروكا كاتلانا " يقدم الوجبات المغربية والكاتلانيـة، فـي زقاق صغير متفرع من الرامبلا كاتالونيا، ويحدثها جـوردي عن ابن بطوطة، وابن رشد، عن أدب الأندلس، وعن روايته الأولى التي يكتبها، بدأت الفتاة تتقن اللغة الكاتلانيـة، وهـي أقرب إلى اللغة الفرنسية منها إلى اللغة الأسبانية، لأن فرنسا أقرب إلى كاتالونيا من مدريـد، يشـرق وجهـه الأسـمر بالابتسامة حين يراها، تذكر ابتسامة محمد الجرسـون فـي النادي، تقول له: أحب ابتسامتك يا جوردي، كلمة " سومري

" بالكتالانية تعني ابتسامة، قريبة من كلمة ابتسامة بالفرنسية " سوري "، أنت تعيد إلي الأمل في الحياة يا جوردي، كلمـة أمل بالكاتلانية هي " إسبرانسا " قريبـة مـن كلمـة أمـل بالفرنسية، وتحتفل برشلونة بعيد الأمل في نهاية أبريل، بعد انتهاء عيد الحب.

في الاحتفال بعيد الأمل تسير الفتاة مع جوردي على شاطئ برشلونة، الرجال والنساء والأطفال والشباب والعجائز يتمددون على الرمال تحت الشمس، أجسادهم عاريـة تلمـع برذاذ الماء، يتساوى الجميع بصرف النظر عـن العمـر أو اللون أو الجنسية، تمددت الفتاة فوق الرمل ترمقهم من بعيد، يمتلئ قلبها بالحزن الغامض، تبكي دون دموع علـى أمهـا الميتة، وأختها المحروقة في الحمام، وجارتها الملفوفة تحـت الخيمة السوداء، ثم تنهض فجأة، تنفض عن جسدها الرمال، تقذف بنفسها في البحر، تسبح مع جوردي داخـل العمـق، يحوطها بذراعيه تحت الماء يسألها عن الحزن في عينيهـا،، لا تعرف الرد على السؤال، ربما هو الحـزن القـديم منـذ الطفولة، وربما هو الحنين الجديد المتجدد، رغم الألم والحزن

يا جوردي، أحلم بالعودة إلى الأهل، وهل ينفصل الظفر عن اللحم؟

* * * *

كان جوردي يسبح أمامها، يضرب الماء بذراعيـه، يذكرها بسميح، الملامح تتشابه والحركة مع الرقة، يتسابقان تحت الماء مع مجموعة من الشباب والشـابات، يضـحكون ويلعبون مع الأمواج، يخرجون إلى الشاطئ ينفضـون رذاذ الماء تحت أشعة الشمس، يجلسـون فـي المطعـم يـأكلون الشرائح المشوية ونوع من السـمك اللذيـذ يعـيش بـين الصخور، اسمه " ليبورنا " وتعني السمكة المضيئة، تكسـبها الصخور مع الماء المالح قـوة ورشـاقة، يرشـفون النبيـذ الكاتلاني، اسمه كريستين ديسروش نوبل كورت، يتبـادلون الورود الحمراء والكتب والروايات، ويسأل جـوردي: مـا العلاقة بين الوردة الحمراء والكتاب في عيد الحـب؟ وهـل هناك علاقة بين الحب والكتاب؟

تتذكر الفتاة لقاءها الأول مع رستم، كان ذلك في دار النشر في مصر الجديدة، كان جالسا وحده يقرأ، شعره أسود غزير تتناثر فيه شعرات بيض، يسكبه الشيب المبكر نوعـا

من السحر، جذبتها إليه خطوته الحائرة بين رفوف الكتـب، كان شاردا حزينًا وحيدا، رأسه مطرق مثقل بالأفكار، لم يكن هو رستم عضو مجلس الشورى، ولا هـو الـزوج ورجـل الأعمال كان شخصا آخر ضمن أشخاص آخـرين يسـكنون جسده، بدا لها روحا محلقة بين الكتب والروايات، لم تملـك الشجاعة لتتحدث إليه، وهي فتاة مجهولة مغمورة بلا أب ولا أم.

لم يكن سميح مثل رستم، كان يفهمها أكثر، يعـرف أن في أعماقها حنين إلى شيء آخر أكبر من الحـب، لـيس الحب بين الرجال والنساءِ، شيء آخر في خيالها حبـيس لا يخرج إلى الواقع، ويقول لها سميح، أنت تبحثين من خـلال الحب عن نفسك، عن معنى الحياة، عن الحكمة الأبدية، عن "ا "، هذا البحث الطبيعي، يفعله كل إنسان وكـل إنسـانة، بوعي أو دون وعي، أنت لا تقعين في الحـب مـن أجـل الجنس، ولكنك تفعلين الجنس من أجل هدف آخر، ليس ولادة الأطفال، بل هدف آخر ربما يتعلق بالكتابة، أو...

ـ الكتابة؟!

ـ أو شيء آخر تعرفيه أكثر مني، لا يمكن لرجـل أن يملأ خيالك، أو يشبع عقلك أو حتى جسدك، ربمـا لهـذا السبب لا يمكن للحب أن يحولك إلى زوجـه أو جاريـة أو عبدة، أو أن يتخلى عنك المنطق، عقلك هو الشاطئ الأخيـر حيث ترسو عواطفك الجارفة، أنت عشـت الألـم والحـزن والفقر، تحاولين التعويض عن الحـب والحريـة بالكتابـة، تدخلين أي تجربة حتى الموت من أجل المعرفة، لا تخلصين إلا لعقلك، ولا تشعرين بالطمأنينة إلا مع نفسك.

ـ وأنت يا سميح؟

أنا أعطيك حنان الأم الغائبة، لا تشعرين معي إنـك في حاجة إلى سياج العقل ولا السلاح الذي تشهرينه في وجه رستم، أنت ترينني مثل الحصن تحتمين فيه من الوقوع فـي الحب، فأنا لست فتى أحلامك.

تطرق الفتاة في صمت طويل، كان رستم أقرب إلى فتى أحلامها من سميح، يتكون فتى الأحلام في حياة البنـات من قصص الأفلام، من القيم السائدة عن الذكورة والفحولـة، يتكون خيال البنت من الشبق أو الحنين لرجـل يغتصـبها،

تتراكم صور الخضوع في ذاكرتها منذ الطفولة كالمرض المزمن،

ـ لكني أحبك يا سميح، يمكن أن أعطيك كل شيء، أن أهبك حياتي كلها، فأموت من أجلك كما يموت الشهيد أو الشهيدة فداء ا والوطن،

ـ الحب ليس هو الموت فداء شيء آخر، نحن لا نموت حبا في ا أو الوطن بل خوفًا منهما، لا أحد يذهب إلى الحرب إلا تحت سلطة التجنيد، ولا أحد يذهب إلى الكنيسة أو الجامع إلا خوفًا من النار، لا يموت في الحروب إلا أبناء الفقراء، ولا تكتظ الكنائس والجوامع إلا بالعجائز والمرضى والمريضات.

في أعماقه كان سميح يتساءل، لماذا هي قادرة على الموت من أجلي وليست قادرة على أن تحبني؟ لماذا لا تشعر نحوي بالشبق؟ لماذا تتجه شهوتها إلى رجل آخر مثل رستم لا يعرف المبادئ ولا الأخلاق؟

وتقول الفتاة لنفسها، عاطفتي لسميح أقوى من العواطف الأخرى كلها، ربما لأنها تتعلق بشيء آخر غير

الجنس، ربما بالروح، الأسمى من الجسد، أو هي الجسد في التحامه بالروح.

وكانت كارمن هي المرأة التي أحبها رستم، ولم يكن هو الرجل الذي تحبه، كانت مشغولة برجل آخر لا تكاد تعرفه، وفي أغوار نفسها مشاغل أخرى تصرفها عن الجنس والحمل والولادة، لم تكن الأمومة في نظرها غريزة بل قانون مفروض، وكان لديها غريزة أخرى ضرورية، تدفعها إلى البعد عن زوجها، غريزة تجبرها على أن تعيش وحدها، أن تفكر بعقلها، أن تتطلع نحو الكتابة بشهرة تفوق الشهوات الأخرى.

في خياله كان رستم يتخيلها في الفراش مع الرجال الآخرين، لم تكن مدربة على إثارة شهوة الذكور، كانت أقرب إلى الفتاة العذراء، لا تفقد عذريتها وإن تعددت تجاربها مع الرجال، أو مع النساء، تخرج من كل تجربة بمزيد من خيبة الأمل مع الصداع، عجز الأطباء عن شفائها من الصداع المزمن، والاكتئاب الذي تستسلم له كأنه الحب، أصبحت أدراج مكتبها مملوءة بزجاجات الأدوية، وأدراج الدولاب، والمنضدة بجوار سريرها أصبحت الأقراص

المانعة للصداع والمضادة للاكتئات تحوطهـا مثـل الكتـل والأوراق والأقلام، تحتمي فيها مـن ضـجيج الأصـوات، وعناوين الصحف، والزحام وصراخ الأطفال، تجلـس وراء نافذتها المغلقة بالزجاج المزدوج، تطل على المدينة من بعيد، ترى الناس دون أن يراها أحد، تعـاني الوحـدة، تعشـقها وتكرهها في آن واحد، تنفر من الناس ويستبد بهـا الحنـين إليهم، تنادي في الليل على رستم، فيأتي إليها، مـا أن تـراه حتى تبتعد وتقول: آه ليس أنت، وإن جاءها الشخص الآخـر تقول، ليس أنت، تبكي وحدها لأنها وحيدة، تبحث عن الحب دون جدوى، تبدو لغزا لكل من يعرفها، مثل الحيـاة، مثـل الموت، مثل كل شيء غائب وحاضر، يقول عنها رستم، هي رمز لكل شيء صعب المنال، هي رمز لشيء بعيـدا جـدا كالنجم في السماء، لا يمكن امتلاكها، وكلمـا ازدادت بعـدا فازداد الشوق إليها حتى الموت.

وكتبت كارمن في إحدى رواياتها على لسان البطلـة تقول: الموت في الحب ليس إلا حالة من الحب، والحب ليس إلا رمزا لشيء آخر، ومن الغباء أن يموت الإنسان من أجل الرمز.

وكانت كلمة الرمز مقدسة، فهي ترمز إلى كل ما يعبده الناس من المهد حتى اللحد، إلى كل ما يحفظه الأطفال عن ظهر قلب، وما ينشدونه في طوابير المدرسة كل صباح، ا والوطن والملك، وقد تم حذف كلمة الملك بعد سقوط الملكية، وحل مكانها كلمة أخرى هي الرئيس، دائما كان هناك فرد مقدس.

وكان موسم الانتخابات على الأبواب، لم تهدأ حكاية الابن غير الشرعي حتى المتنافسون في مجلس الشورى ينقبون عن فضائح أخرى، عثر بعضهم على نسخة من الرواية بخط زوجته كارمن، توقفت عيونهم عند العبارة الأخيرة: " من الغباء أن يموت الإنسان من أجل الرمز" في اليوم التالي ظهرت المنشورات والملصقات فوق الجدران في الشوارع، أصبحت الزوجة متهمة بالعداء للرمز المقدس، وانتقلت التهمة إلى زوجها، فهو المسئول عن زوجته، وكل راع مسئول عن رعيته، أصبح رستم عدو ا والوطن والسلطة.

دب العراك بين رستم وكارمن في البيت، يضـرب الهواء بقبضة يده غاضبا، أنت السبب في كل المشاكل، أنت السبب في فشلي في كل حاجة، في السياسة والأدب والكتابة.

في أعماقه جرح عميق لا يلتئم، جرح قديم مزمن لا يعرف متى بدأ، منذ أول لقاء أصابه السهم، والألم في صدره بدأ كالإبرة تنخس، لا يهدأ الألم حتى يراها تبتسم في وجهه، وتعرف أنها تحبه، لم تكن تعترف وتسأله يعني إيه الحـب؟ يرد برسالة يكتبها إليها، يصف لها خفقان قلبه، تسأله عمـا يعني بالقلب؟ وهل ينفصل عن الجسد والعقل؟ يرد في رسالة أخرى يسألها ماذا تعني، وتقـول كـارمن: كلنـا مرضـى بالانفصام بين الجسد والقلب والعقل والروح، ويدور الحوار بينهما من ليلة الزفاف حتى الموت، لا شيء يشـفيهما مـن المرض إلا كلمة الحب، مع رشفات النبيذ في الشرفة المطلة على النيل، كان رستم حائرا بين العقل والوجـدان، يـؤمن بوجود روح خالقة ليس لها جسد، وكانت كـارمن تـرى أن الكون تطور عبر ملايين السنين، على شكل الدائرة ولـيس الخط المستقيم، ويقول رستم في البدء كانت الكلمـة، تسـأله كارمن أي كلمة؟ يقول كلمة ا ، يعترف وهو بين ذراعيهـا

أن الفكرة لم تدخل عقله ولكنها دخلت وجدانه العميق منذ الطفولة، تسأله كارمن عما يعني بالوجدان؟ يتحير رستم قليلاً ثم يقول، الوجدان هو الشعور أو اللاشعور، حيث تسكن الروح جسد الطفل وتنمو معه من المهد لتفارقه بالموت يذوب الخلاف بينهما في الفراش مع العناق، يلتحم الجسدان في جسد واحد، تصبح الكلمات بلا معنى، وتهمس كارمن عند بلوغ القمة، في البدء كان الجسد وليست الكلمة يا رستم، أعني الجسد الكلي ويشمل العقل والروح والقلب والوجدان والنخاع والعظام، ويكون رستم قد أعياه الجهد وراح في النوم العميق.

وقالت كارمن للفتاة حين زارتها في المستشفى النفسي، ما جدوى أن يربطوني بالحبال في أعمدة السرير؟ ما جدوى أن يحبسون روايتي في الدولاب، المغلق بالضبة والمفتاح؟

كانت كارمن راقدة في الغرفة رقم ١٤٣٨، بعد أن سلط الأطباء على عقلها التيار الكهربي، لم تفقد الذاكرة رغم قوة الكهرباء، تعرفت على وجهها في ملامح الفتاة، تشبه ابنتها الغائبة من الذاكرة، ولدتها في مكان وزمان لا تدري

عنهما شيئًا، راقدة وحدها فـي الغرفـة المغلقـة الأبـواب بالقضبان الحديدية، تشبه الزنزانة في السـجن، علـى رأس السرير تتدلى ورقة مكتوب عليها اسم المرض، زارتها الفتاة في وقت متأخر من الليل، بدت المستشفى جسدا أبيض راقدا في الفراغ، المرضى نائمون غائبون عن الوعي، مخـدرون بالسم المحقون في الدم، أو التيار المسلط على الدماغ، يبـدو المكان مهجورا والزمن منتهيا، المبنى كله غارق في غيبوبة النوم أو الموت، مرضي ومريضات، أطباء وممرضات، إلا هي كارمن كانت واعية صاحية تنتظر الفتاة، لم يعـد أحـد يزورها إلا الفتاة، ملامحها تشبه طفلة رأتها في الحلم، أو في المرآة وهي طفلة صغيرة، كانت راقدة مربوطة بالحبال، إلى جوارها فوق المنضدة علبـة الأدويـة والحبـوب المنومـة والأقراص المضادة للاكتئاب، وإبريق الماء وصحون طعام، وكل ما يحتاجه الإنسان إلا الورقة والقلـم، وفـوق جبينهـا المكتوب قبل أن تولد، قرار الاتهام والإدانة.

لم يعد في إمكانها أن تنام رغم المنومات، تسرق من الليل ساعة أو نصف ساعة، ثم تفتح عينيها المفتوحتين منـذ الولادة، وتبقى شاردة في الأفق حتى تظهر نجمة الصـباح،

يصبح النهار طويلاً كالعبء تحمله وتمشي به، رغـم أنهـا راقدة في السرير، تركب سيارتها الفيات الصغيرة وتجول بها في شوارع المدينة، إلى جوارها تجلس الفتاة، يختلسان مـن وراء المزمن ساعة أو نصف ساعة، يغار زوجها من الفتـاة كأنما هي العشيق السـري، أو الورقـة والقلـم والصـفحة البيضاء، يتقرب إليها بأمل إبعادها عن الكتابة، دون جدوى، ظلت الرواية تطاردها حتى الموت، وكانـت الغرفـة فـي المستشفى مظلمة، صف طويل من الغرف المغلقة، أبوابهـا من الخشب المطلي باللون الأبيض، كل شيء في المستشـفى أبيض حتى الكفن، وأعمـدة السـرير والأروقـة، والأنـين المسموع وراء الجدران، وكعوب أحذية الأطباء فوق البلاط، وجاء رستم في زيارة بوجه كالملاك ثم تلاشى تحت الضوء مثل سحابة الصيف، وقالت كارمن للفتـاة وهـي مربوطـة بالحبال: افتحي الدولاب واقرئي الرواية، إن الكتابة تمـرين منذ الولادة حتى الموت، وتدريب على النطق دون خـوف، وهذا مستحيل لأننا نعيش ونموت في خوف، النار الحارقـة والكهرباء الصاعقة والأقراص المانعة للاكتئاب.

وتواصل كارمن الكلام، لا خلاص ولا أمل إلا بالكتابة، ترى الفتاة في عينيها الدموع، لم تهزمها إلا دموعها، تبقى إلى جوارها متجمدة داخل السكون، إن مدت يدها لتلامسها تنتفض وتصحو من الغيبوبة، تبتسم في وجهها فتدرك أنها ابنتها الضائعة منها، تريد أن تطلق سراحها من أكذوبة الحب، كأنما في يدها أن تطلق سراحها، وفي يدها مفتاح سجنها.

لعبة الحب كانت ترهق رستم، مثل لعبة الكتابة والانتخابات، كان يقول: الثلاثة تنقصها الأمانة وصدق النوايا، أقبح ما في الثلاثة أو وجوه اللاعبين تنم عن الجد والرصانة، يتشدقون بكلمات فخمة مفخخة بالعدل والحرية، يتناثر لعابهم في الجو من شدة ما يضغطون على الألفاظ، يستعيرون من كتب ا ما يشاءون ويتركون ما يشاءون، كلهم ضحايا وآثمون، رجال ونساء إلا زوجته، الوحيدة دون العالمين يحبها، بعد أن يغرقها في الحب يسرع إلى نساء أخريات، كأنما الخيانة ليست إلا تأكيدا للحب، يريد أن يشرب كئوس العالم ليعود إلى كأسه المفضل، وهي تكتب عنه روايتها، تناديه باسم رجل آخر، تخلقه بشكل آخر يروقها، لم

تجذبها ملامحه الحقيقية، ولا رواياته المجلدة بأغلفة براقـة، ولا صورته، المنشورة على الناس، تحاول يركع بين يـديها كأنما يصلي، يطلب الرحمة والمغفرة، كالطفل البـاكي بـين ذراعي أمه، أو العبد المؤمن بين يدي الإله المعبـود، وفـي الصباح تفتح عينيها لتجده بين ذراعيها، تنفرج شـفتاه عـن ابتسامة حين يراها، ابتسامة خاصة به وحده، لا تشبه ابتسامة أي رجل آخر، تدرك عن يقين أنها تحبه، لن تحـب أحـدا غيره، تريد منه أن يرتدي ملابسه ويخرج دون عودة.

وقال رستم للفتاة ذات يوم: أنت وكارمن نقيضـتان، لا شيء يجمعكما إلا جنون الكتابة، لا يتسع فراش الواحـدة منكما لرجل أو نصف رجل، فالمساحة كلها مشغولة بأوراق الرواية، والأقلام المقصوفة والدموع الجافة، تحتضـن كـل واحدة منكما روايتها وهي نائمة كأنما رجل تعشقه، تريد أن تلتهمه حتى النخاع، لتلد منه طفلها ثـم تلقيـه بعيـدا مثـل مصاصة قصب.

لم تكن مريم الشاعرة مثل زوجته، يشعر الرجال في حضورها أنها لا تشبه النساء، لا تنطبـق عليهـا مقـاييس الأشياء، لا يمكن لرجل أن يملكها وإن كانت بين ذراعيه، لم

تكن زوجة ولا عشيقة ولا حبيبة ولا عـاهرة ولا فاضـلة، كانت مريم الشاعرة، وما هو غير ذلك، كانـت المسـتحيل والسراب الذي يجري وراءه الرجال والنسـاء، دون جـدة، كانت قادرة على الاستغناء عن كل ما يقود إلى الفناء مثـل الخنساء، أو الشاعرة الزباء، تردد أبياتها بعـد أن اختـارت الزباء الشعر بدلاً من أملاك الأرض وخزائن الخلق:

أمن بعد أن أمسي وأصبح حرة
وليس علي للرجال يدان
أصير لزوج مملوكة له
لعيش بضر أو بضنك وحاجة
مع العز خير من صروف لسان

وشاعرة أخرى، هي عائشة القرطبية، قالت لرجـل يريدها ولا تريده:

أنا لبوة لكنني لا أرتضي
نفسي مناخًا طول دهري من أحد
ولو أنني أختار ذلك لم أجب
كلبا وكم غلقت سمعي عن أسد

كانت الشاعرة تقول عن نفسها اللبوة التي لا تقبل إلا بالأسد، وهي أكثر من ذلك، لأنها لا ترضى أيضا بالأسود.

عائشة القرطبية كانت من قرطبة، جرت في عروقها دماء عربية وأسبانية، عاشـت الحريـة وكتبـت الشـعر، والشاعرة عفيرة الشموس، اغتصـبها عمليـق الطـاغوت، خرجت إلى الناس تسب الرجال دون الإحساس بالعار:

أيجمل ما يؤتى إلى فتياتكم

وأنتم يا رجال فيكمو عدد النمل

ولو أننا كنا رجالاً وكنتمو

نساء لكنا لا نقر بذا الفعل

فموتوا كراما أو أميتوا عدوكم

ودبوا لنار الرب بالحطب الجزل

فللبين خير من تماد على أذى

ولا موت خير من مقام على ذل

فبعدا وسحقًا للذي ليس دافعا

ويختال يمشي بيننا مشية الفحل

وتنشد مريم الشاعرة أبيات الخنساء، التـي تـرفض الزواج من رجل يقولون عنه سيد العرب، وهي تراه غيـر ذالك:

معاذ ا   ينكحني حيركي

قصر الشبر من جشم بن بكر

ولو أصبحت في جشم هديا

إذًا أصبحت في دنس وفقر

والشاعرة هند أم الخليفة معاوية، شاركت في حروب قريش ضد النبي محمد، وبقرت بطن حمزة:

شفيت من حمزة نفسي بأحد

حتى بقرت بطنه عن الكبد

والشاعرة ليلى الأخيلية فرضوا عليها الـزواج مـن رجل لا تريده فاستمرت على حبها للرجل الآخـر واسـمه توبة، تلتقي به في العلن وليس الخفاء وتكتـب لـه أبيـات شعرها، كانوا يرونه رجلاً قبيحا وهي تراه أجمل البشر:

لو رأيت توبة بأم عينيك لتمنيت

أن تحمل منه كل امرأة في بيتك طفلاً

وسألها الخليفة عبد الملك بن مروان، ما رأي توبـة فيك حين هويك؟ قالت، ما رآه الناس فيك حين ولوك.

والشاعرة أم الورد التي سخرت من زوجها وقالـت، وا   لا يمسكني بضم، ولا بتقبيل ولا بشم.

والشاعرة رابعة العدوية، اغتصبوها وهي طفلة فـي سوق الإماء، فهجرت الرجال وأجسادهم، وعاشت مع الشعر وحبها لرمز العدل، أو ا :

قد هجرت الخلق جمعا أرتجي
منك وصلاً فهو أقصى منيتي.

تتألق مريم الشاعرة وهي تنشد أبياتها، وأبيات غيرها من الشاعرات، يشرئب عنقها الطويل وهـي واقفـة خلـف الميكرفون، تتألق تحت الأضواء، يضمر لها الرجال والنساء الكراهية والإعجاب، يرمقونها بحسـد، عيناهـا تتجـاوزان رءوسهم، ترتفع فوق الأنوثة والـذكورة وحديـد الأشـياء، يقولون عنها مزدوجة الجنس متعددة الهوايات، يفتشون فـي حياتها عن شيء يخدش الحياء أو فضيحة تمـس الكبريـاء يغتابونها من خلف ظهرها، يكيلون الثناء في حضـورها، لا

تهتم بالمديح أو الهجاء، تستمد قيمتها من نفسها، ولا يعـرف رأسها الانحناء.

* * * *

فوق رمال الصحراء في ليلة دافئة، قال رستم للفتاة وهي بين ذراعيه، عاوز أعترف لك بشيء لم أعتـرف بـه لنفسي، لم تر في عينيه مثل هذه الدموع، قلبه كان ينوء بإثم ثقيل، في العاشرة من عمره كان راقدا فـي السـرير، إلـى جواره خالته، زوجها كان في السجن بتهمة قلب نظام الحكم بالقوة والعنف، لم يحمل زوجها في حياته آلة قتل، كان يحمل القلم ويكتب قصائد شعر، أحد أبياته قال فيه، نحن شعبه من العبيد، نسعى وراء لقمة الخبز، في ظل صـاحب الجلالـة، الجالس فوق العرش مدى الحياة، همست خالته في أذنه، أنت جميل يا رستم، لم تكن أمه موجودة بالبيت، قال أبـوه أنهـا تركته من أجل رجل آخر، وقالت خالتـه أن العكـس هـو الصحيح، طلق أبوه أمه بسبب امرأة أخرى، لم يعرف رستم الحقيقة وهو طفل، تحوطه خالته بذراعيها الحانيتين، يبكـي فوق صدرها على أمه الغائبة، وهي تبكي فوق صدره علـى زوجها المحبوس، تمسح دموعه بشفتيها وهي تقبلـه فـوق

خديه، تهبط شفتاها إلى فمه تلثمه وتهمس، أنت جميـل يـا رستم، ينام فوق صدرها وهـي تهدهـده، يغمـض عينيـه متظاهرا بالنوم، مستسلما لذراعيها، مستشعرا لـذة تلامـس الجسد بالجسد، يدرك على نحو غامض أنها من جنس آخر، ربما هي الأنثى وهو الذكر، ربما تكو اللذة آثمة عقابها النار بعد الموت، لم تكن فكرة الموت تطرأ له وهو طفل، فما بال وجود نار بعد الموت، ينام في حضنها حتى الصباح، تعد له الفطور واللبن الحليب، يشربه وهو مطرق الرأس، لا يقـوى على النظر في عينيها، يراها الشيطان الذي أخرج آدم مـن الجنة، في الليل تبدو له كالملاك الطاهر، تسري الحرارة من جسدها إليه، تهمس في أذنه، أنت جميل وا يحب الجمـال، تقترن اللذة بالجمال بالحب وخالته، ماتت بعد عام واحد مـن موت زوجها في السجن، ارتدت ملابس الحداد السوداء، بدت له امرأة غريبة لا يعرفها، لم تعد تحوطه بذراعيها في الليل، ولم يعد يشعر باللذة مع امرأة غيرها، يستعيدها بعد موتهـا عن طريق الخيال، كانت حبـه الأول والأخيـر، انحفـرت صورتها في وجدانه، مع صوتها الهامس في أذنه:

ـ وأنت ما ذكريات طفولتك؟

ـ لم تكن لي طفولة.

ـ انت محظوظة.

ـ ليه؟

ـ ليس عندك ذكرى مؤلمة تشوه لذة الحب، والرجل في حياتك إنسان من البشر، لكن المرأة في حيـاتي مجـرد وسيلة لاستعادة لذة قديمة في الطفولة.

ـ غياب الطفولة يعني غياب الجذور، يعني شـجرة معلقة في الهواء تذروها الرياح.

ـ أوهووه أنت من تلميذات سيجموند فرويد؟ الطفولة ليست كل شيء، أعظم المبدعين في العالم لم تكن لهم طفولة، لم تكن لهم أسـرة، لا أب ولا أم ولا شـيء، تنشـأ الإرادة الإبداعية من الحرمان وليس من الشبع، أنا أعاني من الشبع وفقر الروح.

يدور الحوار بينهما داخل حلقة مفرغة، ينتهي دائمـا بكلمة غامضة، مثل الروح، تحس به بعيـدا عنهـا، رغـم وجوده معها في الفراش، كأنما هو روح بغير جسـد، غيـر قابل للإمساك به، وإن مدت ذراعها وأمسكت به يظل بعيـدا عنها، يزيد البعد من شوقها إليه، تتأجج شهوتها لجسده حـين

لا يكون جسدا، تفكر في هذا التناقض وهي بـين ذراعيـه، تريد أن تعيش الحب دون أن تفكر، تريد أن ينفصل عقلهـا عن جسدها دون جدوى، ربما كانت تنشد امتلاكه من خـلال الحب، أو تنشد تحرير نفسها من فكـرة الامـتلاك، رغـم استحالة الشيء، أصبح رستم في حياتها ضرورة لا تستطيع الاستغناء عنه، رغم ضرورة الاستغناء، تضعف إرادتها مع كل قطيعة وابتعاد، تعود إليه أكثر خضوعا وأكثر حبا، وأكثر غضبا منه ومن نفسها، وأكثر كراهية له ولنفسها.

وقالت جمالات، هذا الحب مـريض يـا عزيزتـي، اخلعي هذا الرسم من حياتك، اخلعيه كما تخلعـين الحـذاء، اجعليه حذاء في قدمك ليجري وراءك، ولا تجعليه تاجا فوق رأسك ليلوي عنقك.

إن جاءها صوته عبر أسلاك التليفون تتلاشى نصائح جمالات في الفضاء، مثل أوراق الشجر في الخريف تذروها الرياح، ويعود إليها صوت مريم الشاعرة، لحظة الحب فـي ضوء القمر تساوي ألف عام، وفي المستشفى النفسي تقـول لها كارمن، الحب مثل الحياة لا يعرف إلا اليـأس وينتهـي بالموت، وتعارضها مريم، الحب مثل الحيـاة لا يعـرف إلا

الأمل، ولا يكف عن ولادة الحياة من جديد، لم تكن كـارمن تطيق كلمة الولادة، تقول، النساء يفكرن في الـولادة طـول الوقت، أعني ولادة الأطفال، تخاف الواحد منهن كلمة عاقر كالموت، وأخطر منها كلمة عـانس، تجـري النسـاء وراء الرجال ليس بسبب الحب، ولكن من شدة الخوف، لـيس لـه علاج إلا.........

وتطبق كارمن شفتيها في إعياء، تتعلق بهمـا عينـا الفتاة، قلبها يدق تحت ضلوعها، تلهث وهـي جالسـة إلـى جوارها، المستشفى غارق في الظلمة والصمت، الكون كلـه نائم إلا هي جالسة في مقعدها، وكارمن راقدة في سـريرها، يأتيها صوتها كأنما من أفق بعيد، كأنما تمسك روحها بيدها، وتحلق بها فوق المدينة، تنفرج شفتاها عن صـوت تهـامس كمن تتكلم في النوم، تخشى إن رفعت صوتها أن تصحو.

ـ إلا إيه يا كارمن؟

ويأتيها الرد بصوت لا يشبه صوت كارمن قبـل أن تدخل المستشفى، قبل أن يسلطوا على رأسها تيار الكهرباء:

ـ إلا الكتابة يا ابنتي.

ترن كلمة ابنتي في أذنيها، أول مرة تسمعها بصوت كارمن، صوتها أصبح ضعيفًا خائرا، مثل صوت امرأة مكسورة الجناح، زوجة مهجورة أو أم مكلومة ليست هي كارمن التي عرفتها.

كانت الفتاة حائرة، يدور السؤال في رأسها، هل تختلف أحزان المرأة عن أحزان الكاتبة؟ ويسألها رستم وهل تختلف أحزان الرجل عن أحزان الكاتب؟

تلجأ الفتاة إلى سميح، يقول لها، الكتابة ترفع الرجل عما يسمى الرجولة، وترفع المرأة عما يسمى الأنوثة، الكتابة ترفع الإنسان إلى مستوى أعلى من الفروق القائمة بيننا.

وتقول مريم الشاعرة: تضحي النساء بالكتابة من أجل الرجل، وبالحرية من أجل الحب، منتهى الغباء.

كلمات مريم ترفع الفتاة إلى أفق جديد، كأنما تمسك روحها بيدها وتحلق بها فوق السحب، تسبقها في التحليق فوق قمم الأهرامات، ثم تتركها خلفها تتخبط بين السماء والأرض، معلقة في الفضاء مثل السؤال المعلق في رأسها، هل أحب رستم خالته ولم يحب امرأة غيرها؟ كان يقول عنها أجمل امرأة، لم يعرف امرأة أرق منها، لم يكن ما فعلته إثما،

بل الحب النادر أكبر من حب الأم، تعيده إليها لتلـده مـرة أخرى أكثر تجددا.

تنهشها الغيرة من خالته الميتة، غريمتها ليست امرأة لها جسد بل خيالاً أو صورة يحلم بها رستم في الليل، فهـل يمكن لها أن تنافس خيالاً أو صورة تعيش في ذاكرته مثـل الروح؟ وتقول جمالات، أنت مجنونة ومكانك المستشفى مـع كرامن، ويقول سميح، الكتابة مثل الحـب تنبـع مـن قمـة الجنون، لكن مريم الشاعرة تقول، الكتابة مثل الحرية تنبـع من قمة العقل.

* * * *

كان يوما من شهر أغسطس، أسفلت الشـارع يلـين تحت حذائها من شدة الحرارة، التراب يتصاعد إلى أنفها مع رائحة المجاري وزيت يقلي على النار، الزحام شديد، وجوه شاحبة مبللة بالعرق مثقلة بالحزن، نظرات غاضبة مكتومـة تختفي تحت غطاء أملس ساكن مثل سطح البركـان، رءوس النساء ملفوفة بحجاب أبيض أو أسود، أو متعـدد الألـوان، عيونهم مطرقة إلى الأرض، خطوتهم ثقيلة بطيئة، السيارات تتسابق وأصوات الأبواق تزعق مع أصوات الميكروفونـات

وصراخ الأطفال، وعويل النسوة وراء نعش ميت، الشمس عمودية ترسل لهبا، الرطوبة بلغت ذروتها وضاعفت الحرارة.

توقفت الفتاة لتمسح العرق عن وجهها بمنديل من الورق، لمحت في هذه اللحظة رأس رستم داخل السيارة المرسيدس، شعره الأسود الغزير تتخلله الشعرات البيض، بشرته الملوحة بالشمس، يداه فوق عجلة القيادة تتحركان بثقة وثبات، إلى جواره امرأة شعرها أبيض، ينظر إليها ويداه فوق عجلة القيادة، في عينيه ابتسامة لم ترها أبدا، سألته عنها حين التقت به في الليل، أنكر أول الأمر، ثم اعترف أنها صديقة له منذ سنين طويلة، تجمعه بها علاقة خاصة، وقال خاصة جدا.

بصوتها الخائر في المستشفى كانت كارمن تقول، رستم كان يعيش أسيرا للماضي، مثلي، كنت حبيسة الخيال الذي يعجز الواقع عن بلوغه، أحاول عن طريق الكتابة أن أسد الهوة بين الخيال والحقيقة، دون جدوى، ما أن أنتهي من كتابة رواية حتى أبدا رواية أخرى، كأنما الكتابة محاولة لتحرير الجسد من قبضة الروح.

- الروح؟!

- أحاول البحث عن كلمة أخرى غير الـروح، لأن الكلمات القديمة لم تعد صالحة، الماضي حقيقة ميتة، نحـاول إحياءها بالخيال عن طريق الكتابة، وكان رستم يخلط دائمـا بين الأشياء، مثلي تماما، نحن نتوارى خلف الكتابة لنفعل ما نشاء، لنعيش الحرية بصرف النظر عن الأخلاق.

- وما هي الأخلاق؟

- الوفاء بالوعد أو الإخلاص في الحب، لأن الحب لا يخلص إلا للحب، والصدق لا يخلص إلا للصدق حتى في الخيال.

تطرق الفتاة برأسها في صمت طويل، تفكر في هذه الكلمة الصدق؟ لم تعرف في حياتها الصدق، لم تحب رسـتم ولا سميح، في خيالها رجل من مادة أخرى غير الجسد وغير الروح، تتفادى كلمة الصدق في روايتها، ربما لأنها ليسـت كاتبة مثل كارمن، ولا شاعرة مثل مريم، ولم تقرأ كلمـة ا كما قرأتها جمالات، لا تستطيع أن تخلق من خيالهـا قصـة حب لم تحدث، تبدو أنها قصص الحب من وحـي الخيـال المصنوع بأوهام الطفولة.

كان سميح يبعث في نفسها الطمأنينة، تلجأ إليه حين يستبد بها الوهم، حين يشتد حنينها إلى رستم تسعى إلى سميح، يعرف أنها لا تقصده هو بالذات، ليس هو الوحيد في حياتها، وليست هي الوحيدة في حياته.

الشمس غربت في ليلة صيف رقيقة، والفتاة تمشي على الشاطئ في جاردن سيتي لمحت الضوء في غرفة رستم المطلة على النيل، ترددت لحظة، هل تسير إلى بيته وتدق الجرس؟ تخيلته جالسا يكتب، أو شاردا يرشف النبيذ وحده، توقفت عند الباب، ارتفعت يدها نحو الجرس ثم هبطت، الأفضل أن تستدير وتعود من حيث أتت، كان سميح في معرض الكتاب في دمشق، وكارمن في المؤتمر الأدبي في نيويورك، يبدو الحي خاليا من سكانه، يهربون من الحر إلى الساحل الشمالي، أو شواطئ البحر جنوب أوروبا. جمالات كانت تقضي الصيف مع أختها في رأس البر، تصبح الشقة لها وحدها، تأخذ حماما بالماء الساخن وتتمدد في سريرها، تغمرها لذة الوحدة، تشعر برغبة في شيء غامض، تمتد يدها إلى القلم، ترسم فوق الورقة وجها بلا ملامح، وأشكالاً لا معنى لها.

وهي جالسة ممسكة بالقلم سمعت دقة الجرس، دخل رستم يرتدي قميصا أبيض ناصع البياض، جدران الشقة بدت داكنة سوداء، في يده وردة حمراء وكتاب غلافه أزرق، كان عائدا لتوه من شاطئ البحر، بشرته ملوحة بالشمس، صـوته متحشرج قليلاً كأنما أفرط في شرب النبيذ، وحرقته الشـمس مع مياه البحر المالح، كلماته تتلعثم على لسـانه، ثـم قـال بصوت قاطع:

ـ عاوز أقولك كلمة أخيرة.

اخترقت كلمة أخيرة أذنها مثل شفرة الموس، بـدت الصالة ضيقة مكتومة الهواء، جدرانها كالحة مبقعة، المقاعد مهترئة، برزت أسلاكها من القماش الأصفر الباهت، قميص نومها مكرمش أكمامه ممزقة، تفضح فقرها، نامت فيه وبكت أكثر من ليلة، ربما تفوح منه رائحة عرق ودموع، لم يكـن عندها وقت لترتدي شيئًا آخر، فوق المنضدة ورقة بيضـاء مرسوم عليها نغبشة وحروف مبتورة، تفضح عجزها عـن الكتابة.

هرب الدم من وجهها وهي جالسـة، تتلقـى كلمتـه الأخيرة مثل مطرقة، تضرب رأسها ضربة واحدة، ويـدب

الصمت، لم تسمع إلا خرير ماء يتساقط من الصنبور البـالي فوق بلاط الحمام، ومن شـارع المبتـديان جـاء صـوت ميكروفون حاد، ثم عاد الصمت ثقيلاً، هي جالسة وهو إلـى جوارها جالس داخل الجدران الأربعة، كأنما يضمهما سـجن واحد.

الصالة والشقة كلها تنتمي إلى جمالات، تحلق روحها عليهما من السقف والجدران، باب غرفتها مفتوح، سـريرها عريض يعلوه لحاف أحمر لامع، فوق نافذتها ستارة سـميكة رمادية بلون حجابها، ثلاثة أحذية تحت السـرير، كعوبهـا عالية رفيعة مدببة، حذاء منها مقلوب فـوق وجهـه، كعبـه مكسور، التسريحة بجوار النافذة، فوقها باروكة شعر ومكحلة وأصابع روج وعلب بودرة وقلم حواجب وزجاجات عطـر، عود بخور منطفئ عند المنتصف، وفنجـان قهـوة رشـفت نصفه قبل أن تخرج، وتركته فوق المنضدة، مرسـوم علـى حافته شفتيها الحمراوتين.

غمرها الحنين إليها وهي جالسة صامتة، بدأ رسـتم داخل المكان الأليف رجلاً غريبا، لا ينتمي إليها ولا تنتمـي إليه، من جنس آخر وزمان آخر أو ربما من كوكب آخر.

لأول مرة تشعر أن جمالات أقرب إليها من رستم، تلفهما عاطفة حقيقية، كالأم وابنتها، ورستم مجرد طيف، يظهر ويختفي، ولا يمنحها إلا الخيال.

اقترب منها وأمسك يده في يدها، حوطها بذراعيه، تركت له جسدها مثل وسادة يضع عليها رأسه وينام، لم تشعر بشيء إلا أن الجسد شيء لا تملكه مصنوع من الوهم، وتذكرت كارمن، كانت تراقبهما من بعيد، استأجرت جاسوسا يتبع زوجها أينما يذهب، يرقبهما من منظار في السقف له عدسة سحرية، كان يعانقها وهي تفكر في كارمن، يصرفها التفكير عن الإحساس باللحظة الحاضرة، صوته مشروخ متحشرج تخنقه دموع، كلماته مبتورة،

- أخيرا... فكرت.. الحل الوحيد... نقطع العلاقة.. تمادينا فيها.... أكثر من اللازم....... دي كلمتي الأخيرة.......... الأخيرة........

كلمة الأخيرة مثل السوط يضرب به وجهها المرة بعد المرة، تتلقى الضربات بشيء من الألم لا يخلو من اللذة، تدرك عن يقين أنها لن تكون الأخيرة، وإن ردها مئات المرات آلاف المرات لن تكون بالأخيرة، وتهمس بصوت

غير مسموع: أنت تتلاعب بالكلمـات لتنـال مـا تشـتهي، ويغمرها بقبلات محمومة، فوق رأسها وشـعرها وعنقهـا، يزحف بشفتيه الساخنتين فوق جسدها، والدموع في عينيـه، مسحتها بكف يدها، قبلته بحنان الأم، ابتعد عنها وهو يساوي شعره ويعدل قميصه الأبيض.

ـ آسف، أنا مجنون، وأنتي عاقلة جدا، عاقلة زيادة عن اللزوم، أنتي كاتبة فعلاً.

وقال لنفسه بلا صوت: هي باردة مثل كـارمن، أو فاترة، كانت المرة الأولى يقبلها فوق الشـفتين، ربمـا هـو الخجل مثل العذراوات، أو الخوف، أو شيء آخر تراه فـي عينيه وعيناها مغمضتان، أصابعه تـرتعش زاحفـة فـوق جسدها، عيناه مغمضتان وذاكرته مفتوحة علـى الماضـي، يقبلها بحرارة الذكرى الطفولية، ابتعدت عنـه قلـيلاً وهـي تساوي شعرها المنكوش، صوتها لا يكاد يسمع:

ـ نسيت اللي قلته؟

ـ قلت إيه؟

ـ قلت لازم نقطع علاقتنا.

ـ آه صحيح.

اعتدل في جلسته وابتسم، ذاكرتك قويـة تحسـدين عليها، وهي موهبة تساعدك على الكتابة.

ـ آه صحيح، لازم نقطع هذه العلاقة، لا يمكـن أن نخون ثقة كارمن وسميح، دي أنانيـة مطلقـة خاليـة مـن الضمير!

ـ الضمير؟

ـ أيوه الضمير!

ـ الحب لا يعرف شيء اسمه الضمير، الحب هـو الضمير نفسه.

ـ أرجوك كفاية تلاعب بالكلمات.

* * * *

قبل أن تدخل كارمن المستشـفى قـررت أن تنهـي الرواية، بدت لها رواية خالية من الأحداث العظيمة، الحرب في العراق والمذابح في فلسطين، المظاهرات الشـعبية فـي بلاد العالم، حركات المقاومة ضد الحـرب، وضـد الفقـر والعولمة، رواية تافهة غارقة في حياة أفراد لاهـين بالحـب والنبيذ والخيانات، أمسكت الرواية لتلقي بها فـي صـفيحة القمامة، ثم تذكرت أن رستم كان يخوض معركة الانتخابات،

وهي معركة حامية تشبه الحرب في سـاحة القتـال، زمـن الحرب عند رستم هو زمن الحب، في طفولته يغمره الحنين إلى أمه وهو يهتف المظاهرات، لا للحرب، لا للاستبداد.

* ** *

استيقظت الفتاة من النوم على صوت المفتاح يـدور في الباب، كعب جمالات العالي يدق بلاط الصالة ، تهمـس بصوت خافت وهي تدخل الحمام، بسم ا الرحمن الـرحيم، أعوذ با من الشيطان الـرجيم، تطـرد الأرواح الشـريرة القابعة في جدران المرحاض، تتشمم الإثم في هـواء الشـقة الراكد، ترتدي شبشبها البلاستيك، تزحف قدماها فوق البلاط، تبسمل وتحوقل، تمط أنفها هنا وهناك تتشمم الهواء.

ـ رستم كان هنا؟

تتفادى الفتاة النظر في عينيها، تهز رأسـها علامـة النفي أو الإيجاب، سيان، لم تعد جمالات تحتل فـي عقلهـا مساحة كبيرة، لم تفهمها على حقيقتها أبدا، تتربع في سريرها في ليالي الشتاء متدثرة بلحافها الأحمر، إلى جوارهـا فـوق الكوميدينو طفاية السجاير، مليئة بالأعقاب حتى الحافة، تدس السيجارة بين شفتيها الحمراوتين، تتمتم بآيات القرآن، ترشف

النبيذ الرخيص يلسع الحلق كالسبرتو، تتبع كل رشفة بشفطة دخان، تكيل الحمد على ما أعطاها من نعم الـدنيا، ومـا يغفر لها في الآخرة من ذنوب، تفسح للفتاة مكانًا إلى جوارها في السرير، وتحكي عن المرحومة أمها وزوجها المجحوم.

ـ كان جوزي راجل حمش، في ليلة سمعني بـاتكلم وانا نايمة، كان المسدس تحت مخدته من أيام ما كـان فـي الجيش، يظهر سمعني باحلم بواحد غيره، الدم غلي في راسه وضربني بالنار، ربنا ستر والطلقة طلعت آوتْ، قال لهم في التحقيق إنه عمره ما سمع مراته بتتأوه معاه زي ما سـمعها بتتأوه مع الراجل الثاني، ودمهم غلـي زي دمـه وطلعـوه براءة، قوليلي انتي بتكتبي رواية؟

ـ رواية؟

تتفادى الفتاة النظر في عينيها، تهز رأسـها علامـة النفي، لم تفكر أبدا في كتابة رواية، تحذرها جمـالات مـن الكتابة، ا يلعن الكتابة واللي عمل الكتابة، ممكن أشيل حجر على ضهري أسهل من الكتابة، لولا الواد بهي برغـل مـا كانش الباب بتاعي يطلع كل أسبوع، طـول عمـري أكـره القراية والكتابة، لكن أعمل إيه ربنا كتب علي إنـي أكـون

جمالات الكاتبة الكبيرة، وتطلق جمالات ضحكتها العالية المرحة، تبدو جذابة في عين الفتاة حين تضحك، يكسو البريق عينيها حين تتحدث عن الحب، تهوي قصائد العقاد وشوقي ورامي، تدندن بأشعار مريم وهي في الحمام.

في ليلة والفتاة جالسة إلى جوارها في السرير، امتدت يدها إلى جسدها، أرادت أن تدربها على ما تسميه فنون الحب، حوطتها بذراعيها وقبلتها فوق الشفتين قبلة حارة طويلة، ثم زحفت يدها إلى صدرها وبطنها حتى المنطقة المحرمة.

شدت الفتاة جفونها لتفتح عينيها، كأنما تصحو من حلم أو كابوس، وسمعت جمالات تقول، الحياة الدنيا محطة قصيرة بين النوم والموت والإنسان حيوان وقف على قدمين، إيه رأيك تدخلي معانا المجموعة.

ـ مجموعة إيه؟

ـ مجموعة بحث في علم الروح.

ـ الروح؟

ـ ورستم معانا في الجمعية.

ـ لا يمكن!

- ليه؟

لم تملك الفتاة الشجاعة لترد على السؤال، لم يؤمن رستم بوجود إله سماوي فهل يؤمن بوجود الروح؟ ترن كلمة الروح في أذنها مراوغة غامضة تتخفى وراء غلالة، تكاد تشبه وجه رستم حين يقربه من وجهها، تلامسها شفتاه لحظة ثم تنسحبان مثل الخيال أو الوهم، لا شيء يبدو حقيقي إلا رائحة ماء الكولونيا اللافندر، تبقى في ذاكرتها مع نكهة النبيذ في الهواء، يجمع بينهما الفراق أكثر من اللقاء، يقرر كل منهما أن يفارق الآخر دون عودة، ثم يعودان بقوة أكبر من إرادتهما، لا يعرفان ما هي، ومن أين تأتي، من السماء، من الأرض، من الجسد، من الروح، من شيء آخر لا تعبر عنه الكلمات؟

يرتعش صوت رستم حين تسأله عن الجمعية، يقول أنه عضو غير عامل، لا يرشح نفسه ولا يدخل معركة الانتخابات، لا يؤمن بوجود الروح إلا في الخيال، في طفولته كانت خالته هي الروح المحلقة فوق رأس السرير، كأنما هي أمه الغائبة أو أبوه، تكاد تشبه صورة ا في خياله، يحبها ويخافها في آن واحد، يتغلب الخوف على الحب مع إدبار

الطفولة، لم يعد يحب النساء فـي شـبابه، لا ينجـذب إلـى أجسادهن، لا تثيره أردافهن الممتلئة المهتزة مع كل خطـوة، ولا عطورهن النفاذة، رغم قوتها لا تخلو من نكهة الحيض، ربما ينجذب أكثر إلى أجساد الشـباب والفتيـان عضـلاتهم مشدودة، سيقانهم رشيقة خالية من الشحم، وأردافهـم نحيفـة قوية.

وتضرب جمالات المنضدة بقبضة يدها، هذا الرسـم عرفته من أول نظرة، يشتهي الرجال أكثر من النساء مثـل قوم لوط، ثم تضحك حتى تدمع عيناها، تمسـحهما بمنـديل ورق كلينكس، قوم لوط ذكرهم ا في القرآن، ممـا يؤكـد وجودهم في الحياة الدنيا، مصيرهم نار جهنم يا عزيزتي، لن يدخل جنة عدن إلا الرجال الصالحون الذين ينجذبون للنساء فقط، والنساء الصالحات المنجذبات للرجال فقط، لكن معصية الرجال أكبر من معصية النساء، لأن قوم لوط ورد ذكـرهم، أما اللوطيات من النساء فلم يذكرهم ا على الإطلاق في أي آية من الآيات، إيه رأيك تدخلي معانـا المجموعـة، عنـدنا اجتماع الجمعة الجاية، تعالي معايا شوفي بنفسـك وبعـدين قرري على مهلك.

* * * *

في الزقاق المظلم وراء جامع السيدة، داخل غرفـة سقفها منخفض معبأة بالدخان ورائحـة المسـك والبخـور، الشيشة المعمرة تدور عليهم بالدور، جمـالات تجلـس فـي الوسط، حيث بقعة الضوء الساقطة من لمبة معلقـة، حـول السلك الكهربي ذباب أسود ميت، فوق الأرض البلاط كلـيم رصاصي اللون، مفروش من الجدار إلى الجدار، يتربعـون فوقه على شكل الدائرة، تحت أردافهم شلت مربعـة ملونـة، أمامهم مائدة منخفضة مستديرة تشبه الطبلية، مـن حـولهم رفوف خشبية مشققة، تحمل الكتب والمجلات، وأوراق قديمة صفراء، ومصاحف جديدة مصقولة الأغلفة، ومسابح ومباخر وإمساكية الصيام وخمسة وخميسة لطرد عيون الحساد.

أعضاء المجموعة ثلاثة وعشرين رجلاً وامـرأة، لا شيء يجمعهم إلا الرغبة في كشف سر الروح، امـرأة فـي الثمانين من عمرها، حفيدة لأحد الأمراء القدامى من أسـرة محمد علي، طالب في العشرين من أندونيسيا يـدرس الفقـه في الأزهر، أرملة متوسطة العمر مـن الأسـكندرية مـات زوجها في الحرب، وزير سابق من مصر الجديـدة هـرب

بأمواله ثم عاد، كيميائي صاحب صيدلية يعمل فـي مؤسسـة الأدوية، راقصة من التائبات المعتزلات مريضـة بسـرطان الثدي، أستاذ جامعي متخصص في الطب النفسي، شيخ جامع من حي الزمالك ، قسيس كنيسة من شبرا البلد، و...

جمالات تتربع فوق الشلتة، يتسرب الوجع و القلـق من جسدها ، تسري في روحها طمأنينة، تشع من حولها هالة من الضوء، يتطلعون إليها بعيون نصف مغلقة، تبدو لهم مثل الروح المحلقة.

كانوا صامتين وهي تتكلم، صـوتها فـي الضـوء الخافت كأنما يأتي من عالم آخر، فيه بحة منتزعة من شيء في صدرها تحت الضلوع، ليس القلب ولا الرئة ولا الكبـد ولا الطحال، لا ينتمي إلى أعضاء الجسم، كأنما يخرج مـن الروح.

ـ الروح لا يعلمها إلا ا ، الروح غيـر محـدودة بشكل أو جوهر أو مكان أو زمان، عقلنا غير قـادر علـى اختراق الجسد ونزع الحجاب عن الروح.

كلامها قديم ومكتوب منذ الأزل، لكن صوتها وبريق عينيها، وطريقة نطقها الكلمات وترتيبها، الكلمة وراء الكلمة،

مع حركة الأصابع واليدين، كأنما تعزف على آلة موسـيقية غير مرئية، تخرج الكلمات العادية من فمها غيـر عاديـة، تحدث في رءوسهم رنينًا أثيريا مثيرا للحنين القديم، ونوعـا من الخدر الغامض اللذيذ، مع شفطات الشيشة العميقة حتـى القاع، ورشفات النبيذ المعتق منذ بداية الزمن، ويبقى صوتها في رءوسهم حتى تكف عن الكلام، تتـوالى أمـام عيـونهم ذكريات الطفولة حتى يغادرون المكان.

كان رستم متربعا فوق الشلتة، متجمدا في جلسته، لا يحول بصره منها، مشدود بصوتها والبريق في عينيها، كأنما هي الساحرة في ألف ليلة وليلة، أو العرافة القديمة التي كف ا عنها الحجاب، تعود إليه صورة أمه أو خالتـه الميتـة، وصوت أبيه حين كان يرتل الآيات في مولد النبي.

وكانت هي ليلة المولد، يعود إليه صوت أبيه يشـبه صوت جمالات وهو طفل صغير، كرم ا الرسول محمد في بطن أمه، رأت أمه في المنام، كأنما خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، وقيل لها، إنك حلمت بسيد هذه الأمة، فـإذا وقع إلى الأرض فقولي، أعيذه بالواحد من شر كل حاسـد، وقال أبوه إنه رأى في منامه كأن سلسلة من فضة خرجـت

من ظهره، لها طرف في السماء، وطرف في الأرض، وطرف في المشرق وطرف في المغرب، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور.

وتتسع عيناه الكبيرتان كعينيه وهو طفل، مع دوائر النور الساقطة من السقف، ورائحة البخور والصندل المحروق ، وظلال الأشباح المنعكسة على الجدران، والتمتمة الهامسة بالآيات المقدسة، والإحساس الطاغي بالإثم، يضم ركبتيه وهو جالس فوق الشلتة، كما كان يفعل وهو طفل في الفراش، يتكور كالقنفذ حول نفسه، يستشعر اللذة والخوف من ا ، والحنين إلى أمه، تتجسد أمامه على شكل أختها التوأم، يعود جنينًا في بطنها، تهمس في أذنه، أعوذ بالواحد من شر حاسد، رأيت في المنام كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهري، لها طرف في السماء، وطرف في الأرض، ثم أصبحت شجرة على ورقة منها نور، ستكون يا رستم سيد هذه البلاد تنقذها من الطغيان والفساد.

وتذكر رستم حلم طفولته، كان يرى نفسه نبيا حملت به أمه تنفيذًا لأمر ا ، من أجل إنقاذ العالم، أراد أن يدخل الجيش ويتدرب على السلاح، لم يكن يحب القتل ومنظر

الدماء، كان عقله مرتبا يميل إلى التفكير العميق، وقراءة كتب الفلسفة والروايات، لم يستطع إنقاذ العالم عن طريقة الفلسفة ولا كتابة القصص، وقال له سميح، لا يمكن إنقاذ العالم إلا عن طريق السياسة والانتخابات، وكان الطريق مفتوحا أمامه إلى مجالس الشورى أو النواب.

** * *

لم تدخل مريم الشاعرة هذه المجموعة، لم تكن تبحث عن الروح، تجمعها بجمالات صداقة قديمة منذ الطفولة، عرفت جمالات الحرمان والشقاء والاغتصاب، كانت طفلة في الحادية عشر حين أصبحت أما لطفلة غير شرعية، لم تنظر في وجهها بعد أن ولدتها إلا لحظة خاطفة، انحفرت فيها عيناها إلى الأبد، تراهما وهي في غيبوبة النوم، وتراهما وهي تمشي في الشارع، أي شارع وأي زقاق، حين تلتقي عيناها بأي طفل أو طفلة، لم تلجأ إلى ا أو الصلاة من أجل الغفران، بل بهدف النسيان، دون جدوى، بقيت العينان في عينيها ثابتتان، قاطعتان كحد السكين، وإن أغرقت عقلها بالنبيذ، وأحرقت صدرها بالدخان، وداست على قلبها بالحذاء، ونامت مع النساء والرجال، وضحكت وقهقهت

وتهتكت وتعرت وتحجبت وفعلت الخير أو الموبقات، تظـل العينان في عينيها كأنما أصبحت جزءا منهما أو كأنما همـا عيناها.

وتبتلع مريم الشاعرة دمعة كبيرة حبيسة، تخفي بيدها عينها لحظة طويلة كأنما نامت، تتحرك يدها قليلاً من شـدة الإعياء، تظهر عينًا واحدة، واسعة وحمراء، شاخصة إلـى السماء ثابتة لا يطرف لها جفن، كأنما بلا جفون ولا رموش، كأنما احترقت جفونها ورموشها من البكاء، تكاد تشبه عـين الفتاة المحروقة بالكبريت والجاز.

تنحدر الدمعة الحبيسة فوق وجه مريم الجالسة مثـل تمثال، لا شيء يتحرك فيها إلى شفتيها، جمـالات صـديقة عمري، أحبها بجنونها، وهي مشعوذة مثل قارئـات الكـف والفنجان، وضاربات الودع والكوتشينة، قرأت في المدرسـة وهي طفلة شيئًا في علم النفس، تدربت على أن تلمـس فـي الناس نقطة الضعف، تعزف عليها مثل الوتر المشدود فـي العود، تحاول من خلال المجموعة أن تكسر قوقعة الحـزن، أن تحطم جدران الخوف، أ، تطلق سراح ذاكرتها الطفوليـة، أو روحها الحبيسة.

رنت كلمة " روحها " في أذن الفتاة، اتسعت عيناهـا بذهول كأنما تصحو من نوم طويل عميق، ترددت الكلمة في رأسها، روحها، روحها، أتؤمن مريم الشاعرة بوجود الروح؟ ترى السؤال في عينيها، تواصل كلامها كأنما سمعتها.

ـ الروح هي الحرية، نحن ننشد الحرية منذ الولادة حتى الموت، نحن ننشد الحرية في الحب وفي الكرة، حتـى يصل الجسد إلى قمة اللذة أو قمة الألـم، تنطلـق المعرفـة الحبيسة في العقل، على شكل الصرخة الممدودة إلى الأبد، لا تختلف صرخة اللذة عن صـرخة الألـم، فالهـدف واحـد، الانطلاق من القيود والأغلال المزمنة منذ الأزل.

وتنهدت مريم الشاعرة تنهيـدة عميقـة، وأنشـدت بصوت الحالمة في النوم، قدماها ممدودتان على حافة السور الخشبي للسفينة على شاطئ النيل.

الحرية هي المعرفة،

والهدف من كل شيء،

وإلا لماذا؟

تكون الطبنجة في السجن،

أكثر براءة،

من الورقة والقلم؟

* * * *

مطار القاهرة يكاد يكون خاليا قبل طلوع الفجر، سحابة سوداء وشبورة كثيفة تمنع الرؤية، الجو مشبع بالرطوبة والدخان وبخار الماء، منتصف شهر أغسطس، صوت عجلات الطائرة تنزلق فوق أسفلت الممر بسرعة الضوء، تنفصل عن الأرض في لحظة خاطفة وتحلق في السماء، كأنما يفرد سميح ذراعيه ويطير بجناحين، يرتفع فوق بيوت المدينة، والعمارات والمآذن والأبراج، وكل الأشياء، يدب رجال البوليس بكعوب حديدية على الأرض،يظهرون ويختفون كالأشباح، والصحف الصفراء تغرق الأسواق، بلون الوباء الكبدي، تتوالد وتتكاثر مثل الذباب، العناوين الكبيرة بالحبر الأحمر، عن الدم المراق في فلسطين والعراق وأفغانستان، والأموال المهربة خارج البلاد، وتزايد الفقر والهوة بين العبيد والأسياد، وانتشار كلمة الهوية في الكتب والمقالات، والتسابق لنشر الأخبار عن بنات الهوى والحمل السفاح، ومخادع الرؤساء والملوك في العصور السابقة، أو في البلاد البعيدة فيما وراء البحار.

عند بوابة المطار وقفت ثلاثـة نسـوة بالجلاليـب والطرح السود، ينتظرن وصول الميت داخـل الصـندوق، ورجل عجوز محني الظهر يمسك بيد طفلة ناعسة تبـربش بعينيها فيما حولها دون وعي، والفتاة كانت واقفة عند بـاب الخروج تحماق في ظهر سميح وهو يمشي، يجر من خلفـه حقيبة كبيرة لها عجلات، ملمس شفتيه على وجههـا لحظـة الوداع، دافئتان ناعمتان تنسحبان عنها فـي رقـة الهـواء، كانسحاب الروح من الجسد.

ـ سميح؟

توقف لحظة ثم استدار، رآها واقفة عند الباب عيناها شاخصتان إليه، ثابتتان، قاطعتان كحـد السـكين، انفرجـت شفتاها وابتسمت، لوحت له بيدها، رفع ذراعه ولوح بيـده، صوته يسري في أذنها منذ الليلة الماضية، في جيبه الورقـة مكتوب عليها العنوان بخط يدها، اسم بولاندا، واسم الشارع، ورقم البيت، والمطعم، سوف تدعوه يولاندا إلـى صـحون الابيلا مارنيرا والنبيذ الكاتلاني، وتمنعه من الانفراد بالطفلة، تخشى أن يهرب بها إلى المطار، تتشبث بها وتقول بكلمـات

كاتالانية وإشارات بيدها إلى قلبهـا، وسـميح يـرد عليهـا بالإشارات وكلمات عربية.

- نورية حفيدتي ابنة ابني فرانسيسك.
- نورية ابنتي أنا.
- ومن أنت؟
- أنا سميح أبوها.
- وكيف عرفت أنك أبوها؟
- ملامحها تشبهني بالضبط، نسخة طبـق الأصـل مني.

وتضحك يولاندا في سخرية، تلفظ كلمة " ملامـح " بطرف لسانها، ليس عندنا كلمة ملامح في القانون الكاتالاني، فالملامح تتشابه، يخلق من الشبه أربعين كما يقولون عنـدنا في كاتالونيا، القانون عندنا يعتمد على حقائق العلم.

- تقصدين تحاليل الدم وال... **D N A؟**
- أيوه، أثبت التحليـل فـي المعمـل أنهـا ابنـة فرانسيسك.

ـ العلم مثل أي شيء في الحياة لا يمكن أن يكـون مائة في المائة، هناك دائما ما ينقص الشيء ويمنعه مـن أن يكون كاملاً إلا ا ، هو وحده الكامل.

ـ أتؤمن بوجود ا يا سميح؟ نحن هنا في كاتالونيا لا نؤمن إلا بالعلم والحقيقة،

ـ الحقيقة ليست مطلقة يا يولاندا، الحقيقـة نسـبية وهناك دائما شيء ينقص الحقيقة يمنعها من أن تكون كاملة،

تتذكر الفتاة هذه العبارة الأخيرة، كان رستم يقولهـا عن الحب، أن هناك دائما ما ينقص الحب ليكون صادقًا، وما ينقص الفضيلة لتكون فضيلة، وكانت كارمن تقـول: هنـاك دائما ما ينقص الرجل ليكون رجلاً، ورستم يسـعى لتبريـر الفساد بنظرية النسبية.

* * * *

فوق السرير في المستشفى رأتها راقدة في غيبوبـة، فكوا عن جسدها الحبال، رأسها مربـوط بتيـار الكهربـاء، ذراعها مرفوعة فوق الوسادة، داخل الوريد إبرة تنقل إليهـا السائل من زجاجة معلقة في الهواء، شفتاها لونهما أبـيض، صدرها ساكن إلا من حركة غير مرئية.

نادت بصوت خافت، كارمن، ارتعشـت رموشـها المتلاصقة فوق الجفون المغلقة، لم تنفرج شفتاها عن صوت، جلست إلى جوارها على طرف السرير داخل الصمت كأنما إلى الأبد، بدت اللحظة الحاضرة ممدودة في الماضي الميت والمستقبل غير الموجود، مدت يدها لتلمسها فارتجفت، كأنما تلمس جسدا ميتًا، جاءت الممرضة وهمست في أذن الفتاة،

ـ كانت بتسأل عنك طول الوقت.

ـ عني أنا؟

ـ كنتي فين؟

ـ في برشلونة.

ـ كلميها يمكن تسمعك.

ـ هي صاحية؟

ـ عقلها صاحي، كلميها يمكن ترد عليكي.

ناولتها الممرضة شـيئًا وعيناهـا ترقبـان البـاب، وضعته في يدها، وهمست في أذنها، افتحي الدولاب قبل مـا يوصلوا، الرسالة أمانة، خدي الرواية واهربي، كان نفسـها تشوفك وطول الوقت تسألني بنتي راحت فين.

كان الظلام يهبط، والمستشفى يصـبح فـي الكـون الأسود نقطة بيضاء، والرجال الثلاثة داخل سـيارة طويلـة سوداء، تتحرك على مهل من وراء حجاب، تبدو من بعيـد كالشبح، أو الروح القدس، وكـان الشـارع مليئـا بـالحفر والمطبات، على الحافـة بـين الأرض والأسـفلت ورمـال الصحراء.

من النافذة رأتهم الفتاة، واقفة منتصبة مثـل تمثـال، تقاطيع وجهها حجرية بارزة، عيناها ثابتتان ثاقبتان قاطعتان كحد السكين، من خلفها

سمعت صوت كارمن يهمس، بكلمات مبتـورة،....

إه...... إهر....... إهربي.... يا... يا......... بـن...... بنتي..... يا بنتي...... رنت كلمة " بنتي " في أذنها وهـي واقفة وراء النافذة، كان ضوء الكشاف يسقط فـوق رأسـها، اهتزت خلية في عقلها، تدور فيها كلمة واحدة مثـل نقطـة ضوء في الظلام، أمي؟

فوق السرير كان الجسد الميـت يتحـرك، انفتحـت عيناها الكبيرتان عن آخرهما، رأت الرجال لثلاثة يـدخلون من الباب على أطراف أصـابعهم، يتقـدم الأول فـي يـده

الكشاف، لا يظهر منه إلا قبعة فوق رأسه، أو شـيء ممـا يرتديه الرجال الجيش أو البوليس، يده ممدودة أمامه ممسكة بشيء أسود مدبب، رأس الرجل الثاني ملفوفة بالقماش، اللفة وراء اللفة، مثل تلافيف العمامة، أو شيء مما يرتديه الرجال من ذوي القداسة، الرجل الثالث كان عاري الـرأس، بـين شفتيه سيجارا سميكًا لونه بنـي داكـن، سـاقاه الطويلتـان الممشوقتان داخل بنطلون جينز ضيق، لم تره إلا من ظهـره بعد أن دخل، ووقف خلف الفتاة فاتحا ساقيه المشدودين داخل البنطلون الجينز الأزرق، رافعا يده اليمنى، مصوبا الشـيء الأسود المدبب إلى ظهرها، وقبل أن تسمع طلقة النار، سقط ضوء من خارج النافذة كاشفًا إليتيـه المضـغوطتين تحـت الجينز المستورد، الشبيه بجلد النمر، فوق الإليه اليمنى قطعة مربعة من حروف بارزة مشغولة بخيوط حمـراء، يظهـر الحرف وراء الحرف حتى تكتمل الكلمة، مثـل الإعلانـات فوق الأعمدة في الشوارع والأزقة، تضيء كلها بقـوة، ثـم تنطفئ لتضيء من جديد، من الحرف الأول إلى الأخير حتى تكتمل الكلمة، ثم تنطفئ ويظلم الكون.

أضاء عقلها كأنما لأول مرة، قبل أن تنطلق الرصاصة، تحركت ذراعها اليمنى من فوق السرير، امتدت يدها إلى الزجاجة المعلقة فوق رأسها في الهواء، أمسكتها بأصابعها الخمسة، كان السائل يرتج داخلها، جدرانها من الزجاج الشفاف اللامع، يتدلى منها خرطوم طويل أسود، ينتهي بالإبرة المغروسة في ذراعها اليسرى، كانت هي لحظتها الأخيرة لإنقاذ ابنتها، لا شيء بعدها إلا العدم، وانتزعت القوة من براثن الموت، قوة خارقة للعادة، لا يعرفها إلا الموتى قبل النفس الأخيرة، يتلاشى الخوف من الموت والنار والسجن والجوع والجنون وكل شيء، تنطلق الروح الحبيسة بقوة غير بشرية، كأنما قوة إلهية أو شيطانية..

وبهذه القوة قذفت كارمن الزجاجة في اتجاه الرجل، انطلقت كالقذيفة بسرعة أكبر سرعة من الضوء، ثم انفجرت في مؤخرة رأسه، محدثة صوتًا خارقًا لقوانين الصوت، أيقظ الأطباء والممرضات من النوم، وأفاق المرضى والمريضات، الغائبين والغائبات عن الوعي..

واختفت الفتاة في تلك اللحظة، لم يلحق بها أحد، ابتلعتها شوارع المدينة والأزقة، كأنما هي جزء من المدينة والأزقة، تشق الليل بجسمها النحيف الممشوق، تقاطيع وجهها كأنما منحوتة من الحجر، عيناها ثابتتان ثاقبتان قاطعتان كحد السكين، وكانت السماء سوداء إلا من الشفق الأحمر، عند خط الأفق البعيد، يتصاعد في بطء مع نور الفجر.

* * * *

عندما صدرت الرواية كانت الأرض غارقة في الدماء، وكانت السماء زرقاء صافية، غير مبالية بما يحدث فوق الأرض، والقتلى يتساقطون والقتيلات، تختلط أجسادهم بعضها بالبعض، لا يمكن التعرف على الذكر من الأنثى، أو المسلم من القبطي، أو العربي من الأعجمي، وبدا الموت جميلاً في عيون الأطفال، لأنه لا يفرق بينهم، وكانت الطفلة تلعب في الشارع، حين برز فوق صدرها ثديان صغيران، وضغط الرجل الكبير على ثديها قبل أن يدركها الوعي ثم رفع بيده جلبابها القديم، فانكشف عنها الغطاء، رمقته بعينيها الثاقبتين، وانحفرت نظرته في ذاكرة الطفلة إلى الأبد، أصبحت تعرفه وتتعرف عليه وإن تغير وجهه، لم يكن له

وجه واحد، كانت الوجوه متعددة مع تعدد الأحـزاب وتعـدد المجالس القومية العليا والانتخابات الحرة، يتغير وجهه مـن موسم إلى موسم لا يتعرف عليه أحد إلا هي، تعرفـه مـن عينيه دون بقية الملامح، ورائحة معجون الحلاقة.

وأحدثت الرواية غضبا عارما، المؤلفـة صـغيرة مجهولة الاسم، بلا أب ولا أم، ولا هوية مختومة ولا ملامح معروفة، لا تعرف القراءة ولم يندرج اسمها ضمن الكاتبات، قوامها ممشوق من طول المشي سعيا وراء الرزق، يرتكـز على عمود فقري صلب، وكان موسـم الانتخابـات علـى الأبواب، والصحف الصفراء تتكاثر كالذباب، وهناك المجلس القومي يسمونه المجلس الأعلى، بطل الرواية عضو اسـمه رستم، في الخامسة والخمسين، يبدو شابا رياضيا، يمـارس لعبة الجولف كل يوم، يرتدي بدلة أنيقة، وربطة عنق سوداء علامة الحداد، يتمتع بسمعة طيبة والوفاء لزوجتـه الميتـة، حليق الوجه تفوح منه رائحة الكولونيا " لافندر "،

توقف رستم تلك الليلة القمرية أمـام الكشـك علـى الناصية، صاحبه شاب من أبناء الشهداء، تتـدلى المسـابح والمصاحف فوق واجهة البوتيـك، والمبـاخر وإمسـاكيات

رمضان وأحجبة النساء، تهلل وجه الشاب كعادته حين يرى رستم.

ـ أهلا سعادة الباشا.

يناوله الشاب الرواية الممنوعـة ملفوفـة بحجـاب، وقطعة صغيرة مما توضع في الشيشة أو تحت اللسان.

ـ الأخبار إيه يا محمد؟

ـ اليورو طالع يا سعادة الباشا والدولار نازل.

يناوله رستم المظروف، يختفي الشـاب وراء القبـو الخشبي، ثم يعود حاملاً الكيس البلاستيك الأسود.

ـ عدهم يا سعادة الباشا،

ـ عيب يا محمد،

ـ يلزمك كام إمساكية يا باشا؟

ـ مالوش لزوم يا محمد النجاح مضمون.

ـ الدولة كلها معاك يا باشا وألف مبروك ع الجايزة.

ـ ا يبارك فيك يا محمد.

في الليل قبل أن ينام ينزع رسـتم الحجـاب عـن الرواية، كأنما ينزع الملابس عن امرأة، كان يعشق القـراءة

مع الدخان والكأس، تتحرك شهوته للمحرمات، حسب المثـل الشائع، كل ممنوع مرغوب.

فوق ظهر الغلاف كانت صورة المؤلفة الشابة، داخل مربع صغير، تسمرت عيناه فوق العينين الثـاقبتين، كأنمـا رآهما من قبل في الحلم وهو نائم، أطفأ النور بجوار السرير، دفن وجهه في الوسادة وراح يبكي حتى سقط في النوم.

* * * *

صدرت الرواية وأحدثت غضـبا عارمـا، زعقـت الأصوات عبر الميكروفونات وأسواق السيارات وصـفارات البوليس، انتشر رجال بالسـراويل الكـاكي فـي الشـوراع والميادين، والأزقة المسدودة، يفتشون عن الروايـة داخـل المكتبات والأكشاك، فوق الأرصفة على النواصـي، تحـت مراتب الأسرة في البيوت، إلا بيـت رسـتم، كـان يتمتـع بالحصانة كعضو في مجلس الشورى، لا أحد يسـأله عـن شيء مثل غيره من أصحاب المكانة، كلما ارتفعت المكانـة نقصت المسئولية، حسب اللائحة والقانون، وتزيد المسـئولية في حالة المرأة، وإن كانت ميتة.

لم تكن كارمن ميتة، فهي تعيش في روايتها، أو على الأقل في ذاكرة رستم، يضع مقعدها على رأس المائدة، لـن تجلس عليه كارمن أو امرأة غيرها، يزيد الإخلاص الزوجي بعد الموت، سيقيم رستم لروايتها حفلاً الليلة، سيضع الرواية فوق المنضدة الرخامية محاطـة بباقـات الـورد، وعيـون المعجبين والمعجبات، لن تنهشه مشاعر الغيرة، يبدو الموت جميلاً، أكثر جمالاً من الحياة، يقضي الموت علـى الغيـرة وكل المشاعر الخسيسة، يصبح القلب أبيض نقيا مثل صفحة بيضاء غير مكتوبة.

دق جرس الباب، أوه! مفاجأة سارة أو غير سارة، لم يعد السرور شيئًا هاما، تقاطيع وجهها منحوتة حجرية غيـر قابلة للموت، عيناها ثاقبتان كحد السكين، تكاد تشـبه عينـي كارمن وكل العيون الميتة، يكسبها المـوت رهبـة الآلهـة والشياطين والأرواح الخفية، تأتي من البـاب الخلفـي دون موعد، لا تتبع تقاليد العائلات الراقية في جاردن سيتي، تدخل بخطوة واسعة سريعة، تدوس الأرض بحذائها القديم المترب، ترمقه بعينيها دون أن يطرف لها جفن، ينجذب إليهـا بقـوة غير منطقية، يقول لنفسه، انجذاب غير مفهوم لفتاة مجهولـة

الاسم مجهولة الأصل، لا يندرج اسمها ضمن الكاتبات المحترمات، تعيش في زقاق مسدود في حي السيدة، عاملة فقيرة من الفئات الدنيا، تحمل سفاحا منه أو من سميح أو من رجل آخر، غير معروف الاسم، انجذاب غير معقول يمتد إلى ما وراء العقل، ربما إلى الروح، تنجذب روحه إلى جسدها الطويل الممشوق، وملامح وجهها المألوف الغريب، المذهل في غرابته وألفته، يكاد يشبه الوجه الذي يطل عليه من المرآة كل يوم، الوجه ذاته الذي يظهر له في النوم، مثل إبليس، الوجه الملزوق على الملصقات فوق الجدران، في موسم الانتخابات، المنافسون له في المجلس يذكرون ابنه غير الشرعي، يتهامسون قبل فرز الأصوات بما يلهب خيال الناخبين، يصبح له بدل الابن الواحد ثلاثة أو أربعة أو أكثر، وابنة واحدة غير شرعية يلتقي بها سرا في الشاليه في صحاري سيتي، يرسمون صورته إلى جوار تمثال رمسيس الأكبر، يندفع منه خرطوم البول ليغرق المدينة، كان الفرعون العظيم يقدس ذاته، وكل ما يمتد خارج الذات، وإن كان على شكل الماء كان يسكب ماءه المقدس في رحم أي واحدة من الحريم، وإن كانت أخته أو ابنته، وكل ما يفعله

فرعون يندرج تحت الشرع والقانون، آه يا رمسيس الأكبـر يا من تعيش إلى الأبد، بجسدك الحجري وملامحك المنحوتة في الصخر، ونظرتك الثابتة لا يطرف لها جفن، يا رمسيس أي.. يا نرسيس يا عابد ذاتك..

تدخل الفتاة، هي نفسها بجسمها وملامحها كما كانت، وكما هي بالضبط، الوجه الشاحب الدم تنقصه الفيتامينـات، الملامح الحجرية الحزينة إلى الأبد، الظهر المنتصب فـوق عمود فقري صلب، تزهو بنفسها رغم الفقر وانعدام الأصل، يرتج الشيء تحت ضلوعه حـين يراهـا، ارتجاجـة غيـر مفهومة، مزيج من لذة جسدية جديدة وشعور قديم بالـذنب، خليط من عذاب الروح وتأنيب ضمير غير موجود، عيناهـا مرفوعتان بنظرة استعلاء، كأنما مشبعة بشبق العقل، وما هو أكثر من ذلك، لا شيء يشبعها وإن كانت قمـة اللـذة فـي الفراش، عقلها التواق المراوغ الشبقي إلى الأبـد، ملابسـها المهملة الرخيصة تبدو غالية، رباطة جأشها مثـل لبـؤة لا يرضيها الأسد، ليست عذراء، لا أنثى ولا ذكـر، لا شـيء يغيرها وإن اجتازت البحار، وحملـت سـفاحا مـن بـذور

الأشجار، تعود كما كانت دون أن تبللها قطرة ماء، أو تعلـق بأهدابها قطرة دمع.

يردد رستم بصوته المتحشرج.

ـ ياه! إيه المفاجأة السارة؟

يتعانقان في اللحظة الحاضرة قبل أن تنزلـق إلـى الماضي، وتروح في العدم، يمسكها بيديه الاثنين كأنما طائر يخشى أن يفرد جناحيه ويطير، يقبض عليها كمن يقبض على الهواء أو شبح من الماضي، يتراجع رسـتم خطـوة إلـى الوراء، أو نصف خطوة، يرى نفسه في المرآة المثبتة فـي الحائط، عيناه رماديتان مبللتان بدموع حبيسة، يختـزن وراء عينيه دموعا كثيرة،

يخشى أن ينام حتى لا يبكي في الحلم.

ـ رجعتي إمته من برشلونه؟

ـ من شهرين.

ـ ياه من غير ما أعرف؟

ـ كان لازم تعرف يعني؟

ـ طبعا وإلا إيه؟

ـ إيه.

يضحك رستم على النكتة، ويقول لنفسه، صدفة غير معقولة، تغيب كل هذه الشهور في برشـلونة، وتعـود منـذ شهرين، ولا تأتي إلا هذه الليلة.

- الليلة عندنا حفلة كبيرة.

- حفلة؟

تقول لنفسها، غير معقول أن يقيم حفلة كبيـرة بعـد موت كارمن بثلاثة أيام، لكن الأمر يبدو معقولاً، هناك شيء في الموت يستوجب الاحتفال، شيء جميل في الموت لا تراه العيون المغلقة، لا يفتحها إلا الموت، لا يرى رستم نفسه في المرآة، هناك شخص آخر يقف وراء المرآة، يرتدي ربطـة عنق زاهية الألوان، خلع الربطة السوداء بعـد ثلاثـة أيـام الحداد، ومن أجل الاحتفال بالرواية، لا تليق الربطة السوداء بحفل كبير تحصل فيه كارمن على جائزة الرواية.

- أي جائزة؟

- جائزة غير معروفة لا تكتب عنها الصحف..

- غير معقول يا رستم!

- معقول جدا فالصحف تكتب عن جوائز الدولـة، وهذه الجائزة لا تملكها أي دولة.

- ومن يملكها؟
- لا أحد أعني كل الناس،

يتلاعب رستم كعادته بالألفاظ، فالكلمات لعبته في السياسة في السلم وفي الحرب، في الحب والكره وكل شيء، أتقن رستم قواعد الألعاب منذ الطفولة.

- على أي حال أنا سعيد بعودتك إلينا.

يردد كلمة إلينا بالجمع، يعني هو وكارمن وسميح، ينسى أن كارمن ماتت وسميح سافر، ينسى غيابهما كما كان ينسى وجودهما، يكرر دون وعي، أنا سعيد بعودتك، كأنما السعادة تستوجب غياب الوعي.

- صدفة غير معقولة.
- كل الصدف غير معقولة.
- بما فيها لقاؤنا الأول.
- يمكن.
- ولقائي الأول بكارمن.
- وسميح وسوزي.
- وجمالات ومريم الشاعرة وكل الناس.

ويكاد يضيف بلا صـوت، ودخـولي رحـم أمـي بالصدفة في لحظة حب عابرة بينها وأبي، وبالصدفة أيضـا جاء ابني محمد إدريس الذي يحمل اسم رجل آخر بالصدفة، ويهمس لنفسه دون أن ينظر إليها، الحياة كلها صدفة والموت صدفة، والرواية الجيدة صدفة، لولا ظهور الفتاة صدفة فـي حياة كارمن ما كانت الرواية.

ـ قرأت الرواية؟

ـ أيوه.

ـ أعطتنا جميعا أسماءنا.

ـ يمكن.

ـ إلا أنت.

ـ لست أنا بالضبط.

ـ ما معنى ذلك؟

ـ ربما فتاة لها ملامحي.

ـ كنت أتمنى أن تكون كارمن موجودة في الحفلة.

ـ كارمن موجودة على العموم.

ـ بالروح على الأقل.

ـ الروح ليست أقل من الجسم.

ترد عليه بثقة أكبر، يكبرها بثلاثين عاما، تبدو أكبر منه، على الأقل فيما يخص الروح، كلمة الروح مراوغة يمكن أن تقوده إلى الهاوية، أنقذ عقله بمشقة كبيرة من الجمعية الروحية، كاد أن يفقد الوعي ويقع في حب جمالات.

- جمالات؟

تخفق روحها لسماع اسم جمالات، يتحطم قلبها حين تراها راقدة في السرير، أصابها شلل نصفي ناحية اليمين، بقى النصف الأيسر من جسدها على قيد الحياة، ومات النصف الآخر، أصبحت تتكلم بنصف لسانها ونصف عقلها ونصف روحها، تغيرت جمالات في بضعة شهور، لم يعد جرس الباب يدق، ولا جرس التليفون، انفض عنها الرجال والنساء، إلا مريم الشاعرة، وسميح، آه سميح، يتحطم قلبها لسماع اسمه، تعود إليها صورته من ظهره، وهو يمشي على أرض المطار، يجر الحقيبة ذات العجلات، تبدو الصورة محفورة في خيالها منذ الطفولة، أو قبل أن وتلد وهي داخل الرحم، سافر سميح إلى ابنته المولودة على الشاطئ البعيد، هو الوحيد الذي سافر إليها، ربما هي مشاعر الأبوة الغامضة

المراوغة منذ آلاف السنين، ربما هي الرغبة فـي طفلـة أو طفل يحمل اسمه واسم أبيه، ويرث من بعده دار النشر.

كانت واقفة لا تزال في مدخل البيت، رستم يقودهـا إلى الصالة، ثم يفسح لها الطريق لتمشي أمامه، حسب التقاليد في جاردن سيتي، تسبق المرأة الرجل بخطوة أو خطـوتين، يرمق رستم ظهرها وهو يتبعها إلى غرفة النوم، تبـدو مـن الظهر أكبر من عمرها، كأنما بلغت الكهولة فجـأة لمجـرد دخول غرفة النوم، يا له من شيء غريب، ربما هي الجينات الموروثة عن كارمن، أو فيروسات الكتابة، تفترس الأنوثـة والذكورة وما هو أكثر منهما، تفترس العمر من الطفولة إلى الكهولة مباشرة دون مرحلة الشباب، جينات الكتابة الجهنمية تأكل خلايا الجسد، تقفز فوق سياج العقل، ويذعن لها العمر.

يندهش رستم في هذه اللحظة وهـي تـدخل غرفـة النوم، ربما يكمن هوان المرأة في السرير، ربمـا لا يمكـن إخضاعها، إلا في النوم، هذه الانحناءة المفاجئـة لظهرهـا المشدود الصاب، تكاد تشق قلبه نصفين، يكاد يقرب فمه من ظهرها ليلثم الانحناءة بشفتيه، كما كان يلثم الجرح العميق في بطنها قبل أن يقبلها من الشفتين.

لم يكن رستم مستعدا لانكسارها، أو فقدانها في اللحظة الحاضرة، كان يبذل الحب والجهد واللذة والألم والإخلاص الأبدي لهذه اللحظة الحاضرة، بإرادته وبغير إرادته، لم يكن يملك من عمره شيئًا إلا هذه اللحظة الحاضرة، فالماضي ميت والمستقبل غير موجود، هذه كلمات كارمن في روايتها، آه، كل تلك السنين مع كارمن، ثلاثون سنة، قصة حبه الوحيدة من بين مئات القصص، بعد كل ذلك الأرق والإرهاق والصفحات المكتوبة وغير المكتوبة، في ليالي الصيف والشتاء، ترقد كارمن في مقبرة أسفل جبل المقطم، لا تشهد ظهور روايتها إلى النور، ولا تشهد الاحتفال بالجائزة، ماتت كارمن وحدها في المستشفى كما ماتت مي زيادة، وكما تموت كل النساء الكاتبات بإرادتهن أو بغير إرادتهن.

يلمس رستم رأسها بطرف إصبعه، يرى روح كارمن المحلقة فوق رأس السرير، يطردها بيده كمن يهش ذبابة، تبدو الروح هشة أكثر هشاشة من الجسد، يمكن طردها بحركة سريعة من اليد، يبتهج قلبه لهذه الحقيقة، كأنما يكتشفها الآن فقط ويكتشف معها أنه تخلص من كارمن، على

الأقل من جسدها، وهو الأهم، ثلاثون عاما يحلم بـالخلاص، منذ ليلة الزفاف، قال لها :خديني، فلم تبذل الجهد لتأخذه، كما كانت خالته توأم أمه تفعل.

يملأ رستم كأسها بالنبيذ، كما كان يملؤه في كل لقاء، كأنما الزمن متصل الحلقات في سلسلة واحدة، لا فاصل بين الماضي والحاضر والمستقبل، سيدعوها الخميس القادم على العشاء، كما كان يدعوها، لمناقشة الرواية، ويجلسـان فـي المطعم فوق هضبة الأهرامات، بعيدا عـن عيـون كـارمن وسميح، كان يدعو ا أن تزول عيونهما مـن الوجـود، أن يأكلهما فيروس أو رمد صديدي، لم يكن ا يستجيب لدعائه، فهو يعرف ما يدور في عقل رستم من أفكار، ومنها فكرة أنه غير موجود في الوجود،

- هذا النبيذ لذيذ، من كاتالونيا؟
- لأ، من أسبانيا.
- كاتالونيا في أسبانيا يا رستم.

لم يعرف رستم أن كاتالونيا مقاطعة فـي أسـبانيا، عاصمتها برشلونة، يذهب إلى المطبخ، يشرب كوب مـاء، يبتلع الغيظ بشيء من الماء، والغيرة يكتمها في أعماقه مـن

أي امرأة تعرف أكثر منه، أو أي رجل أيضا، لكن غيظه من المرأة أكثر، وإن كانت كاتبة يصبح الغيظ مضاعفًا وأكثـر، في أعماق عقله فكرة راسخة غير معقولة، إن المرأة تـنقص عنه في العقل، وإن كانت زوجته يصبح الـنقص مضـاعفًا وأكثر، يشاركه هذه الفكرة كل أعضـاء المجلـس الأعلـى والمجلس الأدنى، ومجلس الشورى ومجلس النواب، ومجلس الوزراء، والكونجرس، والكينيست ، والكنائس، والجوامـع، ودور العبارة، ودور البغاء وجميـع الـدور فـوق الأرض الدائرة.

ويمسك رأسه بيديه الاثنين، يحس بها تـدور رغـم استقرار جسده فوق السرير، كانت كارمن ترقد إلى جـواره هنا، وكانت تنهض من السرير إلى الحمام، تبتلع حبة منومة من خزانة الأدوية، ثم تتسلل إلى غرفـة المكتبـة لتقـرأ أو تكتب، أو تجلس وحدها شاردة حزينة، كأنما وجوده معها في بيت واحد أمر غريب، وأغرب منه وجوده في السرير.

حين تسافر كارمن يتمدد فوق الكنبة الجلدية الكبيرة، يرقد فوقها في غيابها مع النساء الأخريات، أو فوق السجادة العجمية الثمينة، يمسح رائحة المرأة بفوطة صـفراء كأنمـا

زجاج سيارة، يزيل البقع الداكنة المعكرة بحزن النساء، وقطرات مائه المراوغ بآلاف الحيوانات المنوية، وخيط العرق السائل من مؤخرة رأسه إلى الشق بين الإليتين عبر أخدود عموده الفقري.

كان يعرف بالضبط متى تعود كارمن من السفر، تكون الكنبة الجلدية ممسوحة والسجادة مغسولة، ولا رائحة لشيء أنثوي أو ذكوري إلا معجون الحلاقة، وماء الكولونيا لافندر، يرشه من فوق السطح، كأنما مطهر للإثم مثل السبرتو الأبيض.

مرة واحدة عادت كارمن دون إنذار سابق، رأته طريح الأرض فوق السجادة، ومن فوقه المرأة، نهض من تحتها متلعثما، متأسفًا، معلنًا في النهاية أنها ليست خيانة زوجية حسب العرف، ولا عقاب لها في القانون إذا وقعت داخل الفراش في غرفة النوم، وليس في المكتبة على سجادة عجمية فوق الأرض، وكان يزعق بصوت عال، كأنما هو الزوج المغلوب على أمره، لأن زوجته عادت فجأة دون علمه.

* * * *

ينحني رستم أمامها وجهه بين يديه، يبكي بصـوت مكتوم يشبه النشيج، تحوطه بـذراعيها وتتـذكر جمـالات، أصبحت جمالات تنشج بهذه الصوت المكتوم في الليل، لـم تعرد تصرخ ولا تضرب المنضدة بقبضـة يـدها القويـة، تسربت منها القوة ومعها اليقين، لم تعد تؤمن بشيء خـارج جسدها نصف الميت، منذ احتراق ابنتها غير الشـرعية لـم تسترد جمالات صحتها، تربت الفتاة على رأسها وتفكر، كيف يعيش نصف جسدها ويموت النصف الآخر؟ وهـل تمـوت نصف روحها مع موت النصف من التجسد؟ كانـت راقـدة فوق سريرها مثل تمثال نصفه حجر والنصف الآخـر مـن اللحم، نصف وجهها ميت بلون الجرانيت بعين واحدة نصف مغلقة، والنصف الآخر له عين واسعة مفتوحة، ونصف أنف منتبه، ونصف فم معوج، الغرفة مظلمة إلا من ضوء مصباح قديم في الزقاق المسدود، يعلوه إعلان جديد يطفئ ويضيء، وميكروفون جديد مثبت فوق العمود، الساعة الثالثة صـباحا قبل أن تفرقع عجلات السيارات في شارع المبتديان، وتزعق الأبواق والصفافير وصـراخ الأطفـال وعويـل النسـوة، والتراتيل والتواشيح ودقات الطبول.

ترمقها جمالات بعينها الواحدة، تشد عضلات فمهـا المرتخي وتقول، حمد ع السلامة يا بنتي، أصبحت تناديها بكلمة بنتي، تسألها عن ابنتها، تقول في برشلونة مع جـدتها يولاندا، تشهق جمالات رافعة يدها غير الميتة إلـى نصـف رأسها غير الميت:

ـ يولاندا اسم نصراني؟

ـ اسم كاتاوني يا جمالات.

ـ كاتالونيا دي فين يا بنتي؟

ـ في أسبانيا.

ـ آه، وأبوها مين؟

ـ يمكن سميح، تسعين في المية.

ـ تسعين في المية؟

ـ ما فيش حاجة مية المية غير ربنا.

ـ أيوه يا بنتي.

تتنهد جمالات، يرتفع نصف صدرها غيـر الميـت بالنهد الواحد المفلطح تحت كشاكيش القميص، أنفاسها تلهث قليلاً وهي راقدة فوق السـرير، النافـذة مغلقـة بالزجـاج والشيش، الهواء مكتوم معبـأ بالرائحـة المألوفـة، رائحـة

جمالات، مزيج من النبيذ والقرنفـل والجنزبيـل، والـدموع الجافة والعرق القديم، مع المسك والعطور الأنثوية، والبودرة والكحل واللبان الذكر والنتاية، ودخان الشيشـة والسـجائر والنشيج المكتوم.

ـ قربي يا بنتي عشان أبوك.

تقترب من وجهها أكثر، تراه في الضوء المتسلل من شقوق الشيش، لونه رمادي بلون الحجاب الملفـوف حـول شعرها، ممسوح الملامح بلا حاجبين ولا رموش مثل صفحة خالية في رواية غير مكتوبة.

ـ كنت خايفة أموت قبل ما شوفك.

ـ.............

ـ كنت عاوزة أقولك حاجة........

تصمت جمالات لتأخذ نفسا عميقًا، تمد يـدها غيـر الميتة وتمسك يد الفتاة.

ـ سامحيني يا بنتي عشان أمـوت مرتاحـة...... ماليش غيرك بعد المرحومة بنتي، أنا يا بنتي، قلبي انحـرق عليها، إوعي يا بنتي تسيبي بنتك، روحيلها هناك أو هاتيهـا

هنا، إوعي تسيبيها زي أنا ما سبت بنتي... شايفة الظـرف اللي فوق التسريحة؟

ـ الظرف انهوه؟

ـ الأبيض المركون ع المراية.

ـ أيوه شايفاه.

ـ خديه وافتحيه، فيه رسالة كتبتها لك بإيدي الشمال، كنت خايفة أموت من غير ما اشوفك، بركة يا بنتـي اللـي جيتي.

وأغمضت جمالات عينها اليسرى، وبقيـت العـين الأخرى المتحجرة نصف مغلقة كما كانت.

* * * * *

وغابت جمالات عن الوجود، لم يبق منها إلا الرسالة المكتوبة بخط يدها اليسرى، فوق ورقة مسطرة منزوعة من كراسة المدرسة، خطها متعرج حروفها تصعد فوق السـطر وتهبط مثل تلاميذ السنة الأولى الابتدائية، تعودت جمالات أن تكتب بيدها اليمنى، التي ماتت وهي على قيد الحياة، كانـت تؤمن أن اليد اليمنى خير من اليد اليسرى، لأن إبليس يقـف دائما على اليسار، بعد أن أصابها الشلل النصـفي اليمينـي

أصبحت تؤمن أن إبليس يقف على اليمين، وتقول مريم الشاعرة، جمالات صديقة عمري، قلبها من ذهب وعقلها من صفيح، كان يمكن أن تكون كاتبة مثل كارمن، ومي زيادة، وأكبر، لو لم يصبها المرض.

- المرض الأخير؟

- لا لا، المرض الأول في بداية العمر، يصيب الأطفال منذ الولادة، أو قبل الولادة، عن طريق الوراثة والأسلاف.

في غرفتها أضاءت الفتاة اللمبة بجوار السرير، كانت جالسة فوق ركبتها الرسالة، من خلف هرها الوسادة، تركت جمالات حروفها المتعرجة فوق الورقة، وشيء من رائحتها المميزة في الهواء، المزيج الغريب الأليف من كل شيء ولا شيء، يسبح مع ذرات الهواء مثل الروح الخفية، يحول حول رأسها وهي جالسة تقرأ الرسالة، وفي أذنيها يسري صوت جمالات كأنما يأتي من بطن الأرض.

ابنتي الحبيبة، دعيني أناديك ابنتي، فهي كلمة جميلة يفرح بها قلبي الحزين، رغم غيابك كنت حاضرة في خيالي طول الوقت، لم يكن لي أحد في الدنيا إلا صديقتي مريم،

كانت لي الأم والأب والأخ والأخت والصديقة والصديق، هي الوحيدة التي كانت بجانبي وقت الشدة، أردت أن أكتب لها الشقة قبل أن أموت، اعترضت وقالت: عندي شقتي ولا أريد المزيد، لم تكن تحب المزيد من أي شيء إلا الشعر، شاعرة مجنونة يا بنتي، أحببتها بجنونها يا يابنتي، قلبها من ذهب وعقلها مفقود، وقالت مريم: اكتبي الشقة باسم ابنتك، كانت تعرف أن ابنتي الوحيدة ماتت محروقة، قالت عندك ابنة أخرى في برشلونة، ستكون في حاجة إلى الشقة حين تعود، قلت لمريم، آه يا مريم يا ريتها تعود، كنت أحس أنها ابنتي، شيء غريب، وقالت مريم، ليه غريب؟ ليس من الضروري أن نحبل ونلد ليكون لنا بنات وأولاد، وليس من الضروري أن يكون الأولاد أو البنات من اللحم والعظم، قد تعيش قصيدة الشعر أكثر من اللحم والعظم، كنت أسمعها وأنا راقدة في السرير نصف جسمي ميت، والنصف الآخر في طريقه إلى الموت، وأقول لنفسي، ربما ما تقوله مريم هو الحقيقة، ربما لا يبقى بعد موتي إلا رسالتي إليك بخطي المتعرج بيدي اليسرى، تعودت أن أكتب بيدي اليمنى منذ أمسكت القلم في المدرسة، كانت لي زميلة اسمها أنجيل، تكتب بيدها اليسرى،

تضربها المعلمة بالمسطرة لتكتب بيدها اليمنـى، ونضـحك على أنجيل حين تبكي، بعد أن تخرج المعلمة تعـود أنجيـل وتكتب بيدها اليسرى، وتعود المعلمة لتضربها المسطرة على أصابع هذه اليد اليسرى، وكتبت مريم قصيدة شـعر علـى المعلمة في المدرسة، وكان جزاءها الطرد من الفصل ثلاثـة أيام مع إخطار ولي الأمر، المهم يا بنتي أني كتبـت الشـقة باسمك، وفي درج الكوميدينو جنب سريري فيه ألف جنيـه، القرض الواجب السداد لسميح، آه يا بنتي، لا تتصوري الألم لأني أجبرتك على طلب الفلـوس مـن سـميح أو رسـتم، سامحيني يا بنتي، كنت زي العميان مـش شـايفة حاجـة، وماشية في الصف مع صفوف القطيع، العبيد، خدي الألـف جنيه ورجعيها لسميح، وخدي بنتك في حضـنك، واوعـي تضحي بيها لأي سبب، زي ما أنا ضحيت بأهم شـيء فـي الوجود من أجل شيء غير موجود.

* * * *

ويملأ رستم كأسها بالنبيذ، يقـول لهـا حمـد ع السلامة، ويسألها، صحتك جيدة؟ تقول: أيوه، يسألها، سعيدة؟ تقول: أيوه، يسألها، لا ينقصك شيء؟ تقول: ينقصني شـيء

واحد، يبتهج رستم قليلاً، يخفق الشيء تحت ضلوعه بحركة خفية، يتمنى أن تقول: لا ينقصـني إلا حبـك يـا رسـتم، وحشتني، عدت من أجلك، لكنها لا تقول شيئًا من هذا، تفكر في طفلتها نورية على الشاطئ الآخر وراء البحر، لا شـيء يعوضها عنها، إن أغمضت عينيها تراها تبكي على فراقها، إن فتحت عينيها ترى أصابعها الخمسة ملفوفة حول إصبعها، مثل خيوط من الحرير، ملفوفة حولها تتشـبث بهـا، طفلـة عمرها بضعة شهور، لها قبضة أصابع أصلب من الحديد، لم تستطع الخلاص من قبضتها، رغم المسافة وعرض البحـر العريض، لا تزال أصابع الطفلة الخمسة ممسكة بإصـبعها، السبابة، الإصبع الأساسي المقابل للإبهـام، كـادت تقطعـه بالسكين لتمحو عنه أثر الأصابع الطفوليـة الخمسـة، دون جدوى.

يبدو وجه رستم أمامها طويلاً شاحبا كأنما في نهايـة العمر، أنفه أصبح أكبر حجما بالنسبة لبقية الملامـح، أكثـر طولاً مدببا منقاريا، عيناه مندهشـتان رماديتـان، حاجبـاه الكثيفان يتساقط شعرهما مع شعر رأسه من الأمام، أصبحت جبهته أعرض مما كانت، تمتد حتى منتصف الجمجمة مثـل

رئيس دولة أو كاتب كبير، أو عضو في مجلس الشورى أو النواب، لحم رقبته تهدل عروقها نفرت تحت ذقن مزدوجـة، يكاد يشبه جورج بوش الأب، أو الابن، أو الـروح القـدس، تعود إليها صورة يولاندا وهي ترسم الصليب فوق صدرها، وفرانسيسك وهو واقف كالتمثال فـي الـرامبلا، وأناجيـل وجوردي وهما يهتفان مع الجمـاهير، جيرانـو لا حـرب، جورج بوش أساسين، توني بلير أساسين، أزنـار أساسـين، سفاحين، خلعوا أزنار في الانتخابات الأخيرة، جاء زباتيرو، وأعلن جيرانو، لا حرب، وسـحب الجنـود الأسـبان مـن العراق.

ـ زباتيرو اسم أمه يا رستم.

ـ غير معقول.

ـ معقول جدا.

يضحك كما كان يضحك على سذاجتها، يقول لنفسـه فتاة عذراء بريئة، غير مثقلة بعد بالآثام، وتقول لنفسها رجل مراوغ لا يعرف قيمة المرأة إلا بعد أن يفقدها، وتقول أيضا، سأجعله يفقدني ليعرف قيمتي.

ـ أرجوكي إبقي معي هنا.

ـ لا بد أن أذهب إليها.

ـ مين؟

ـ بنتي.

ـ عندك بنت؟

ينسى رستم كل شيء عنها، كانت في حياته قصة من قصص الحب، لحظة عابرة متأججة تشتعل وتنطفئ وتسقط في العدم لا يتصور رستم أن شيئًا يبقى من اللحظات العابرة في حياة الرجال، لا شيء يبقى وإن كانت الذكرى، العالقة بالخيال في النوم.

ـ أيوه عندي بنت.

ـ فين؟

ـ في كاتالونيا.

ـ كاتالونيا دي فين؟

ـ في أسبانيا.

ـ آه.

قال آه بصوت كالأنين، وقالت لنفسها: لا بد أنه يعاني الوحدة في غياب كارمن، تتأمله بعينيها في صمت، تراه رجلاً عاديا يجلس على كنبة جلدية عادية، يتردد رستم

طويلا ثم يقترب منها، يحوطها بذراعيه كأنما كانـت بـين ذراعيه بالأمس، تدفعه بيدها برقـة وتسـأله، هـل قـرأت الرواية؟

ـ أي رواية؟

ـ رواية كارمن.

ـ آه طبعا.

ـ رواية بديعة.

ـ فعلاً.

ـ تنتهي بموتها في المستشفى.

يزحف رستم بجسده فوق الكنبة الجلدية بعيدا عنهـا، يتذكر أن كارمن ماتت في المستشفى، قبل أن تموت بلحظـة واحدة قتلت رجلاً لتنقذ ابنتها من الموت،

ـ كانت ابنتها؟

ـ في الرواية على الأقل، أو من بنات أفكارها.

ينحني رستم ويملأ لها الكأس مرة أخرى، تـرتعش يده قليلاً، تسقط بضع قطرات مـن النبيـذ فـوق السـجادة العجمية، يسرع إلى المطبخ، يعود بفوطة يمسح البقع فـوق السجادة، حمراء قانية تكاد تشبه بقع الدم، يمسـحها بعنايـة

شديدة، كأنما كارمن سترى البقع بعد أن تصحو من النوم أو من الموت، يبتسم رستم مشفقًا على نفسه، ويقول، انظـري إلي، رجل عجوز يمسح البقع من فوق السجادة.

تتعجب الفتاة قليلاً، تتساءل بينها وبين نفسها، إن كان رستم يعرف نفسه، إن كانت معرفة النفس مراوغة مثل عدم المعرفة، رستم يقرأ أفكارها مثل كتاب مفتوح، بالضبط كمـا وصفتها كارمن في الرواية، عيناها ثاقبتـان تجـرده مـن سلاحه، يعرف رأيها فيه، يعاني مرضا مزمنًا منذ الطفولـة يتعلق بالروح، ويقول لها، أنا مريض وأنـت قـادرة علـى شفائي.

لم يصل جسده على درجة المرض، لكن عقله كـان مثقلا بالإثم، ربما في حاجة إلى الأقراص المهدئة أو المثبطة للعقل، التي يولع بها أطباء النفس.

- حالتك خطيرة.

- ولكني رستم.

كان يدرك عن يقين أنه لا يزال هو رسـتم، بذاتـه الخاصة، الخاصة جدا المختلفة عن كـل الرجـال، ومـنهم سميح.

ـ سميح؟

لا يكاد ينطق الاسم بصوت مسـموع، يحـاول أن ينساه، وهي أيضا تحاول النسيان.

ـ كنت تحبين سميح؟

ـ..............

لم يكن في حاجة إلى الرد، كان يعرف أنهـا تحـب سميح، وكان يتمنى أن يراه ميتًا، كما كان يتمنـى أن يـرى كارمن ميتة.

ـ قلبك أسود يا رستم.

ـ الحب يجعل القلب أسود.

ـ غير صحيح.

ـ أنت فتاة ساذجة.

ـ وأنت مجنون.

يضحك رستم حين يسمع كلمة مجنون، تبدو له كلمة مديح وأكثر من المديح، يقولون أن أعظم الأدبـاء مجـانين، يتمنى أن يصل جنونه إلى جنون إرنست هيميجواي، ويفرغ في رأسه الرصاصة بعد أن يكتب الرواية، أو علـى الأقـل

يبلغ درجة جنون زوجته، ويكتب رواية مثل روايتها، لم يكتب أبدا رواية مثل روايتها، رغم كل ما كتب من روايات.

- هي دي المشكلة؟

- أيوه، هي دي المشكلة.

كان جالسا إلى جوارها على الكنبة الجلدية، من الغريب أنه لا يزال جالسا، من الغريب أن الكنبة الجلدية لا تزال موجودة، والنافذة موجودة وشعاع القمر يدخل من النافذة، ومن بعده الظلام، ثم الشمس في الصباح تدخل الشمس من هذه النافذة وتغادرها كل يوم، لا يظهر في الظلمة إلا ضوء الإعلان المثبت بالمسامير فوق العمود في الشارع، يومض الحرف وراء الحرف ثم ينطفئ ليعود الضوء من جديد، دون توقف، إلى الأبد.

ويقول رستم، أحب الجلوس على هذه الكنبة الجلدية، ومن حولي رفوف الكتب، أحب رائحة الكتب كما كانت تحبها كارمن، أيوه، رائحة الكتب كانت عندها أجمل من رائحة أي رجل، أرادت أن تموت وهي جالسة في المكتبة وليس راقدة في السرير.

- احكي لي عن كارمن.

- مدينة مثل القاهرة قبيحة وجميلة بمطاعم كثيرة وناس يأكلون طول الوقت.

- لا تعودي إلى برشلونة.

- سأعود.

- هنا وطنك.

- الوطن حيث أكون سعيدة.

- سأجعلك سعيدة.

يحوطها بذراعيه، يبدو كأنه سيحملها إلى السرير بدلاً من الكنبة الجلدية، سيحملها على الدور العلوي حيث غرفة النوم، حيث يكون العري كاملاً دون خوف من كارمن، ليس عري الحب بل الحرب تحت الماء فوق قشرة الوعي، كل منهما جريح ينزف وإن لم يشعر بالألم، كانت النوافذ مغلقة والستائر مسدلة، تمنع عنهما الضجيج في الخارج، أزيز الطائرات وهتاف المظاهرات، قاذفات القنابل المسيلة للدم والدموع، زئير الأسود في حدائق الحيوان قعقعة الرياح والخماسين وابتهالات الشحاتين، زعيق الميكروفونات والأبواق وصفافير البوليس، دقات الطبول في ليالي الزفاف وعويل الشهيدات وأرامل الشهداء، كانت النوافذ مغلقة

بالزجاج المزدوج لا ينفذ منه صوت، كأنما العالم الخـارجي مات، ولم يبق على قيد الحياة إلا رستم وهي بـين ذراعيـه يهمس في أذنها، باحبك وا العظيم باحبك.

ـ وليه تحاف بربنا إذا كنت بتقول الحق؟

يميل رستم بجسد بعيدا عنها قليلاً، يقول لنفسه، تتكلم في الفراش مثل كارمن، ربما تكون هي كارمن، أو أختهـا الصغرى، أو ابنتها، نسخة طبق الأصل منها، وصوتها يكاد يكون هو الصوت.

ـ لا تدفن رأسك في الرمـال يـا رسـتم وتتـرك مؤخرتك عارية، كم عرفت من النساء وكم عدد أبنائك غيـر الشرعيين؟

ويقول رستم لنفسه، لها حق أن تقول عني ما يقولـه المنافسون لي في الانتخابات والحاقدون والحاقدات، ولكنـي في نهاية الأمر رجل مثل الرجـال، ولا يعيـب الرجـل إلا جيبه.

ـ كفى يا رستم، أنت كهل فاسق مثل ثمـرة فاسـدة سقطت من الشجرة وأكلها الذباب.

لا يسمع ما تقول مجرد عبارة عابرة في الرواية، كتبتها كارمن في لحظة غضب، أراد أن يصفع عينيها الثاقبتين لا يطرف لهما رمش، أراد أن يبكي أمامها لولا الخجل والعار، رجل مثله يبكي أمام فتاة مثلها؟ لمعت الدموع في عينيه رغم إرادته، كشفها ضوء خافت يتسلل من شقوق الشيش، هناك شيء يفوق إرادته دائما، مثل دمعة ساخنة حبيسة من وراء عينيه، تفاجئه بغتة في الظلام حين يتسرب ضوء من الشقوق، أو حين تسري إلى أذنيه أغنية في عيد الأم، يتذكر أمه الغائبة وأختها التوأم، أو حين يتمشى على شاطئ النيل ويرى كلبا عجوزا مربوطًا بسلسلة، تفر الدمعة الحبيسة من وراء عينيه كأنما هو هذا الكلب العجوز المربوط.

يتمتم رستم بصوت متحشرج، أنا أخطأت في حقكم، سامحيني، أنا أخطأت في حق كارمن وكل امرأة عرفتها، أنا ملعون مطرود من الجنة مثل إبليس، أنا مثل إبليس بدون أم، لو كان لإبليس أم ربما لم يكن إبليس، آه من الهلاوس. ما دخل إبليس بما أنا فيه، وهل آمنت أنا بوجود إبليس؟

فتح رستم عينيه عن آخرهما وصـاح، كـل شـيء عبث! كان يردد هذه العبارة دائما في لحظات الفشل، حـين تهجره كارمن، حين يسقط في الانتخابات، حين يتسلم جائزة عن رواية تافهة، حين ينجذب إلى امرأة لا تنجـذب إليـه، وحين يرى صورة ابنه غير الشرعي مازوقة علـى جـدار بيته، يضرب الهواء بقبضة يده صائحا، كل شيء عبث فـي هذا العالم! ويشوح بيده ويتحشرج صوته، عبث!

من وراء جفونه يراها تنظر إليه، عيناهـا ثاقبتـان ملامحها منحوتة في الحجر، كأنما ميتة، يجهد عينيـه فـي السيطرة على عينيها، يفكر في سميح، لماذا أحبت سميح ولم تحبه هو؟ يستدير ويواجهها، يرفع يده عاليا ليصفعها فـوق عينيها، يريد أن يشق قلبها بسكين، ويرى من هـو الرجـل داخل قلبها، هي كارمن عن يقين أو نسخة منها طبق الأصل، الوحيدة من النساء التي أحبها، والوحيدة من النساء التي لـم تحبه.

* * * *

سيارته المرسيدس تمشي في شوارع القاهرة، تتحرك عجلة القيادة وحدها تحت يده النائمة، المقعـد إلـى جـواره

خاليا، يرمقه بطرف عين مندهشا، كأنما كارمن كانت جالسة في هذا المقعد منذ لحظة، ثم غادرته في الحلم، أو في حلـم داخل حلم مضى منذ سنين، تبدو والوجه في الشوارع نائمة، نصف ميتة، محنطة بطريقة غريبة، مثل الفراشات التي كان يحنطها داخل الكتب في المدرسة، دوائـر رماديـة حـول عيونهم نجت من الموت، ترمقه العيون مـن وراء سـحابة سوداء، يسوق رستم المرسيدس وهو نائم بكفـاءة أكبـر، لا يبطئ ولا يسرع، بالاتزان المعهود فيه في حزب الحكومـة، يمسك العصا من الوسط، لا يحـب اليمـين ولا اليسـار، لا يمشي أبدا إلى نهاية الطريق، يخاف النهاية كأنمـا المـوت، يفحص وجهه في مرآة السيارة، لا يحب هذا الوجه منـذ رآه في الطفولة، كانت خالته تقول أنه جميل، يحقد عليه الرجـال لأنه جذاب للنساء، ينافسونه في الانتخابات وفي الحب سيان، من خلفه امرأة تشبه كارمن تقود سيارتها الفيات الصـغيرة، تطارده كارمن في الحياة وفي الموت، كـان المفـروض أن تمضي دون أثر كما يمضي كل البشر، لكنها تركت وراءها الرواية، لتنغص عليه عيشته، لتؤكد له أنهـا موجـودة وإن الذعر رغم اتزانه، كأنما لم يكتب رواية واحدة، كأنما كتبـه

المقررة على المدارس تلاشت من الوجود، شوارع المدينـة ترمقه بعيون مزدوجة وظلال مراوغـة، تمتلـئ الشـوارع بالعيون والأنوف والأفواه، يقبض بيديه على عجلة القيـادة، تهتز الأرض تحت العجلات، هل أصـابه الجنـون أم أنـه زلزال حقيقي؟ ملايين الأفواه تهتف بصوت يـرج الأرض، يسقط رستم، أهي مظاهرة ضده نظمها المنافسون لـه فـي المجلس؟

وضع رأسه فوق عجلة القيادة، نام بضع لحظـات، يشعر بما يشبه الإرهاق، لا يصيبه الإرهاق إلا عند الفشـل، يفتعل خناقة مع زوجته لأي سبب، يتصور على نحو عجيب أنها السبب وراء فشله، يزعق بأعلى صوته حتى يسقط فـي النوم، ماتت زوجته ولم يعد له أحد يزعق فيه، يصحو رستم من النوم فجأة، لا تزال يده فوق عجلة القيادة، لم تكن زوجته امرأة، كانت كاتبة، تزعق فيه بمثل ما يزعق فيهـا، يرتفـع صوتها على صوته، فيسكت، لا شيء يسـكته إلا الصـوت الأعلى منه، يستقر في النهاية بين ذراعيها، لم تكن تشـتهي شفتيه، كانت تشتهي شيئًا آخر، رجل آخر أو امرأة أخـرى، أو ربما هي شهوة الكتابة، تفوق الشهوات الأخرى، وكان هو

يشتهي شهوتها، يحاول أن يكتب مثلها وهو لا يحب الكتابة، لا يندم على شيء في حياته إلا الكتابـة، كانـت الصـفحة البيضاء ترمقه بعين حمراء، مثل عين إبليس، أو عين أبيـه وهو طفل، عين مفتوحة ترقبه، لا تكف عن مراقبته، تؤنبـه لأي حركة، أو دون حركة، لمجرد الجلوس أمـام الصـفحة البيضاء دون أن يكتب حرفًا، ويقول رستم لنفسه، ربما عين أبيه هي السبب وراء فشله في الكتابة، أو ربما هـي عـين زوجته، لو كانت كارمن امرأة وليست كاتبة ربمـا أصـابه النجاح، كأنما الكتابة فيروس يأكل خلايا المرأة.

تنحرف السيارة لتدخل جاردن سيتي، كأنما تعـرف الطريق وحدها، لا يزال الحي هادئًا كما كان إلا ميكروفـون ضخم أصبح معلقًا فوق مئذنة طويلة برزت فجأة كأنما مـن بطن الأرض، ومحل جديد لبيع الهامبيرجر ظهر فجأة أيضا عند ناصية الشارع، بالإعلان الذي تضيء حروفه وتنطفـئ ثم تضئ وتنطفئ، لتعود تضئ من جديد، دون توقـف إلـى الأبد، يتنهد بصوت مسموع متذكرا قصيدة مريم الشـاعرة، ليس هناك شيء إلى الأبد حتى الحب، ويضيف بصوت غير مسموع، حتى ماكدونالد.

* * * *

يتقلب رستم فوق سريره العريض مؤرقًـا، أصـبح السرير بعد غيابها أعرض مما كان، هذه المـرة لا تغيـب كارمن على نحو مؤقت، بل هو غياب إلى الأبد، تتوقف كلمة إلى الأبد، في حلقه كالغصة، لا يتخيل شيئًا إلى الأبد، ربمـا هي في الحمام، يكاد يسمع صوتها تغني داخل البانيو، لم تكن تغني بهذا الصوت العذب إلا بعد أن تنتهي من الرواية، كأنما بلغت قمة الأورجازم ودخلت تستحم، تمـلأ البـانيو بالمـاء الدافئ، تدعك جسدها بالليفة والصابون، كأنما تغسـل عـن نفسها إثم اللذة.

يضغط رستم على زر النور، يرى الرواية إلى جوار السرير فوق الكوميدينو، مكتوب عليهـا اسـمها، كـارمن، الحرف وراء الحرف محفور، يكاد يشـبه تقـاطيع وجههـا الحجرية، كأنما منحوتة في الصـخر، وعيناهـا ثاقبتـان لا يطرف لها جفن.

فتح رستم الرواية عند الفصل الأخير، لم يبق أمامـه إلا آخر فصل، بدت حروفها غير واضحة، التيار الكهربـي يضعف أم عيناه تضعفان، يتذكر فجأة أنه لا يرتدي نظـارة

القراءة، يبحث عنها في غرفة النوم في المكتبة، فـي أدراج المكتب، في الصالة الداخلية، فـي أي مكـان بالبيـت، دون جدوى، اختفت نظارة القراءة، لا شيء يغضبه مثل اختفـاء نظارة القراءة قبل النوم، ويزعق بصوت غاضب:

ـ راحت فين النضارة؟

ـ...............

ـ فين النظارة؟

ـ..................

ـ طبعا مش سامعاني! غارقانة في الرواية!

ـ.............

ـ فين النظارة يا ست هانم؟

ـ.................

لم تكن كارمن ترد عليه، تقول لنفسها، رجل يسـأل زوجته أين وضع نضارته، المفروض أن يسأل نفسه لو عنده منطق، لكن المنطق يغيب عن عقل الرجل المتزوج، يتصور أن زوجته مسئولة عن نزواته وزلاتـه وضـعف ذاكرتـه، وسقوط شعر رأسه، واختفاء نضارته أو مفاتيح سـيارته أو

زجاجة الحبوب الخافضة لضغط الدم، أو الرافعة للمعنويات، أو الحبوب المقوية روحيا أو جنسيا.

ينسى رستم أن زوجته ماتت، ويزعق بصوت أعلى، يشعر في غيابها بحرية أكبر للغضب منها، أو ربما بشجاعة أكبر.

ـ فين النضارة؟ سامعاني؟

ـ..........

ـ تسمعيني إزاي وانتي غارقانة في الرواية.

ـ.......

الرواية، الرواية، الرواية.

لم يكن رستم يكف عن ترديد هذه الكلمة حتى تضج كارمن وتقذف بقلمها إلى الأرض زاعقة:

ـ وماله لما أغرق في الرواية، حرام إني أغرق في الرواية، هي الرواية دي راجل تاني؟

ـ لو كان راجل تاني كان أحسن، على الأقل يأخـد نص عقلك وأنا آخد النص الثاني، كدة بالعدل والقسطاس.

ـ أيوه، زي العدل بين الزوجات.

تسيطر نوبة الغضب على رستم وهو يقرأ الفصل الأخير، يدون الحوار بين الزوجين في الرواية كما كان يدون بينه وبين زوجته، ثم تنقضي لحظة الغضب، يعثر رستم على الشيء الضائع منه، كان ينسى أحيانًا ويضع النضارة في الثلاجة، ويقول لكارمن، العباقرة مصابون بداء النسيان، لأن عقلهم مشغول بالأشياء الأهم، يحكي لها عن ليسنج العظيم، في مرة عاد في الليل إلى بيته ودق الباب (كان قد نسي المفتاح) فأطل خادمه من النافذة، منعته الظلمة من رؤية سيده، تصور أنه زائر، فقال: معذرة يا أستاذ، سيدي ليس بالمنزل فاستدار ليسنج مبتعدا وهو يقول، حسنًا سأعود مرة أخرى.

وتضحك كارمن على هذه الحكاية في كل مرة تسمعها من زوجها، تقول لنفسها، لا بأس من إظهار الإعجاب بقصص الزوج المعادة مثل كل الزوجات السعيدات، وهي زوجة ليست غير سعيدة، تحظى بحرية أكبر من النساء، لكنها أقل من الحرية الضرورية للكتابة، تحس بشيء في أعماقها محبوس، ليس الروح ولا الجسد ولا العقل، شيء مجهول بداخلها في العمق، تحاول أن تفك

قيوده، يشبه المارد المربوط بالحبال، تسعى بالكتابة لتحريره دون جدوى، كأنما المرأة لا يمكن أن تكون حرة بينما النساء مكبلات، ولا يمكن للكتابة أن تتحرر في عالم تغيب منه الحريات.

يتنهد رستم وهو يقرأ: آه صحيح، يبدو كلام كارمن معقولاً بعد موتها، ربطوها في المستشفى بأعمدة السرير، سلطوا على رأسها تيار الكهرباء، كان هدفهم هو رأسها وليس الجسد أو الرحم أو الروح، فقط رأسها وما هو داخل الرأس، عقلها كان هو المطلوب ليسحقه التيار الكهربي، جريمتها كانت في عمق الرأس حيث مركز العقل، وانتصرت عليهم كارمن في اللحظة الأخيرة قبل الموت، انطلق المارد من أعماقها، بقوة مجنونة، كافية لتدمير العالم، كانت حركتها هي الأخيرة قبل انعدام الحركة، قمة اليأس حين تصبح الحركة الأخيرة هي ذروة الأمل، وتصبح الكلمة بالقيود منطوقة.

أنهى رستم الفصل الأخير من الرواية، أصبح جالسا في السرير خلف ظهره الوسادة، لا يريد أن ينام ولا يريد أن يصحو، يتمنى الظلام الكامل ليفقد الوعي، ضغط على الزر

ليطفئ النور لكن الظلام لم يتحقق، هناك ضوء يتسرب مـن شقوق الشيش، يضئ الحرف وراء الحرف وينطفئ، ويعـود يضئ من جديد، دون توقف، يقول لنفسه: لن يبقى بعد موته شيئًا إلا هذا الإعلان وهناك شيء أفظع من المـوت، وهـو الأرق، عدم القدرة على النوم، لا يستطيع أن ينـام إلا فـي الظلمة الكاملة، كان ينام كل ليلة دون جهدن، ربما ليس هـو رستم الذي كان، ربما لم يكن هو رستم أبـدا، كـان شـبيها برجل اسمه رستم، زوج كارمن في الرواية، عضو المجلس الأعلى صاحب أعلى الجوائز، ليس هو هذا الرسم المتكـور حول جسده في السرير، تفوح منه رائحـة مـاء الكولونيـا لافندر، ورائحة أخرى تشبه العرق يلتقطها أنفه لأول مرة.

ينهض رستم ليدخل إلى الحمام، يغسل جسده بالمـاء والصابون داخل البانيو، يتعكر الماء بلون أصفر له رائحـة العرق، يخرج رستم من البانيو، ينظر فـي المـرآة فـوق الحوض، يرى شخصا يقف خلفه يزغلل عينيه بضـوء فـي يده، يستدير بسرعة مستعدا للدفاع عن نفسه، لا أحد هنـاك، مجرد ضوء الإعلان في الشارع يتسلل خلف نافذة الحمـام، يستدير رستم وينظر إلى وجهه في المرآة، يعود الشبح إلـى

الظهور من خلفه، وجه رجل نسخة منه يقف خلفه مباشـرة، بعد الاستدارة أدرك الخدعة، مد يده إلى الفرشاة، غمر وجهه ودفنه بمعجون الحلاقة، ملأت أنفه اللافنـدر، سـيعود إلـى السرير لينام مع زوجته، ليأخذها بقوة دون إرادتها، لا شيء يعالج الأرق إلا العنف والعرق الغزير إلى حد الغرق.

ويرفع رستم رأسه إلى السقف، أبيض مصـقول إلا من نقطة سوداء تتحرك خفية، ربما ذبابة أو بعوضة، لم يكن يستطيع النوم في مكان واحد مع ذبابـة أو بعوضـة، كـان يصعد فوق السلم ويطاردها بالماطشة، تهرب منه في مكـان خفي، لا يعثر عليها أبدا في أي مكان، ربمـا هربـت إلـى غرفة النوم تحت السرير، ينثني ليبحث عنها تحت السـرير، وراء الدولاب، دون جدوى معركة تدور بينه وبين البعوضة، يهمس لنفسه بلا صوت: عقلها أذكى من عقلي، لـو سـمعه المنافسون له هذه اللحظة؟ أو لو رأوه وهو يزحـف تحـت السرير باحثًا عن بعوضة؟ طرد الفكرة عن رأسه بحركة من يده، ولماذا لا يتطور عقل البعوضة كما تطور عقل المـرأة، وأصبحت كاتبة؟

ويقفز رستم فوق السرير بحركة طفولية، في أعماقه طفل وإن أصبح جسمه طويلاً عريضا، يكاد يدفن وجهه في الوسادة كأنما صدر أمه أو أختها التوأم، يرفع رأسـه عـن الوسادة فجأة، خطرت له فكرة لم تخطر له من قبـل، عـاد على الحمام، فتح خزانة الأدوية، هناك زجاجة من البلاستيك داخلها الحبوب، كان يأخذ حبة واحدة أو نصف قبل النـوم، أفرغ الزجاجة كلها فوق الرف الزجاجي، كان عددها أربعة وثلاثين حبة، قال لنفسه، ربما تكفي، الأمر سهل، مع كـوب من الماء أو نصف كوب، أمر سهل جدا، يبتلعهم كلهم دفعـة واحدة.

تلفه العتمة وهو يدخل إلى غرفة النوم، كل شيء كما كان، حتى كارمن راقدة في السرير تنتظره، تفسح له مكانًـا بجوارها، تحوطه بذراعيها وتقول:

- أقسم أنك حبي الوحيد.

- من يقول الحق لا يحتاج إلى القسم.

- أجمل الحب أكذبه كما تقول مريم الشاعرة

يبدو أنها تتلاعب بالكلمات المراوغـة، وفـي هـذه اللحظة تختفي كارمن، كما كانت تختفي لتكتب الرواية، لـم

تكن تستطيع الكتابة في وجوده، جسده يبدو كأنما لـم يعـد موجودا، مثل شبح أو روح تفكر دون أن يكون لهـا جسـد، وعين تراقب دون أن ترى، ومن بعيد، من بعيد جدا يـرى ضوءا من وراء النافذة، يضئ وينطفئ ويضئ وينطفئ ثـم ينطفئ دفعة واحدة، دفعة واحدة ينطفئ ولا يعود يضئ.

القاهرة صيف ٢٠٠٤

تمـــت المراجعـــة

٢٠٠٥/٤/٢٦